ورشـــــة النـــقـــد للســـــــرد الـــروائـــى

نموذجًا

سباعية الكاتب السيد حافظ الجزء الأول { قهوة سادة – قهوة زيادة }

جدلية الأنساق والدلالات الرمزية المضمرة في السرد الروائى

نموذجًا

رواية " قهوة سادة "

للكاتب السيد حافظ

الدكتورة/ نجاة صادق الجشعمى

الطبعة الأولي ٢٠٢١

الإهـداء

إلى والدي

صادق محمد الوداى

رمز الوفاء والعطاء والإنسانية

رؤى نقدية بقلم

د. نجاة صادق الجشعمى
أ.د. كمال الدين عيد
د. جميلة رحمانى
د. ستار عايد العتابى
د. وفاء كمالو
د. إبراهيم بوخالفة
أ. عواطف الزين
أ. أحمد فضل شبلول
أ. أمين بكير
أ. سحر الجابري

د. أمال شوقى
أ. فاديا سلوم
د. حنان حطاب
د. لبلبة فتحى خليفة
د. أمجد ريان
أ. دينا نبيل عبد الرحمن
أ. فهمى إبراهيم
أ. معتز العجمى
أ. محمد الدسوقى
أ. بسنت حسين

تقديم

بقلم : أ.د. مازن موفق صديق الخيرو



جدلية الأنساق والدلالات الرمزية المضمرة في السرد الروائى نموذجاً "قهوة سادة " للكاتب السيد حافظ"

تعد رواية " قهوة سادة " للروائي السيد حافظ مشروعاً ثقافياً ونقدياً باهراً في آن واحد ، لما تحمله في بنيتها العميقة من عملية تناسل للمدلولات الثقافية ، وما هذا المشروع النقدي إلا دليلاً واضحاً على ذلك، فهو يعالج "جدلية الأنساق والدلالات الرمزية المضمرة في السرد الروائي" في هذه الرواية ، وهذه المعالجة تشتغل عليها المنظومة النقدية الحديثة في طروحاتها ، إذ أصبحت " الأنساق المضمرة " نظرية معرفية – ابستميولوجية تفرزها البيئة الثقافية والحضارية، وهي تختفي تحت عباءة بنية الخطابات الأدبية السردية كالرواية ، وتؤشر بصورة ادهاشية لهذه الثقافة الكائنة فكرياً، والمتحركة ألسنياً ما بين عنصري عملية التواصل – الخطاب والمتلقي ، وتتبنى هذه النظرية بعضاً من استراتجيات جاك دريدا وميشال فوكو التفكيكية القائمة على مبدأ الاختلاف بالدرجة الأساس ، لكنها تسعى لتحقيق التكامل المعرفي ما بين الظاهر والمضمر لبيان مجمل الأنساق والدلالات الرمزية والإيحائية سواءً أكانت مهيمنة أو متضافرة ، مشكلة بذلك ثنائية ضدية متقاطبة ، مجالها النقد الثقافي الذي يؤسس لثلاث بنى قصدية : معجمية ورمزية وثقافية ، فالدلالة الرمزية والثقافية ثيمات مضمرة مخبوءة تحت السطح عملت الذات على صياغتها سردياً لا لجعلها مشروعاً ذاتياً فحسب وإنما ثقافة كلية تحكمها قوانين الخطاب وكفاءة المتلقي في التقاط السياقات الداخلة والخارجة عن الكلام .

السيرة العلمية C.V
أ.د. مازن موفق صديق مصطفى الخيرو

الوظيفة الحالية : عضو هيئة تدريس
المنصب الحالي : أستاذ جامعي في قسم اللغة العربية / كلية التربية للبنات / جامعة الموصل

اللقب العلمي : أستاذ مشارك	√ أستاذ	☐ أستاذ مشارك	☐ مدرس	☐ مدرس مساعد
تاريخ الحصول على اللقب	٢٠٢٠/١١/١	٢٠١٠/٩/١٦	٢٠٠٦/٦/٢٥	٢٠٠٢/١٠/٧

معلومات شخصية			
الاسم :	مازن موفق صديق مصطفى الخيرو	الجنسية :	عراقية
العنوان:	العراق	الهاتف :	٠٠٩٦٤٧٧٠٢٠٢٧٦٤١
		البريد الإلكتروني :	Mazin_alkhairo@yahoo.com

المؤهلات العلمية				
الشهادة:	بكالوريوس	ماجستير	دكتوراه	شهادات أخرى
الجامعة:	الآداب/الموصل	الآداب/الموصل	الآداب/الموصل	-
تاريخ الحصول عليها :	١٩٩٩/٦/٣٠	٢٠٠١/١٢/٢٣	٢٠٠٦/٦/١٤	-
التخصص العام:	الأدب العربي			
التخصص الدقيق :	البلاغة والنقد			

الأبحاث المنجزة خلال المدة الماضية	
العدد الإجمالي :	١٥

مقدمة الكاتبة

كان حلمًا فخاطرًا فاحتمالًا ثم أضحى حقيقة لا خيالًا كان حلمًا أن يكون هناك مشروعًا نقديًا في ورشة نقدية لمجموعة من الباحثين والكتاب حول مشروع كاتب ما أو شاعر ما وقد تعودت الساحة النقدية على أن يكون للناقد حريته المطلقة في الاختيار أو التهميش لأنواع الإبداع المختلفة كان علي أن افكر بطريقة مختلفة أن يكون هناك مشروعًا نقديًا جماعيًا وليس فرديًا ، وواتتني الفكرة بأن نجتمع ثلة من النقاد المبدعين حول مشروع إبداعي لكاتب متميز له مشروع متعدد الجوانب والرؤى ويتيح لنا مشروعه التحرك والاجتهاد والاستبصار والتفرد ونحت مصطلحات جديدة على النوعية في السرد وعلى تشظي العمل الإبداعي في قانون خاص به وكانت تجربة السباعية الروائية التي كتبها الروائى السيد حافظ من ٢٠١٠ حتى ٢٠٢١ وهي السباعية الحافظية للكاتب السيد حافظ الروائي إلى الباحثين فى الأدب الروائى :

أولاً : رواية مسافرون بلا هوية – عام ١٩٩٧

ثانياً : رواية نسكافيه عام ٢٠١٠

مشروع الملحمة الروائية للسيد حافظ فى ١٩ جزء رواية :

الجزء الأول : قهوة سادة عام ٢٠١١ خرج منها :

١- شهر زاد تحب القهوة سادة ٢٠١٨

٢ - كرسى على البحر - ٢٠١٨

الجزء الثانى : رواية كابتشينو عام ٢٠١٢

خرج منها : ١ - نور وموسى الحبل السرى للروح ٢٠١٨ ٢ - هل مازلت تشرب السيجار ٢٠١٨

الجزء الثالث : رواية : ليالى دبى شاي أخضر ، شاي بالياسمين - عام ٢٠١٤ خرج :منها : ١ – الحاكم بأمر الله وشمس ٢٠١٨

٢ – وتحممت بعطرها ٢٠١٩

الجزء الرابع : رواية : كل من عليها خان – عام ٢٠١٥ خرج منها :

١ – نيروزى والبنت وجد ٢٠١٨

٢ – كل هذا الحب ٢٠١٩

الجزء الخامس : رواية : حتى يطمئن قلبي – عام ٢٠١٦ خرج منها :

١ – حكاية البنت لامار وقراقوش ٢٠١٩

٢ – نسيت أحلامى فى باريس ٢٠١٩

الجزء السادس رواية : ما أنا بكاتب – عام ٢٠١٧ خرج منها :

١ – وهمت به ٢٠١٨

٢ – شط إسكندرية يا شط الهوى ٢٠١٨

الجزء السابع والأخير رواية : لو لم أعشقها - عام ٢٠١٩

إنها فرصة ثمينة لنا نحن النقاد أن نجتمع في ورشة نقدية على مائدة مستديرة وكل منا يبحر شرقًا أو غربًا في المناهج النقدية ويصعد شمالًا أو جنوبًا للبحث عن أوجه التشابه والتناص والإختلاف والتفرد والتنوع والتأطير المستقبلي للحركة النقدية مستغلين هذا المشروع الرائع لنتحرك عليه وندخل في سراديبه ونفتح صناديق الجمل المغلقة ونكشف أسرار السحر وشعوذة اللغة ونفضح سر المكنون لنجعله المعلوم ، أشكر كل من تعاون معي من النقاد والناقدات على إمتداد الوطن العربي هؤلاء المبدعون الذين لا يبحثون عن مال أو شهرة أو مجد زائف بل يبحثون عن شعلة الحقيقة المقدسة في روح الأدب الذي يظل خالدًا وتفنى الأمم

والشعوب ويفنى المبدعون والفلاسفة النقاد وتبقى الحقيقة في كتب وكلمات التي يحفظها جيل بعد جيل ولسنا ورشة نقدية منغلقة بل نحن منفتحون على كل من هو جاد لينضم إلينا ونرفض النقاد الباحثين عن المال والذين يمارسون الخديعة في كتبهم ليلًا ونـهارًا فلأتوجه بالشكر مرة أخرى لكل فرسان وفارسات الورشة النقدية.

د . نجاة صادق الجشعمى
القاهرة ٢٩ مارس ٢٠٢١



قهوة سادة .... قهوة زيادة

مرتكزات النص السردي

حد الالتحام بالنقد المستحيل

د. نجاة صادق الجشعمى

قهوة سادة .... قهوة زيادة

العنوان قد يبدو صادماً أو قد يكون مجرد تقشير مصطلحات ومفاهيم وتجميل نص معين غالباً ما يكون هذا النص السردي قد فقد الثقة بالقارئ أو العكس . أما المؤلف (الكاتب) يستنبط استراتيجية ثلاثية الأبعاد لنصه السردي لتصبح هذه الاستراتيجية مؤطرة بالتحدي وأحيانا الانفصال عن الوعي الذاتي والاتصال بروح النص ومرتكزاته من حيث البناء والشخصيات وإحراج النقاد والباحثين بما يخص دراسة المظاهر الجمالية من حيث القوة والضعف والتميز بين نوعية السرد. أما بالنسبة إلى الناقد الحاضر ذهنياً وفكرياً من أجل السرد وليس السارد فيصنف الناقد النص السردي من ناحية المعلوماتية والبناء والثيمات والعلاقة بينها وبين الشخصيات وعلاقة الكاتب بالقارئ والناقد معًا ومدى ما حققه الكاتب وقد ويوضح فتون الناقد بالنص السردي لمستوى النقد للنص الذي يستدرك القارئ والناقد بطريقة ذكية لايستحي من القول والتصريح سواء كان ضد أو مع أو حول؛ فالنص الروائي كيان مستقل بعيداً عن العبودية والمجاملة فهولا تابع ولا خاضع لسيادة وقانون فقط النقد البحثي وفق مسارات معمارية البناء السردي وخريطة هندسية للتحويلات الحداثية والتجريبية في إعادة البناء الروائي مما يصل بالنص حد الالتحام والتماهي والتمازج حتى الذوبان وربما أحيانا الابتعاد والافتراق وفك الارتباط بين الناقد والنص السردي وهذا بسبب فشل بعض النقاد في إيصال نظرياتهم الفاشلة أو عدم إنصات الكاتب ورفضه للنقد المعارض أو المضاد؛ لأن الكاتب يعتبر نصه السردي من المقدسات التي لايمكن المساس بها أو النص السردي من المستحيلات أن ينقد

سلباً حسب ما اعتادت المدارس النقدية عند بعض النقاد مبنية على المجاملات، وقد يعتبر الكاتب الناقد قد اجترح مملكة سرده حين يبحث في زوايا نصوصه السردية عن مكامن الضعف وفحص شامل لتلك التجارب الإبداعية حسب مزاجية النقاد والباحثين ليس من حيث الموضوعية والأسس الجمالية للبناء الدرامي، فيجب أن يكون هناك ثمة رؤية إبداعية أدبية ثقافية مرتبطة بأصرة عقلانية تبث الجمال بإمعنان بين ثلاث رسائل أو خطوط مهمه وهي (الكاتب ، القارئ ، والناقد) دون وضع خروقات للنظريات النقدية بحيث تؤدي إلى موت المظاهر الجمالية؛ فالناقد ملزم أن يتبنى التنظير المناسب للنص، وأن يجذبَ انتباه القارئ الباحث والدارس إلى مكامن الجمال وتقنية الكاتب.

هذه المقدمة الطويلة كانت ضرورية حيث أننا سنتناول رواية قهوة سادة للكاتب السيد حافظ في طبعتيها (الطبعة الاولى في سنة ٢٠١١، والطبعة الثانية في ٢٠٢٠) ففي هذه الرواية (قهوة سادة في الطبعتين) نجد طفرة وقفزة إبداعية ما بين الطبعة الأولى والطبعة الثانية فالطبعة الأولى مرت بمنعطفات وطفرات كثيرة، فالكاتب ليس كما كان من سبقه في العصور القديمة ليس كما كان يكتب على بصيص شمعة بل الكاتب عاصر التقدم التكنلوجي فأول الطفرات هي الكتابة على اللاب توب فهنا اللحظات التدوينية أوثق وأسرع وأكثف وكذلك المعلومات والنصوص والأجناس الادبية الأخرى فرواية (قهوة سادة) حدث وحكاية وفكرة ولحظة وإدارة ونسق وضخ معلوماتي ومذكرات واعترافات وخيال وقدرة على التدوين وصنعة وصناعة، فالكاتب "السيد حافظ" يسعى بخبرته الأدبية الفنية أن تكون هذه الخبرة فاعلة لدى المتلقي من حيث

السرد وخبرة الكاتب عبر النص السردي في رواية (قهوة سادة) نسجت خيوط ثقة خاضعة لمخيلة الكاتب وتلقي القارئ ومابين الواقع والخيال نتجت الفكرة فلا مستحيل أمام خيال الكاتب السيد حافظ ..فهل الصراع بين الفكرة وقناعة القارئ هو الذي صير الفكرة في حكايات شهرزاد أم حاول الكاتب إقناع القارئ المتلقي على أن حكايات شهرزاد هي واقع تحول إلى سرد روائي ..لذلك رواية (قهوة سادة) تتفرد بخصوصية حادة الذكاء ويستوجب دراستها وفق رؤى نقدية من ناقد مفكر يحمل وعياً فكرياً متوقداً وذهناً واعياً وذوقاً وتجربة سردية في مجال الرواية الحديثة المعاصرة . .ويقول الكاتب في روايته :

((لا تعتبي علي، قلبي وعمري ورزقي وحلمي ليس بيدي ..لاتعتبي علي فأنا بقايا فارس وحديقة أنغام لم يسمعها إلا القلة ..ألم أخبرك ياصغيرتي أنك شعلة في الروح حين تظلم، ولا أدري يدي من رجلي، ولا يساري من يميني ..لا تعتبي علي ودلليني ، ودليني على مسكن روحي لروحك، واغسلي قلبك بيدي ..لا تعتبي علي ، وأنا من يسقط من حروفي ألف شاعر وألف ألف كاتب مسرحي وروائي، وألف ألف ألف ألف أنثى جميلة تافهة ويهاجمني ألف دعي وصحفي وأشباه كتاب وألف سياسي جاهل))..

وتستحم الروح في عطر الحروف وتتعطر المشاعر في عطر القافية وهمس الروح وسجع الأنغام الراقية التي تعزف ألحان العشق للحروف الحافظية في سباعيته الروائية. يؤكد الكاتب أن (قهوة سادة) سردية روائية ومسرواية اقتحمها المسرح وانمزج بسردها وبكل حروف صفحاتها ترى وتقرأ العشق والحكايات والتاريخ والأحداث فهي ليس

رواية عادية ولكنها تعانق وتتلاحم مع المسرح وهذا حلم الكاتب "توفيق الحكيم" في بنك القلق ..وكذلك حلم الكاتب "يوسف إدريس" في (نيويورك ٨٠) ويؤكد لنا الكاتب "السيد حافظ" أنها ليس حلم له بل مشروعه القادم وهذه الرواية (قهوة سادة) هي الجزء الأول من السباعية التي تناولنا بعض من أجزائها ابتداءً من السابع (لو لم أعشقها) ثم (ما أنا بكاتب) ثم (حتى يطمئن قلب) و (كل من عليها خان) و (كابشينو) والآن نحن في متناول (قهوة سادة) الكاتب السيد حافظ له مشاريع وليس مشروعاً للكتابة وهذا المشروع منفصل متصل فالكاتب صاحب خبرة وصنعة كبيرة ولكنه متواضع النفس في الكتابة والحبكة الدرامية وذلك من خلال عمله، وبارع في مجال المسرح والتلفزيون والصحافة ففي رواية (قهوة سادة) يقول الكاتب سأتناول التاريخ في كل جزء، وأقوم فيها بتصحيح التاريخ المزور والمسكوت عنه في حياتنا ففي هذا الجزء سوف أتناول إخناتون وفي كل جزء من الأجزاء سأقوم بهذا؛ لأننا قمنا بتزوير التاريخ وقدمناه للناس، وأنا مثلك أيها القارئ والناقد والإنسان المثقف الواعي درست التاريخ المزور في المدرسة وحتى الآن ..يوضح لنا الكاتب أنه عكف وجند وقته للبحث والقراءة؛ لكي يصحح ما قرأ لعل ما وجده من خلال قراءته زاده علماً ومعرفة فيزج بهذه المعرفة والمعلومات التاريخية المصححة أمامك أيها القارئ في هذه السباعية ليكشف عن عينيك الغمامة السوداء وينور عقولنا وعقول القراء فمن خلال هذه الرواية المعلوماتية والتاريخية والمسرواية الجامعة بين فنون وأجناس أدبية منفصلة متصلة متداخلة متجانسة تتنقل وتتجول في تكنيك وخبرة حافظية قد أجزم لامثيل لها في

هذا العصر، لكنها تحتاج إلى من يقرأ وأمتي للأسف لا تقرأ فقط تنافق وتجامل وتناقش على الفراغ ...فالكاتب يخبرنا هنا أنه عكف خمس سنوات وظل عاكفاً حتى زاد من معلوماته وقراءته فكان لابد أن يقدم نصاً منقحاً ويطلب منا الكاتب أن نوقد الضوء ونمر على الظلام ونقول للظلام وداعاً ها هو النور تباً لكم يا عشاق الظلام ..الكاتب لن ينسى نفسه بالقراءة والكتابة بل كان يتناول جرعات التخدي؛ ليخدر نفسه بالموسيقى والألحان وإلى سماع صوت عبد الحليم وصوت فيروز ..فمن هو المجهول؟ إذا كان الكاتب من سلالة النور؟ نعم العلم والمعرفة نور وبحور وسرور ..وكل الأديان تناشد وتشجع العلم والمعرفة والقراءة أول كلمة نزلت على رسولنا الكريم محمد "صلى الله عليه وسلم" "اقرأ" فالواجب والافتراض والمطلوب منا نحن أمة اقرأ أن نقرأ وهذا هو النور الذي يضيئ أمتنا وحياتنا وإصلاح نظامنا الاجتماعي والاقتصادي والثقافي بكل مجالاته فلا ندع الأمية تأخذنا للمجهول. الطفولة الجميلة وبناء الشخصية منذ الساعات الأولى للولادة إما ناطح أو صالح وإما عبقري أو غبي وإما فيلسوف أو تافه وإما كاتب أو جاهل وهنا كاتبنا يناشد العابرين على ذكرى طفولته ويطلب منهم : "أيها العابرون على ذكرى طفولتي ألقوا عليها الورود والابتسام" ولن ينسى الكاتب النساء فيصف النساء ويقول: "وأنسى أن النساء جسد من لحم ودم وأتذكر أنهن عطر له روح ويجرحني صدى صوتك في ذكرياتي ، فكيف يكون حالي؟ مر الفرح على بابي وجد الحزن حجز كل الأمكنة"... ونقلب الصفحات نجد الكاتب يهدي روايته هذه الى ابنه محمد فيقول: "إلى عينيك الحزينتين..إلى كفيك يا بلادي المقهورة الجميلة إلى حب

أعيشه، ولا يهجر أحلامي وتمرد بلا سبب ليكون حباً لا يعرف الانتهاء إلى ابني محمد الرائع أبو كادي وفريهان" ثم يؤكد الكاتب بالآية (٨٥ من سورة الإسراء) عن الروح وهي الفكرة التي نشأت بها السباعية تناسخ الأرواح (ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) صدق الله العلي العظيم، ويشرع الكاتب الكتابة في الرواية ويبدأ في الفصل الأول بعنوان (عشق لا يعرف الانتهاء) وكتب بحروف كبيرة وفي الجانب الأيسر أسفل الصفحة كتب بحروف صغيرة (حكاية سهر الروح السابعة) "سهر" هي إحدى بطلات هذه السردية المسرواية، وهي العشق والحكاية والرواية وهي اليمامة والوردة والغواية وهي الزغرودة والانتفاضة وهي الاسم الذي يطرب الرجال والعشاق والشجر والعصافير ويتناثر زجاج النوافذ من حجر الجبل. الكاتب "السيد حافظ" في رواية قهوة سادة يناقش سياق كتاباته السردية سواء في المسرح أو القصة أو الرواية مع جمله من العناوين هي .. (أسألكم أن تغنوا للحرية) (الأيام التي لا تشبه بعضها) (الأحلام وما أكثرها حين تغرق الإنسان وتحبطه وأحيانا تجعله يشعر بالسعادة حين يهرب إليها ولا يعود للواقع الأليم ..) والمواضيع المتشابكة مع واقعية الحياة والصفات والعادات والقيم المتغلغلة في سرائر الكاتب بدءاً من الخوف والأمل مروراً بالرغبة في التميز والنجاح والتفرد في جودة النص السردي من حيث البناء والحكي والفكرة والعناويين منها (الكتابة الجميلة جريمة وغريبة) ينقلنا السيد لنقرأ "جبران خليل جبران" فيقول الشاعر: (ليت لي ألف عين ..ترى كل ما يعرض على الوجود ..من عجائب وطرائف، وليتني أبقى تائقا إلى مرأى ..ما خفي عني من أسرار

ومكنونات) ليت لي ألف عين أرتقي بها مروراً من تقديم الأفضل والأحسن والاحدث مع التقدم بالعمر ليس من باب الحظ والقدر وإنما تماشياً مع المعطيات الحياتية فمن الأجدر بالكاتب "السيد حافظ" أن يحدد ويعترف بهذه المنزلة التي وصل إليها من خلال ثلة قراء مثقفين وكذلك نقاد وباحثين محبين متميزين فهو مدين لهم رغم أن الحرية الحقيقية للكاتب السيد حافظ هي وليدة التفلسف لافتة نظره إلى حقيقة قد تكون غائبة عن عين بعض الكتاب المبدعين هي: أن الحياة الجيدة هبة الله وليس هبة فلسفية وهذا يكمن في النشاط والإبداع السردي وتدريب العقل وبرمجته في هذه الحياة على التقنيات المستخدمة في البناء السردي والتطور اللغوي المستخدم في السرد سواء في المسرح أو الرواية أو في أي جنس آخر من الأجناس الأدبية في رواية (قهوة سادة) كان البناء مختلفاً في المستوى فمثلا العناوين التي استخدمها الكاتب في بدء كل فصل من الفصول وهي عناوين فرعية لكن لها مدلولاتها عن الفضيلة التي تعطيها الطبيعة للإنسان بل كيف تحول تلك العناوين إلى كائنات بشرية تجيد الفن بالحكي أو الرسم أو الشعر أو التمثيل، فيجب على الكاتب" السيد حافظ" الحذر وكل الحذر حين يختار مثل تلك العناوين مع أنه قد تميز عن غيره بدرجة الامتياز في الاختيار لكن يجب توخي الحذر وذلك بسبب أن يجيد استجلاب النفس المطمئنة والجسد وتلك العلاقات المسكوت عنها ومتعلقاتها؛ لأن الفضيلة لا تولد بل الإنسان من يولد من أجل الفضيلة وهنا الكاتب يدس لنا رسائل كثر منها الإرشاد والتوجيه ،إنكار الذات، خدمة الروح المتعذبة من التهميش ، تحسين نمطية التفكير من المشاكل وإيجاد الحلول وتنظيم الحياة مع

تحقيق الغايات وهي الحكمة التحكم بالنفس والاعتدال والشجاعة في القرار مهما كان مفيداً ممتعاً عملياً ليس صورياً ولا تخيلياً بل واقعياً على تربة واقع الحياة .. والتحدث عن الآخر برؤية الكاتب الحكاء ففي الظاهر تبدو رواية (قهوة سادة) ذاتية أي ذات السارد فهي تشكل جوهر الفكرة يرصد ملامح قيمة للبحث والتنقيب فالكاتب (السيد حافظ) المحرك للكتابة لتجسيد الواقع وفي بعض الأوقات لمحات من التخيل التي هي بالتأكيد إبداع فتح للرواية أبواب من التجديد والحداثة والتجريب ..فمن اللافت للقارئ الباحث هو اتجاه الكاتب نحو المسرح وهذا نتيجة الخبرة التي حصل عليها الكاتب من خلال التأليف المسرحي فاختمرت وتضافرت في نفس الكاتب وصنعت بآلياته وتقنياته تجارب معبرة مائزة للسرد الروائي قفز به من الكلاسيكي المعتاد عليه إلى الحاضر وقلبه وهو يغوص في الإبداع المتجدد متوغلاً بالتجريب وقلب السرد الروائي بدهشة وهذه هي الحقيقة الوحيدة والصادمة العابرة على القارئ؛ لأنها صفعة مباغتة من قبل الكاتب واستخدام مفاجئ غير مسار الرواية عما اعتاد عليه القارئ ..الكاتب هنا فرمت مكابح التأمل والتفكير والفرح والحزن والصمت وحتى الألم نحت لها أقنعة ترتديها متماثلة في الرمزية كشخصية شهرزاد الحكاءة ومكانتها في التراث السردي العربي منذ سالف العصور و (حكايات ألف ليلة وليلة) ليس ببعيد وبذكائها وخيالها الخصب وجمالية حبكتها عالية الإتقان نجت من سيف شهريار، فتم عقد اتفاق بين شهرزاد وشهريار مقايضة بالسرد مما توقف وتراجع شهريار عن قراره في لحظة خارج سيطرة الإحساس بالحواس ..نستنتج من هذه الشخصية أن الأدب دون دهشة وإبداع ليس بأكثر من عين كاميرا مراقبة

ثابتة أو متحركة تصور طول اليوم يتم توقيتها وتوجيهها للتسجيل أو لالتقاط الصور من زاوية واحدة دون تدخل عين المصور بها ..خالية من المتعة والدهشة بل للأرشفة والحفظ في الأرشيف..فيدهشنا الكاتب بعدسة كاميرته المبرمجة لرصد كل ماهو جميل فيقول :" وأنسى أن النساء جسد من لحم ودم ..وأتذكر أنهن عطر له روح ويجرحني صدى صوتك في ذكرياتي ، فكيف يكون حالي؟ مر الفرح على بابي وجد الحزن حجز كل الأمكنة".

من هنا يمكننا القول بأننا قد تعاطينا التجارب الإنسانية وتعدينا المألوف و الدخول إلى أغوار النفس البشرية وأيضا تشريح الأنماط والأبعاد الفكرية والثقافية وحتى السياسية أحياناً وذلك ما بين التنقيب والتعقيب والتفكيك في مكامن نفوس جميع البشر، فوجدنا ألواناً وليس لوناً منفرداً كما كنا قد تعلمنا أن النهايات تكون ملونة دائماً باللون الأسود لا بل هنا الكاتب تفرد وتعمق بالألوان والأنماط للبنى المعمارية للسرد الروائي وبين لنا أن أصل الالوان هو الأبيض وهو من يمتص كل الألوان الأخرى، ويعكسها على السرد من حيث البناء والجوهر والفكرة

إلى عينيك الحزنتين

إلى كفيك .. يا بلادي المقهورة الجميلة

إلى حب أعيشه، ولا يهجر أحلامي وتمرد بلا سبب ليكون حباً لايعرف الإنتهاء.

وهل لعشق إنتهاء؟

لقد جدد الكاتب التنوع وابتعد عن التقسيمات التقليدية في البناء السردي للنص الروائي متصلاً متزامنا مع المواقف الاجتماعية والسياسية

والاقتصادية للمجتمعات مع ذاتية الشخصيات وتفاعلها مع السرد للكاتب وسيرته الذاتية أيضا أوضحت مواقف درامية تصلح أن تكون أفلاماً أو مسلسلات كأساس بالنسبة للدراما أو العمل الدرامي وما بين الصعود صعوداً والتنحي نزولاً والتناقض الظاهر بين الحالتين هنا تظهر الدهشة في صراع المواقف وإيجاد الحلول للصراعات الذاتوية للشخصيات كشخصية سهر ، ناهد ، وتهاني وتفوق تهاني على كل الشخصيات بالنسبة للعاشق بطل الرواية فتحي رضوان لاحتواها إياه كطفلها الذي لن تلده بل ربته وقدمت له مايحلم به كأي رجل (ربة بيت ممتازة من الدرجة الأولى) وظلت نزواته مع "سهر" مكملة لرغباته الجنسوية الذكورية وهذه الدهشة الأخرى وهي الصراع القائم بين الذات والأنا والواقع .. هذه مجرد وجهة نظر نقدية ينبهنا به الكاتب إلى مايجب علينا فعله وهو إصلاح الذات أولاً ثم الآخر عن طريق أدوات الكاتب الفنية متمثلة بالإنسانية لبعض الشخصيات الروائية كشهرزاد التي كانت الأم والمرشدة إلى سهر ووردة وكاظم وأحياناً فتحي وتعاطفها مع تهاني ..الكاتب قدم وبامتياز الشخصيات الفنية مع وضوح للمعالم والمعطيات الأخلاقية الراسخة في مجتمعنا العربي الشرقي النزعة ..

السيد حافظ عشق لا يعرف الانتهاء للكتابة في المسرح والرواية والقصة وكافة الأجناس الأدبية لكن ليس كباق أنواع العشق ..السيد حافظ يغزو خلوات العشق بالمشاريع وبالحوارات المنطقية المتناقضة مع النوعية للسرد سواء في المسرح أو الرواية فتقرأ الشعر في نصوصه والحكايات والقواميس المعلوماتية والسير الذاتية والشخصيات التأريخية ومشاهير الأدب والفكر المهمشين ظلماً جمعياً من قبل المستثقفين المستعلين

تملقاً.. نصوص السيد حافظ تميزت بالشاعرية والبناء اللغوي الشعري منسوج بالمثل العليا والوطنية وعشق الوطن من خلال الصور التي رسمها لنا الكاتب في رواية قهوة سادة فيقول: (القاهرة سحر وساحرة.. أحن اليها كما أحن إلى الهروب إلى الخليج) (رأيت الوطن يضاجع الفقراء ويقدمهم ضحايا وشهداء في سيناء .. وعندما انتصروا ترك لهم سرواله الداخلي ليصنعوا منه أوسمه وشهادات تقدير وإعلام أما الأغنياء جلسوا على عرش مصر وباعوها لكل الغرباء باسم الانفتاح والانفشاخ والخصخصة والمصمصة ونشروا للشباب حبوب الهلوسة .. وطني لا يحب الفقراء ...)

الكاتب "السيد حافظ" روائي ومسرحي مخضرم له خبرة وبصمة ودراية وحكاية مع الكتابة والإبداع ..لكن هذا لا يمنع القول بأن كل إنسان منا مبدع في شيء ما ولكننا نختلف من حيث درجة الإبداع كما هو الحال في التقييم في نتائج الامتحانات منا المقبول ومنا الجيد ومنا الضعيف ومنا من يجتاز بامتياز والكاتب السيد حافظ تعدى كل تلك التقيمات إلى أعلى من درجة الامتياز دون غرور وتعالي، وهذه صفات الكاتب الضرورة قد تختلف معي أيها القارئ أو نتفق من حيث وجهة نظرك بمقياسك ومقياس الآخرين (الجمهور) أقول لك نعم وبكل اعتزاز، الجمهور يحيط بنا ويقيم أعمالنا لابأس فيما إذا كان الجمهور غير واعٍ ثقافيا بل يقيم كيفياً مزاجياً هنا تكمن الكارثة، وأقول أكتفي أن أكون أنا الجمهور أو أنت القارئ المثقف الواعي جمهوري الذي قرأ فعلا أعمالي وبإمعان وتمعن وتفكير فالثقافة والتفكير والتفكر بالخيال هي الوسيلة الوحيدة لرؤية اللامرئي الذي لايشاهده ولايحس به القارئ العادي عندما

يكون النص بهذه الحبكة والجودة الجمالية يجعلك تلمس مكامن الجمال في النص ببصيرتك بإحساسك بيديك فنحن لا نتشابه بالبصر والبصيرة فلا أحد يشبه حد من حيث الإحساس بالجمال؛ فكل منا ينظر ببصيرة مختلفة وزاوية ورؤية مختلفة فنبتعد كي نقترب ونقترب كي نبتعد هكذا هي أفكاري وأفكارك أيها الباحث والقارئ.

آه يا سهر

في مقاومة ما تستحق المقاومة كتبت على الماء وريش الطيور والحجر .. حبك قدر في مقاومة مايستحق المقاومة زرعت الريحان والتمر والليمون والياسمين على جسر كلامي وأذبته في غدير عشقي لك ..الكاتب السيد حافظ يخاطب القارئ والباحث المثقف بأسلوبه الخاص بإثارة متزنة حامل حقيبة رسائل الحب والعشق للقلوب العطشى التي القي بها في يم الخذلان أو الهجران الرسائل عبارة عن مفاتيح وأسرار لعقول نبلاء العشق والصادقين قد ترسم ابتسامة على ثغر امرأة أو رجل ممن يقرأها، وهي تحمل النقاء والصفاء والعبارات الراقية بعيدة عن معاني الدماثة فتكسو وجوهكم نورا وسروراً

أما شخصية "ناهد" الحب وما كتب لها فتحي فيقول ..(سمراء أنت ..بيضاء أنت في لون شهقة العمر ..مرحة القلب والعينين ، أختلس من عينيك نظرة السؤال ، تباشير الحرية الأبدية ...نرى للقصيدة وجود في السرد الحافظي هذا أذا ما أجزمنا أن لغة الكتابة السردية للسيد حافظ يتغلب عليها طابع الشعر والمشاعر والأحاسيس الشفيفة غالباً وتطويع النفس والروح معاً للاكتمالية مع الوجدان الوجودي في الواقع الحياتي والنفسي أضيف الى ذلك أن الكاتب يبحر بنا في سفينته وأشرعته

الشامخة محاورها الحرية والاستقلال والديمقراطية في مجتمع عرف هو من سن القوانيين وأوجد الديمقراطية من مبدأ وأمرهم شورى بينهم لكن للأسف خلف مؤسسات اجتماعية سلطوية غبية وغيبية ليس لها صلة رحم بفلسفية الحياة ولا في تحمل الأعباء الميتافيزيقية بل الأكثر والأغلبية مصابين بالجرأة والمحاججة على الصعيد اللامفهوم لمعنى ومضمون معظم القوانيين والحوادث التأريخية والوقائع التغيرية هنا تبلورت فكرة ورغبة الكاتب السيد حافظ الى استبناء المشاريع الفكرية والأدبية والثقافية التي تمثلت لنا بمشروع المسرح للأطفال ومشروع الرواية للسباعية وثلاثية مارك والسيد حافظ على أسس مجتمعية مفاعلية متوازنة مع الواقع الثقافي ما بعد التجديد والتجريب والحداثة متماشياً مع النهضة الثقافية والاقتصادية والتطور الاجتماعي والتقني وفق الانفتاح في كافة المجالات العلمية والأدبية والإبداعية ومع تضافر الاختصاصات والتجارب السابقة والحالية ودمجها معا وامتزاجها بعبق المحب للمعرفة والكتابة لتكون خليط حلو المذاق منسوج بشغف الحروف لكبار الشعراء والقادة والشخصيات التأريخية والأحداث وما تراكم من ذكريات ساهمت في بناء هذا النص الروائي والعلامة التجنيسية للأعمال الروائية الحافظية التي كانت تحمل النص الروائي ممزوج بمكر وذكاء مع السيرة الذاتية للكاتب سواء كانت سيرة روائية أو شخصية فمهما تكلمنا وقلنا وكتبنا هنا تطغو بصمة وخبرة الكاتب الراوي والروائي المحنك؛ لأنها فعلا رواية تكوين؛ لأن ظهور خيوط السرد متداخلة مع الحياة الشخصية والواقعية للكاتب رغم استخدامه أسماء الشخصيات المجازية والمستعارة، لكنه فعلا كاتب عبقري فرواية

(قهوة سادة) مطعمة بنكهة العشق للوطن وتصحيح التاريخ والحنين للأماكن والذكريات والمدن اللامرئية فقط في الأحلام، فالكاتب يحيي فينا الروح ويجمع شتات النفس أما المتلهفين لعشق الجسد فالنص طغى عليه الشبق والانتهاك الفني للرغبات الجنسية متوخيا السمة الشعرية والأدبية الراقية التي تنادي القارئ ليرتوي بجمال خصوبتها الإبداعي، فالحافظ يحفر عن مبتغاه في روح النساء ورغباتهن ويقول ..(رغيدة ١٨ سنة) بيضاء شعرها أشقر عيناها زرقاوان ، منفتحة الأنوثة بشبق جنوني .. رغيدة زوجة محمد الطويل ٣٥ سنة موظف في محلات صيدناوي يجهل العشق والنساء يضاجعها كالحمار وينام ..) هنا وضح لنا الكاتب صورة من صور الحياة الاجتماعية الأسرية التي غالبا ما تؤدي إلى الانحراف .. "فتحي رضوان" يرى أن الوحدة التي تشعر بها النساء هي أحد الأسباب ...رغيدة تشعر بالوحدة بين الأربعة جدران ..الوحدة تفتح الباب لشيطان الشهوات .. الوحدة تزرع في العقل حقول التفاهات ..وبسبب الوحدة تشاغل "رغيدة" جارها فتحي رضوان من بالكون بيتها الذي يقع في الشارع المقابل لها وتراه ويراها كان بينهما ليس شارعاً إنما بحر من الشبق أو بحر من الرغبة ..الرغبات أمواج ..الرغبات تدمرنا ..تنعشنا ..تغير كيمياء القلب والفكر والدم والمزاج كانت رغيدة تخلع ملابسها عارية أمامه في الحجرة ..ود أن يقفز على حجرتها ..آه لو لي جناحان .. هنا ضمير الأنا المتكلم وليس فتحي رضوان تمنى لو كان هو الذي يقفز أمام رغبة ذلك الجسد المطاطي الذي يمتد لشارع رغيدة ليعبث بجسدها ويطفئ ما في قلبيهما من لهيب الشهوات الجنونية المحرمة يضحك فتحي ورغيدة تتراقص أمامه عارية

... حكمة ودرس من دروس الحياة يزج به الكاتب بإتقان ...لحظات من الجنون تكلفنا خسارة الروح نحو مغامره ومقامرة متهورة غالبا ما نكون قد خسرنا الرهان بفخر أمام تجربة إبداعية روائية بتفصيلاتها التي لا تستغنى عن قرائتها مرة بل مرات ومرات قد يكون العمل الروائي هذا (قهوة سادة) غير مستساغ عند البعض أو بالأصح ثلة من الأدباء المندفعين نحو إقامة علاقات صداقة مع الجنس الآخر لكن وأنت تقرأ أو تكتب نقداً استدرك بفيض من المتعة والتشويق الذهني للسرد وكيفية كتابة مثل هذه الرواية وإمكانية كاتبها لتخرج لك بهذا الشكل المفصل من الأحداث والبناء المعماري الجميل كمذاق قهوة سادة ..قهوة زيادة .. وأخيرا سأكتب هنا في هذه الدراسة كلمات لعلها تقرأ أتمنى أن تكون القراءة هي المحرض الذي يفتح مفاتيح الفكر والسحر في أعماقكم أيها القراء وتفتح أبواب أعماق نفوسكم؛ لكي تحللوا النصوص بما يليق بها بمواصفات السرد وبنائه ومميزاته ليس بالتهجم والمهاجمة المجانية تجاه كاتب ما أو نص ما فالكاتب ليس خصما ولا عدواً بل إنساناً راقي المشاعر والإحساس ..الكاتب مثل الهداف في لعبة كرة القدم أمامه أشخاص يرمون الكرة وهو له هدف يحميه من ركلاتهم بخفة وتوازن وفكر وعقل وتعقل وخطط مقترنة بزمن ونظرة مدروسة لكي يظهر النص السردي بهذه العذوبة والتشويق والحيوية لابد وأن الكاتب كان يتمتع بذكاء ودهاء وثقافة لكي يسحر القارئ بمنطقه اللغوي وسرده الساحر بعذوبة بخفة وسرعة ناطقة بالحدس مستمد هذا من خلال المعرفة والتجارب الذاتية مروراً بالتقنيات الإبداعية والتقدم بالعمر وتفاصيل الحياة ومعطياتها كل هذا ولد لدى الكاتب هبة إبداعية طورها

بخبراته الذاتية مفطوراًعلى التاملات والتخيلات والاهتمامات بسماع حكاوي ومعزوفات وأشعار ونغمات فنية متنوعة في الحياة لينظم الفكر والحياة بحكمة وشجاعة واعتدال فهذا ليس فلسفة بل نمط حياة. أكتفي هنا بهذه الكلمات وأحصن روحي ببهجة النوبات والناشبة من المؤثرات الإبداعية للسباعية الحافظية والانجراف مع الحشود التي تقرأ ولا تقرأ بحجة أن الفكر وجد لتعاسة الإنسان ..أيها القارئ البارع اجلس واقرأ بإمعان ملحمة لها تأثيرها بالروح والأعماق والانهماك في الطمأنينة والانفتاح في الكتابات السردية وهذا هو المراد التجريب والإبداع ....

نجاة صادق الجشعمي

القاهرة

٢٠٢١/ ١٠/٣٠



جماليات تشكيل مسرواية قهوة سادة وتداخل الأجناس في الرواية العربية

نموذجاً

رواية قهوة سادة

للكاتب السيد حافظ

د. آمال شوقى

تمهيد : (تداخل الأجناس فى الرواية العربية)

أولا : مفهوم الجنس الأدبى.

ثانيًا : التعريف بالمسرواية ،وأسباب ظهورها .

ثالثا : التطور التدريجى للمسرواية.

رابعًا : ترجمة الكاتب.

خامسًا : "قهوة سادة" محل الدراسة.

أولا:- مفهوم الجنس الأدبى

يعرف الجنس الأدبى بأنه "مبدأ تنظيمي للخطابات الأدبية، ومعيار تصنيفى للنصوص التطبيقية، ومؤسسة تنظيرية ثابتة تسهر على ضبط النص أو الخطاب، وتحديد مقوماته ومرتكزاته وتحديد بنياته الدلالية والوظيفية من خلال مبدأى الثبات والتغير، ويساهم الجنس الأدبى فى الحفاظ على النوع الأدبى، ورصد تغيراته الناجمة عن الانزياح والخرق النوعى".[١]

وقد شكل مصطلح"جنس"Genre إشكالية أدبية قديمًا وحديثًا، فهو مصطلح لم ترس قواعده فى الخطاب النقدى الغربى إلا فى بدايات القرن العشرين. وكانت المصطلحات المستخدمة للتعبير عن معناه قبل القرن الثامن عشر هى Kind أوSort أو Species. وكلمة جنس ليست مقصورة على الأدب فحسب بل تستخدم فى مجالات أخرى كالرسم والسينما[٢]؛حيث يتضمن مبدأ الأجناس الأدبية معايير مسبقة غايتها ضبط الأثر وتفسيره، ويعتمد ضبط الأثر على وجود ما يسمى شروط الجودة فى الكتابة، وهى الشروط التى حددها أرسطو فى المأساة المسرحية.

وعلى الرغم من الحداثة النسبية لمصطلح "جنس" Genre، فإن فكرة تقسيم الأدب إلى أجناس قديمة جدًا، وترجع إلى أيام أرسطو(٣٨٤-٣٢٢قبل الميلاد)؛ إذ حدد الخصائص المميزة لكل جنس من الأجناس

-(١) جميل حمداوى: نحو نظرية الأجناس الأدبية، (نحو تصور جديد للتجنيس الأدبى)، مؤسسة المثقف العربى، ط١، ٢٠١١م، ص٧.

(٢) ريهام حسنى: تماهى الأجناس الأدبية، معجم المصطلحات الثقافية مؤتمر أدباء مصر، الدورة الخامسة والعشرون "دورة محسن الخياط"، القاهرة، ديسمبر ٢٠١٠م ، ص٩.

الأدبية، ويعد كتابه "فن الشعر" مصدرًا أساسيًا للنقاد فى تصنيف الأجناس الأدبية، وأصبحت هذه الخصائص بمثابة القوانين الثابتة لكل النقاد والمُبدعين يجب الالتزام بها.

وبناء على هذا الفصل بين الأجناس ظهر مبدأ "نقاء الأجناس" الذى يقوم على فكرة استقلال كل جنس بخصائصه المائزة، فلا يحق لجنس استعارة خصائص جنس آخر فى عملية الإبداع الأدبى[١].

ويبدو أن تلك الفترة كانت حاسمة وفاصلة فى تاريخ الأدب؛ إذ إن تغيير الثوابت ليس بالأمر اليسير، ولكن كان للتغيير أنصار ومؤيدون، فمع بدايات النصف الأول من القرن العشرين ظهرت بعض الأصوات النقدية التى تبنت اتجاهًا ثارعلى فكرة نقاء الأجناس، ورفض التقسيمات المقترحة، ومثَّلَ هذا الاتجاه الناقد والكاتب الفرنسى"هوجو"، وبلغ الرفض والتغيير ذروته لدى الناقد الإيطالى بندتو كروتشه (١٨٦٦-١٩٥٢)Bendetto croce الذى تبنى فى كتابه (المجمل فى فلسفة الفن) دعوته الصريحة لتجاوز التقسيم الإجناسى، كما كان الناقد "موريس بلانشو" أكثر حدة فى دعوته إلى نفى الأجناس؛ إذ قال: "جوهر الأدب هو الهروب من كل تحديد جوهرى من كل تأكيد يجعله ثابتًا."[٢]، كما ظهرت بعض الدراسات التى تنادى بسقوط الجدران العازلة بين الأجناس الأدبية كما جاء عند "سبيستان مرسيه" بقوله: "تساقطى، تساقطى أيتها الجدران الفاصلة بين الأنواع؛ لتكن للشاعر نظرة حرة فى مرج فسيح، فلا يشعر بعبقريته سجينة الأقفاص، حيث

[١] رشيد يحياوى: مقدمة فى نظرية الأنواع الأدبية، المغرب، إفريقيا الشرق، ط٢ ،١٩٩٩٤ م، ص ١٩ .
[٢] رشيد يحياوى: مقدمة فى نظرية الأنواع الأدبية، ص ٢٥ .

الفن محدود ومصغر"[١].

ولعل الجدل حول نظرية الأجناس الأدبية قد بلغ ذروته فى فترة ما بعد الحداثة لظهور مفهوم النسبية والفكر التفكيكى Deconstrictive الذى تبناه "دريدا" فى مقاله (قانون النوع The Law of Genre)حيث أعطى أبعادًا جديدة لنظرية النوع بقوله: "إن النص الأدبى لا ينتمى لجنس معين بل يسهم فيه"[٢]، كما استند النقاد فى دعوتهم لنفى مبدأ نقاء الأجناس إلى عجز الأجناس القديمة التى تحدث عنها أفلاطون وأرسطو، وبخاصة بعد تحول المجتمعات الأوروبية من العلاقات الإقطاعية إلى العلاقات الجديدة[٣].

ويرى "تزفيتان تودروف" Tsvetan Todrof أن العمل الأدبى الجيد هو الذى يتخطى حدود الأجناس ليكون شيئًا جديدًا، ويضع التحديات فى طريق أى محاولة لتصنيفه ضمن جنس أدبى معين[٤].

لقد رفضت النظريات الأدبية من الشكلانيين الروس إلى البنيوبة، فكرة الجنس الأدبى لعدم ملاءمتها للنتاج الفعلى، وتوقفت عن النص والأدبية؛ فيري"بندتو كروتشة" فى الأدب مجموع المؤلفات الفردية، ويرى فى الجنس الأدبى مبدأ لتصنيف المؤلفات الفردية[٥].

ويُلخص الناقد الماركسى"إيجلتون" ما قدمته حقبة ما بعد البنيوية من

---

[١] بول فان تيجم: المذاهب الأدبية الكبرى فى فرنسا، ترجمة: فريد أنطونيوس، ط ٣، منشورات عويدات، بيروت-باريس، ١٩٨٣م، ص ١٤٩.

[٢] رشيد يحياوى: مقدمة فى نظرية الأنواع الأدبية، ص ٢٦.

[٣] د.عبد المنعم تليمة: مداخل إلى علم الجمال الأدبى ومقدمة فى نظرية الأدب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٣م، ص ٢٤٩.

[٤] رشيد يحياوى: مقدمة فى نظرية الأنواع الأدبية، ص٢٥.

[٥] د. لطيف زيتونى: معجم مصطلحات نقد الرواية،مكتبة لبنان ناشرون،دار النهار للنشر،بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م، ص ٦٨.

مفاهيم؛ إذ يقول: "إن النص القابل للكتابة، وعادة ما يكون نصًا حداثيًا، ليس له معنى محدد ولا مدلولات مستقرة، لكنه متعدد ومشتت، نسيج لا يُستنفد، أو مجرة من الدالات، نسيج محبوك من الشفرات ونُتف الشفرات، بإمكان الناقد أن يشق خلاله دربه الخاطئ، ليس ثمة بدايات ولا نهايات، ولا تتابعات لا يمكن قلبها، ولا تراتبية للمستويات النصية تخبرك بما هو أكثر، أو أقل دلالة، وكل النصوص الأدبية منسوجة من نصوص أدبية أخرى، ليس بالمعنى التقليدى القائل بأن كل كلمة، أو عبارة أو شريحة هى إعادة صياغة لكتابات أخرى تسبق أو تحيط بالعمل. وليس ثمة شيء من قبيل الأصالة الأدبية، ولا شيء من قبيل العمل الأدبى الأول، فكل الأدب متناص"(١).

ولعل تلك التعددية الحاشدة التى تنطوى عليها اللغة فى نظر ما بعد الحداثة هى المسئولة عن مجئ كل المفاهيم التى لا تستقر فى مكان، والتى تسمح بمزيد من التداخل، ويُصبح على الكاتب فيما يرى بارت"أن يكون متربصًا وعنيدًا، عليه أن يتشبث، إزاء الجميع وضدهم، بالقدرة على الانحراف والانتظار، إن السلطة سرعان ما تستحوذ على متعة الكتابة، شأنها إزاء كل متعة، عسى أن تسخرها، وتجعل منها نتاجًا مبتذلا، وليس نشازًا. إن تغيير المواقع يمكن أن يعنى إذن، أن توجد حيث لا تُنتظر، كما أنه يعنى التنكر لكل ماكتب عندما توظفه سلطة التبعية"(٢).

---

(١) تيرى إيجلتون: مقدمة فى نظرية الأدب، ترجمة:أحمد حسان، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ١٩٩١م، ص ١٦٦- ١٦٧.

(٢) رولان بارت: موت المؤلف، ضمن كتاب (درس السيميولوجيا) ترجمة: عبد السلام بنعبد العالى، تقديم: عبد الفتاح كيليطو، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ط٣، ١٩٩٣م، ص ٨٥

ويرى د/عبد المنعم تليمة أن المبدأ العام فى تطور الأنواع الأدبية من حيث نشأة النوع الأدبى وتغيره وتاريخه وتلاشيه فى نوع أدبى آخر أو انقراضه هو أن كل مرحلة من مراحل تطور المجتمع تجسد علاقتها الجمالية بالعالم فى أنواع أدبية بعينها، تلائم قدرة البشر على فهم عالمهم الطبيعى فى هذه المرحلة، وطبيعة نظامهم الاجتماعى فيها[1]، وهو ما أكده" برونتيير Ferdinand Brunetiere"ت ١٩٠٦م الذى يرى أن الأجناس الأدبية تولد وتنمو وتنضج وتموت كالأحياء، وتفسر المؤلفات، وتسبب وجودها[2].

ويرجع د/عبد المنعم تليمة مسألة تداخل المواقف إلى التطور العلمى والاجتماعى فى العصر الحديث، لكنه سرعان ما ينتهى إلى النتيجة نفسها "إغناء متبادل" فلا يتعارض مع تمايز الأنواع الأدبية "إن التطور العلمى والاجتماعى فى العصر الحديث أثر تأثيرًا عميقًا فى التطور الفنى، جعل الفنون تتنوع، وتتعاون وتتداخل، وعقد الخبرة الجمالية وصقلها، وأنشأ عادات ومدارك فى التلقى جديدة؛ ولهذا كله وجدنا أن الآداب الحديثة والمعاصرة تحقق بصورة غنية واسعة تداخل المواقف الأدبية الثلاثة فى كل أثر أدبى ناجح فتحققت الملحمية والدرامية فى الشعر الغنائى، وتحققت الغنائية والملحمية فى الأدب المسرحى، وتداخلت المواقف الثلاثة فى الرواية..إلخ. ولم يتعارض هذا التداخل مع تمايز الأنواع الأدبية، بل لقد أفاده وأغناه"[3].

وعلى هذا فإن النوع الأدبى محكوم فى نشأته وتاريخه بوضع اجتماعى

---

[1] د.عبد المنعم تليمة: مداخل إلى علم الجمال الأدبى ومقدمة فى نظرية الأدب، ص ٢٤٩.
[2] د. لطيف زيتونى: معجم مصطلحات نقد الرواية، ص ٦٧.
[3] المرجع السابق، ص ١٤٦.

محدد، تحكمه تلك القوانين الاجتماعية المتسببة فى تطوره. كما أن المواقف ثابتة، لكنها متداخلة. أما الأنواع فمتغيرة، لكنها متمايزة.
وتلك هى صورة النظرية فيما بعد الحداثة؛ إذ "السعى الدائم نحو خلخلة المفاهيم المستقرة، فأصبحت شعارات مثل "الكتابة" و"النص" و"التناص" و"موت المؤلف" شعارات مرفوعة فى مواجهة المفاهيم الراسخة، كمفاهيم "الأصالة" و "الصدق" و "الواقع" و "النوع الأدبى"[(١)]؛ ذلك أن النص لا ينشأ عن رصف كلمات تولد معنى وحيدا، وإنما هو فضاء متعدد الأبعاد تتمازج فيه كتابات متعددة وتتعارض، من غير أن يكون فيها ما هو أكثر من غيره أصالة: النص نسيج من الاقتباسات تنحدر من منابع ثقافية متعددة"[(٢)].
ويتضح مما سبق؛ أن تداخل الأجناس الأدبية أصبح أمرًا متعارفًا عليه وليس منكرًا أو مستبعدًا، فأصبحت الحدود بين الأجناس الأدبية فضفاضة ومرنة؛ ذلك "أن النظرية الأدبية المعاصرة تجاوزت مفهوم النوع الأدبى، وتعالت على الفروق بين الأنواع الأدبية، وتميزت بمناخ فكرى يقوم على رفض التقليد، والتطلع إلى كل جديد"[(٣)]، ويمكن للأجناس الأدبية أن تشترك فى بعض الصفات وتتداخل فيما بينها.
وتنطلق هذه الدراسة بداية من عنوانها "المسرواية وتطورها دراسة موازنة بين كل من:"محاكمة إيزيس" للويس عوض، و"نيويورك ٨٠" ليوسف إدريس، و"قهوة سادة" للسيد حافظ" من كون الرواية أكثر

(١) د.خيرى دومة: تداخل الأنواع فى القصة القصيرة (١٩٦٠-١٩٩٠)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨م، ص٢٣.
(٢) رولان بارت: موت المؤلف، ص ٨٥.
(٣) د. صبحة أحمد علقم: تداخل الأجناس الأدبية فى الرواية العربية (الرواية الدرامية أنموذجًا)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، وزارة الثقافة، عمان- الأردن، ط١، ٢٠٠٦، ص ١٨.

الأنواع الأدبية قابلية وقدرة على امتصاص الأنواع الأدبية الأخرى بسبب مساحة الحرية المتوافرة فى تقنية السرد، وتفاعل عناصر البناء الفنى للرواية مع الخصائص الفنية للأنواع الأدبية الأخرى، بكونها مفهوما مرنا ومفتوحا يسمح بالتداخل والتعدد.

وتطمح هذه الدراسة إلى استقراء صياغة جديدة لهذه العلاقة تستند إلى فهم مغاير لطبيعة النوع الذى يعتمد أساسًا على الرواية، ويقترب من المسرح والشعر والدراما، ولكل نوع من هذه الأنواع طريقته فى إعادة تقديم الواقع وصياغته وتشكيله.

ثانيًا :- تعريف المسرواية ،وأسباب ظهورها

أ- تعريف المسرواية :

تعد المسرواية "شكلًا أدبيًا تتعاقب فيه الصيغتان السردية والمسرحية، وتتواليان بإخراجهما الطباعي المميز"[1]. وأكد الدكتور وليد الخشاب أن المسرواية ظهرت في الغرب في نهاية القرن التاسع عشر،عند فلوبير(١٨٢١-١٨٨٠) وهاردي(١٨٤٠-١٩٢٨) ثم جويس(١٨٨٢-١٩٤١) في القرن العشرين حين ظهرت الحاجة لتحطيم القوالب الجامدة في تصنيف الأجناس الأدبية ثم تحطيم قوالب الحياة الاجتماعية والسياسية الراكدة؛ نتيجة ظهور متغيرات اقتصادية واجتماعية(الثورة الصناعية في نهاية القرن التاسع عشر)، وجاءت مسرواية "فلوبير" (غواية القديس أنطونيوس) محطمة للقوالب الجامدة، ومعتمدة على السرد والمسرح معًا".[2]

[1] د. وليد خشاب: عندما تلجأ الرواية للمسرحية (عن المسرواية)، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مج ١٢، العدد الأول من ربيع الأول، ١٩٩٣ م، ص ٦٠.

[2] د. وليد خشاب: عندما تلجأ الرواية للمسرحية (عن المسرواية)، ص ٦١ .

ب- المسرواية فى ميزان النقد:

اختلفت نظرة النقاد فى قبول علاقة الرواية بالمسرحية والتداخل بينهما؛ فقد رأى "رينيه ويلك"أن نظرية الأنواع الأدبية لا تحتل مكان الصدارة فى الدراسات الأدبية فى هذا القرن. وأرجع السبب فى ذلك أن التمييز بين الأنواع الأدبية لم يعد ذا أهمية كبرى فى كتابات معظم كتاب عصرنا "فالحدود بينها تعبر باستمرار، والأنواع تُخلط أو تُمزج، والقديم منها يترك أو يحور، وتخلق أنواعًا جديدة أخرى إلى حد صار معها المفهوم موضع شك"(١).

ويرى الدكتور لؤى خليل أن تداخل الأنواع حتمية لا مفر منها، بل تكاد تكون ضرورة لتطوير الأنواع واستمرارها(٢). ولكنه يفضى من خلال حديثه إلى تصنيف هذا التداخل بين الأنواع إلى ثلاثة أشكال:

١- الشكل الأول (تفرضه طبيعة الأدب):

ويكون مُنتج النص فى هذا الشكل حريصًا على نوع النص؛ لأن التجديد الذى يريده لا يؤدى وظيفته إلا من خلال موقع هذا النص بين النصوص الأخرى التى تنتمى إليها النوع ونفسه.

٢- الشكل الثانى (يقوم على القصدية السابقة للمؤلف):

والغاية منه إضفاء روح الجدة على النص، من خلال الاستعانة بعناصر نوعية مختلفة تُخرجه عن التنميط النوعى، ويقترب هذا الشكل من سابقه فى احتفاظهما بنقاء الجنس الأدبى، غير أن حجم التداخل

---

(١) رينيه ويلك: مفاهيم نقدية، ترجمة: د.محمد عصفور، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٧٨م، ص٣١١.
(٢) لؤى على خليل: تداخل الأنواع بين القاعدة والخرق، مجلة دمشق، المجلد ٣٠ ، العدد ٤٣، ٢٠١٤م. ص٦٥.

وحساسية الإبداع تعتمدان على الحساسية الإبداعية لمنتج النص، ومُتلقيه فى آن واحد.

٣- الشكل الثالث (لم يعترف بآليات التلقى):

يتعارض هذا الشكل الأخير مع أفق التلقى، فهو لم يضع بعد آليات لتلقيه، كما أنه لو وضع هذه الآليات لوقع فى قالب مع التصنيف التجنيسى. فهو شكل لا يؤمن بالثوابت ولا يعترف بها[١].

أما الدكتور عبد الرحيم الكردى؛ فيعدد أسباب انفتاح النوع الروائى واستيعابه أنواعًا أخرى، ويرجع هذا الانفتاح إلى عوامل اقتصادية، واجتماعية، وسياسية نرصد منها:

١- الثورة الهائلة فى وسائل الاتصال، مما أدى إلى إلغاء المسافات بين البشر، واتساع دوائر الوعى الإنسانى؛ وبالتالى سهولة انتقال الأفكار والقيم.

٢- تحول السلطات التقليدية نتيجة للحرية -الزائدة-، فلم يعد هناك سلطة للمعلم على التلميذ، أو للأم على ابنها؛ مما أدى إلى تغير الأفكار والمفاهيم الأخلاقية، وانعكس هذا بدوره على الأدب وتداخلاته.

٣- طوفان الأدوات التعبيرية غير اللغوية واجتياحها لمناطق شاسعة من الربوع التقليدية للملكة اللغوية، وساعد على ذلك الانتشار الهائل للقنوات التليفزيونية وشبكات المعلومات؛ مما جعل الكُتاب يشعرون أن التقنيات التقليدية للرواية بل للأدب عمومًا لم تعد قادرة على التعبير عن تجاربهم الجديدة، فمزقوا النوع الروائى لمرونته.

---

[١] لؤى على خليل: تداخل الأنواع بين القاعدة والخرق، ص ١٥٦ .

٤- انهيار القيم الأخلاقية المحلية والقومية، وحل محلها قيم السوق، وبالتالى تضخمت سلطة المتلقى؛ ولذلك اعتمد التشويق والعرض على أدوات ترضى الذوق الشعبى مثل: مزج الواقعى بالسحرى وحكاية الغرائب، وتصوير الشخصيات غير السوية، وتخفيف الأسلوب، وقصر النصوص[١].

انعكست كل هذه العوامل على الأعمال الروائية الجديدة؛ فأصبحت لا تكسر فقط الحواجز بين الأنواع الأدبية، بل تعمل على تفجير النوع الأدبى من داخله، فهذه الأعمال تتمرد على القيم الجمالية التقليدية للنوع الروائى، وعلى التقنيات السردية الروائية، والطرق التقليدية فى تصوير الشخصيات والزمان والمكان، بل وتفتت الحبكة والحكاية معًا.

ج- أسباب ظهور المسرواية في الأدب العربي:

عُرفت "المسرواية" في الأدب العربي حين نشر توفيق الحكيم مسروايته (بنك القلق) فى أخريات حياته الإبداعية (١٩٦٧م)، ويُرجع النقاد السبب في ظهورها إلى:

١- الرغبة في محاكاة الغرب.

٢- محاولة الإفادة دلاليًا من الجمع بين خطابي المسرحية والرواية.

٣- الحاجة إلى تحطيم القوالب الجامدة في تصنيف الأنواع الأدبية[٢].

٤- قدرة الدراما الهائلة على التشخيص والدخول فى أعماق النفس الإنسانية، وإظهار تمزقها، ورصد خفاياها، ورسم أحلامها وآمالها،

---

[١]-عبد الرحيم الكردى: السرد الروائى وتداخل الأنواع نماذج من الرواية المصرية المعاصرة، مؤتمر أدباء مصر "أسئلة السرد الجديد "الدورة الثالثة والعشرون، محافظة مطروح، ٢٠٠٨م، ص ١٣٨-٢١٩ .

[٢]د. صبحة أحمد علقم: تداخل الأجناس فى الرواية العربية، ص ٥١.

والتعبير عن حركة الإنسان الدائمة فى المجتمع[1]. ويري د/محمد نجيب التلاوى أن محاولة توفيق الحكيم فى كتابة المسرواية تعد "محاولة فاشلة"[2]؛ إذ إنه فصل بين السرد والحوار وباعد بينهما فى فصول متتالية، ثم وجدت محاولات أخرى لكتابتها عند كل من: الدكتور لويس عوض فى "محاكمة إيزيس"، والدكتور يوسف إدريس فى "نيويورك ٨٠"، والسيد حافظ فى "قهوة سادة" ... وبقية مشروعه المسروائى .

وفى الحقيقة تعد محاولة الحكيم"بنك القلق" الشكل البكر للمسرواية فى الأدب العربي وأختلف مع د/التلاوى؛ إذ لا يمكن وصفها بالفاشلة، وإنما يمكن وصفها بالمغايرة للنمط الروائى السائد فى فترة كتابتها.

ثالثًا:- التطور التدريجى للمسرواية

بعد رحيل توفيق الحكيم(١٨٩٨-١٩٨٧) صاحب(بنك القلق)، وكذلك لويس عوض(١٩١٤- ١٩٨٩) صاحب(محاكمة إيزيس)، ويوسف إدريس(١٩٢٧ -١٩٩١) صاحب (نيويورك ٨٠) أوشك المشهد الإبداعي أن ينسى هذا النوع الأدبى الذى يمزج بين تقنيات المسرح والرواية والمسمى بـ(المسرواية) إلا أن ظهرت المسرواية الجديدة (قهوة سادة) للسيد حافظ (١٩٤٨-...) على الساحة الإبداعية من جديد، وهو ما أثار فضول البحث النقدى للتعرف عليها.

وتأتى مسرواية بنك القلق لتوفيق الحكيم شكلًا من أشكال إزاحةِ الحدود

(١) د. وليد خشاب: عندما تلجأ الرواية للمسرحية، ص ٦١.
(٢)-د. محمد نجيب التلاوى: الذات والمهماز (دراسة التقاطب فى صراع روايات المواجهة الحضارية)، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص ٢١٨.

بين الأنواع الأدبية؛ إذ وضع توفيق الحكيم عمله الأدبى "بنك القلق" وأطلقَ عليه مَسْرِواية، على أساس نحت المسمى من النوعين المنفصلين(المسرح+الرواية)، مع إجراءِ المُزَاوجَةِ بينهما منْ حيث البناءِ الفنى لكلٍّ منهما، ومزجًا بين السرد والمسرح بشكل تتابعى؛ إذ كتبت المسرواية على نسق فصل سردى يتبعه فصل مسرحى حوارى كامل من البداية للنهاية.

إن تصنيف الحكيم عمله بأنه مسرواية تجمع بين الرواية والمسرح لم يدهش جمهوره أو نقاده؛ فقد كان سعيه بدأب وراء أشكال فنية جديدة، تُضيف جديدًا إلى الفن الذى يتحدث فيه عن لغته الوسطى التى لا تجافى الفصحى فى المسرح، ولا تهبط إلى العامية المبتذلة[١].

وتعتمد مسرواية الحكيم على سارد بضمير الغائب، يمتاز بأنه كلى العلم، يعرف القارئ بشخصيات المسرواية وسلوكها، ويروى الأحداث، ويلاحظ تطورها، ثم ينتهى إلى مشهد مسرحى كامل، يعود فى نهايته إلى فصل سردى، وهكذا إلى أن يتم فصول مسروايته بالتناوب فصل سردى وفصل مسرحى[٢].

وأما مسرواية "محاكمة إيزيس" للويس عوض فعلى الرغم من أنها كتبت فيما بين(١٩٤٢-١٩٤٦) فإنها لم تنشر إلا فى سبتمبر ١٩٩٢م[٣]، متزامنة مع دعوته الشهيرة لتحطيم عمود الشعر فى مقدمة ديوان (بلوتولاند) ودعوته الشهيرة للتجريب، وتصريحه بأن الحكيم قد

(١) د. صبحة أحمد علقم: تداخل الأجناس الأدبية فى الرواية العربية، ص ١٣٣.
(٢) المرجع السابق، ص ١٣٣.
(٣) نشرت لأول مرة فى مجلة القاهرة، لويس عوض: محاكمة إيزيس، مجلة القاهرة، العدد ١١٨، سبتمبر ١٩٩٢م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص ١٥٥: ١٨٥. واعتمد البحث نسخة دار نصوص الملحقة بكتاب المسرح المصرى بين الفن والدين، ١٩٩٤م.

سبقه فى تلك المحاولة. ونشرت ملحقة بكتاب (المسرح المصرى بين الفن والدين) فى ١٩٩٤م. وهى نص يجمع بين السرد والحوار فى تناوب درامى للأسطورة الشهيرة. وقد عده لويس عوض (مسرحية).

ونُشرت"نيويورك٨٠" ليوسف إدريس بعد نشر توفيق الحكيم مسروايته بنك القلق، ولم يصاحبها شرح نقدى يمهد لنوعها. واختلط فيها الحوار بالسرد، وهى تتناول الصراع المادى والحضارى بين الشرق والغرب.

أما "قهوة سادة" للسيد حافظ فنص سردى مسرحى تجريبى يتخذ من تقنيات المسرح الحوارية وسيلة للتعبير عن شخصياته وأحداثه، والكاتب يعتمد بجرأة لغته على تقنيات المسرح من حيث تكثيف جمله الحوارية، وهو عمل ينتمى إلى القص التكاثرى أو التوالدى حيث ينبثق عن الحكاية الرئيسة حكايات فرعية؛ فالحكاية الرئيسة أو الحكاية الإطارهى قصة (سهر والعشق والقمر) ومن خلال هذه الحكاية تقوم شخصية "شهرزاد" بدور الراوى الذى يسرد الحكايات الفرعية، وتعد حكاية (نفر مع إخناتون) الحكاية الفرعية الأهم بين حكايات شهرزاد؛ إذ تمثل نصًا مسرحيًا فى ثنايا النص السردى.

رابعًا: ترجمة الكاتب: (السيد حافظ)[1]

حياته:

ولد السيد حافظ فى محافظه الإسكندرية عام ١٩٤٨م، وتخرج فى كلية التربية جامعة الإسكندرية قسم فلسفة واجتماع عام ١٩٧٦، وعمل

---

(١) حصلت الباحثة على السيرة الذاتية للكاتب من خلال لقاءات متعددة وحوارات معه. كما سطرها الكاتب فى نهاية (قهوة سادة) للسيد حافظ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى،٢٠١٢ م.

أخصائيًا مسرحيًا بالثقافة الجماهيرية بالإسكندرية من ١٩٧٤/١٩٧٦، وعمل مديرًا لتحرير مجلة (الشاشة) (دبي مؤسسة الصدي ٢٠٠٦ – ٢٠٠٧)، ومجلة (المغامر) (دبي مؤسسة الصدي ٢٠٠٦ – ٢٠٠٧)، كما عمل مستشارًا إعلاميًا فى دبي مؤسسة الصدي (٢٠٠٦ – ٢٠٠٧).

كما شغل عدة مناصب إدارية منها:

- مدير مكتب مجلة أفكار بالقاهرة (الكويت).
- مدير مركز الوطن العربي للنشر والإعلام رؤيا لمدة خمس سنوات.
- رئيس تحرير مجلة (رؤيا) التى تصدر فى مصر .

أعماله المسرحية:

صدر للكاتب العديد من المسرحيات وهى حوالى (١١٠) مسرحيات، كما قدم مشروعًا للمسرح التجريبى؛ إذ كتب ثلاثًا وأربعين مسرحية، ومنها: كبرياء التفاهة فى بلاد اللامعنى(١٩٧٠)، ومسرحية أولاد جحا (١٩٨٦)، ومسرحية حذاء سندريلا (١٩٨٧)، ومسرحية بيبى والعجوز(١٩٨٨)، ومسرحية فرسان بنى هلال(١٩٨٩)، ومسرحية قميص السعادة (١٩٩٣)، وحلاوة زمان (١٩٩٣)، وقراقوش والأراجوز، وملك الزبالة، وليلة سقوط صقلية، وليلة اختفاء الحاكم بأمر الله، وليلة اختفاء فرعون موسى، والأمر بأحكام الله، والحاكم بأمر الله، وليلة اختفاء إخناتون، والعالية والأمير العاشق، والظاهر بالله، وظهور واختفاء أبى ذر الغفارى، وحدث فى مدينة الزعفران، وعبد الله النديم، وأسد الفرات.

كما قدم الكاتب العديد من المسرحيات للأطفال منها:

على بابا ١٩٨٧، وعنتر بن شداد١٩٨٧، وأبو زيد الهلالى١٩٩٥،

وقميص السعادة ١٩٩٥، وقطر الندى١٩٩٦، وسندريلا والأمير ١٩٩٦، وكوكى تحب القمر٢٠٠٣، وسندس٢٠٠٤، وغيرها الكثير.

كما كتب السيد حافظ العديد من المسلسلات التليفزيونية والإذاعية منها:

- مبارك، وعلاء الدين والأميرة ياسمين، وعصفور تحت المطر، وهمام بنت السلطان، وبحلم بيك ياوطن(مسلسلات تليفزيونية).

- وأماغرباء فى الحياة، والبيت الكبير، وجنون وفنون التاريخ فهى(مسلسلات إذاعية).

أعماله الروائية

للكاتب مشروع روائى كبير:

مسافرون بلا هوية ١٩٩٣، ورواية "نسكافيه"٢٠١٠، ورواية "قهوة سادة"٢٠١٢، ورواية "كابتشينو"٢٠١٣، ورواية "ليالي دبى" ٢٠١٤، (شاى أخضر - شاى بالياسمين)، ورواية "كل من عليها خان" ٢٠١٦، ورواية "حتى يطمئن قلبى". وصدر للكاتب حديثًا رواية "ما أنا بكاتب"، ورواية "شط إسكندرية ياشط الهوى".

الجوائز التى حصل عليها:

- حصل على الجائزة الأولى في التأليف المسرحي بمصر عام ١٩٧٠.

- نال جائزة أحسن مخرج في مراكز الشباب عام ١٩٧٠ م عن مسرحية (جواز سفر) عن أشعار محمود درويش وسميح القاسم.
- حصل على جائزة أحسن مؤلف لعمل مسرحى موجه للأطفال في الكويت عن مسرحية سندريلا عام١٩٨٠.
- حصل على جائزة التميز من اتحاد كتاب مصر ٢٠١٥.
- وهو أول كاتب عربى تنشر له المملكة البريطانية سبعة أعمال

مسرحية باللغة الإنجليزية، وأول كاتب عربى تنشر له جامعة أريزونا بالولايات المتحدة خمسة أعمال باللغة الإنجليزية وثلاثة باللغة العربية.

خامسًا "قهوة سادة" محل الدراسة:

"قهوة سادة" نص سردى مسرحى تجريبى يتخذ من تقنيات المسرح الحوارية وسيلة للتعبيرعن شخصياته وأحداثه، والكاتب يعتمد بجرأة لغته على تقنيات المسرح من حيث تكثيف جمله الحوارية، وهوعمل ينتمى إلى القص التكاثرى أو التوالدى حيث ينبثق عن الحكاية الرئيسة حكايات فرعية؛ فالحكاية الرئيسة أو الحكاية الإطار هى حكاية (سهر العشق والقمر) ومن خلال هذه الحكاية تقوم شخصية "شهرزاد" بدور الراوى الذى يسرد الحكايات الفرعية، وتعد حكاية (إخناتون ونفر) الحكاية الفرعية الأهم بين حكايات شهرزاد؛ إذ تمثل نصًا مسرحيًا فى ثنايا النص السردى.

ومما لا شك فيه أن ظهور (قهوة سادة) للقاص والكاتب المسرحي التجريبى (السيد حافظ)، يستدعي من جديد هذا النوع من التداخل فى الأنواع الأدبية. فإن كان حُلم توفيق الحكيم أن يكتب المسرواية - وقد فعلها-؛ فإن للسيد حافظ الآن مشروعًا على هذا النحو السابق من الكتابة عبرالنوعية للأجناس الأدبية "هذه سردية، وليست رواية عادية ولكنها مسرواية أى رواية تأخذ المسرح معها فى عناق وتلاحم، وهو حلم توفيق الحكيم فى بنك القلق وكذلك كان حلم يوسف إدريس فى "نيويورك ٨٠" وهى ليست حلمى بل مشروعى.. أنت بين يديك الجزء الأول من مشروعى، وبعد عشرات الصفحات تقابل الجزء الثانى.. وتنتظر الجزء

الثالث، وهكذا.. فتعطر وتأهب واشرب قهوتك واخلع نعليك واسترخ وتنبه؛ فأنت شريكى وصديقى.. هيا بنا نرحل معًا عبر الحكاية"[١].

جاءت "قهوة سادة" للسيد حافظ في نحو ثلاثمائة وثلاث وتسعين صفحة من القطع الكبير، حيث تدفقات السرد التي تحوى الماضي والحاضر بحركات سريعة، فتتصاعد حالة النماء الدرامي فى "قهوة سادة"، بين (الماضي) المتمثل فى تاريخ إخناتون فى العصر الفرعونى، وبين (الحاضر) المتمثل فى السياسية العربية فى العصر الحديث.

وفي بدايةقهوة سادة نقرأ (حكاية سهر والعشق والقمر) عنوانًا للجزء الأول الذى يُنبئ بمشاهد يمتزج فيها النضوج الأنثوي لسهر بوقائع مؤلمة مثل تنحي الزعيم الراحل عبد الناصر، حيث نتعرف على واقع سهر التى بلغت لتوها، ونتعرف على أسرتها، وتبدأ الشخصيات فى الظهور تدريجيًا، فنرى "كاظم" معلم اللغة العربية في مدرستها؛ لنكتشف من خلال تطور السرد أنه يعشقها فى صمت.

والمسرواية بها الكثير من المشاهد المسرحية الكاملة والتاريخية الملحمية الممزوجة بسيرعشاق ليسوا من الخيال، وإنما من الواقع، وتلك الواقعية اكسبت المسرواية مسئولية تقديم العرض الروائي على شكل مشاهد مغرقة في الشفافية والصدق من شأنها أن تؤثر في بنية الرواية، حيث ينتقل الكاتب بالقارئ من حالة عشق لمحبوبين (سهر/ كاظم) إلى حالة عشق وطن رغمًا عن أوجاعه، وهناك قدرة فائقة على التأثير والغوص في ذلك الواقع التاريخي لسيرة الأوطان والأشخاص،

---

[١] السيد حافظ: قهوة سادة.. قهوة زيادة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٢، ٢٠١٧م، ص٣، أضاف الكاتب هذا المقطع فى الطبعة الثانية بعد مرور خمس سنوات على الطبعة الأولى.

وهما الركيزتان الأساسيتان للمسرواية.

تقوم المسرواية على فكرة أساسية وهى تناسخ الأرواح لدى الدروز، فالنص يقوم على فكرة التقمص وحلول روح مكان أخرى بعد موتها، وفى الحقيقة أن فكرة التناسخ والاعتقاد كانت بذرة الكاتب الرئيسة التى أنبت بها مشروعه المسروائى الملحمى الضخم فيستمر مشروع السيد حافظ السردى فى حلقة متتالية بدأها بـ(قهوة سادة) ثم (كابتشينو) ثم (ليالى دبى) بجزأيها (شاى بالياسمين) و(شاى أخضر) وتتنقل الروح من "نفر" الروح الأولى إلى "نور" الروح الثانية إلى "شمس" الروح الثالثة، وأخيرًا الروح الرابعة لسهر وهى "وجد". ولا زلنا فى انتظار المزيد من جعبته الحافظية (ما أنا بكاتب) ثم الجزء السابع والأخير(ما أنا بزان)[1].

يتعانق النص المسرحى مع الرواية فى تناغم شديد من قلم السيد حافظ؛ إذ يعكس لنا شرعية أكيدة فى تزاوج المسرحية مع الرواية فتتشكل البنية العميقة للنص فى سياقات مسرحية مدهشة تحمل تعابير صادمة ومفاجئة فى سُلم المعرفة والفهم العام للتاريخ مظهرة الشكل المتطور للمسرواية؛ حيث يمثل الجزء الثانى مسرحية بكل التقنيات الفنية لكتابتها ممثلة فى حكاية (إخناتون مع نفر) حيث إخناتون الذى يدعو لعبادة "آتون" الإله الواحد والصدامات الأسرية فى مملكته والتنازع على الحكم بين الكهنة والقادة فى طيبة.

وبذكاء فنى شديد من الكاتب ينتقل السيد حافظ بتمهيد من "شهرزاد"

---

[1] لقاء مع الكاتب فى مقر نقابة اتحاد كتاب مصر لحضور احتفالية تكريمه من قبل النقاد الجزائريين والمصريين، بتاريخ: ١٣/ ١٢/ ٢٠١٧م .

التى أخبرت "سهر" أنها تتقمص روح فتاة فرعونية اسمها "نفر" لتبدأ حكاية إخناتون مع "نفر" فى الصعود على مسرح الأحداث، ولتحكى شهرزاد (قهوة سادة) متقمصة روح شهرزاد الأصلية فتقول: "كان ياما كان فى سالف العصر والأوان فى العصر الفرعونى بنت اسمها نفر". وتحكى الحكاية، ويقطع السرد الحوار ليعود للجزء الأول دون خلل فى حبكة المسرواية، لتنتهى بروح جديدة لسهر فى جزء ثالث: "همست سهر ومن هى الروح الثانية ياخالتى شهرزاد..؟

ضحكت شهرزاد وقالت:

-هى بنت جميلة عاشت فى عهد النبى موسى؟

ما اسمها وما حكايتها؟

قالت:

- اسمها نور غدًا نبدأ الحكاية"[1].

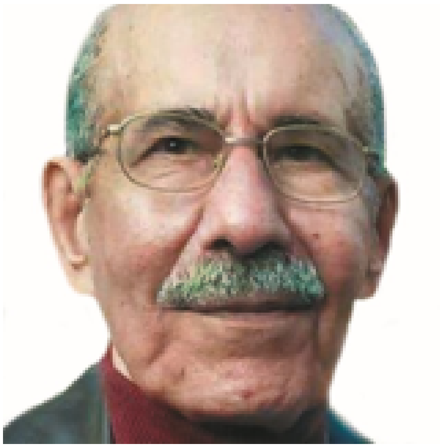
وهكذا يُنهى الكاتب مسروايته بعتبة أخيرة"إلى اللقاء فى الجزء الثالث حكاية...نور والنبى موسى.."[2].

ويظهر من خلال تلك المقدمة النظرية أن تداخل الأجناس الأدبية أصبح أمرًا غير مستنكرًا ولا مستبعدًا، وإنما صارت مقولة تداخل الأجناس إحدى أهم مفردات العصر الحديث، كما سيفتح البحث بابًا لدراسة أهم أشكال التداخل بين الرواية والمسرحية.

---

(1) السيد حافظ: قهوة سادة، ص ٣٩٣.

(2) المصدر السابق، ص٣٩٣.



"قهوة سادة" للروائى السيد حافظ

أ.د. كمال الدين عيد

الجزء الأول : حكاية سهر والعشق والقمر (قرار امتلاك الذات والحرية)
الجزء الثاني : حكاية نفر وإخناتون والنيل (خلْفاً دُر. إلى مصر الفرعونية)

من بداية البداية...

تخرج سهر بطلة الرواية إلى الحياة يوم ١٢ رجب ١٣٧٧هـ الموافق الأول من فبراير ١٩٥٨م يوم الاتفاق على الوحدة (وحدة ما يغلبها غلاب) بين مصر وسوريا (الجمهورية العربية المتحدة) بداية تربط الميلاد بالسياسة.. ميلاد سهر ذات السبعة عشر ربيعاً المفعمة بتخييل الروائي السيد حافظ الجمالي

"العشق يا سهر سِرُ الحياة، العشق راحة الروح. إن عطرك سيصيب الرجال عبر الهواء بدوار، وهواء بحر عشقك نار فى روح الرجال. أنت بحر يهدهد القلوب قبل العيون، وصوتك به نبرة خفية، تتحرك فتُحرك ظُلمة الروح للنور. قبلاتك سكر ولؤلؤ خفى لا يتذوقه إلا رجل يعبر بحرك بالطيران، ويدق قلبك بجناحه المكسور، وبدقة قلبك له تصبحين وطناً للعشق".

الوطن الوطن.. والسياسة سياسة.

يضع السيد حافظ هذه اللفظة الغالية فى صدر روايته، ليدخل عبر سردياته إلى تفسير معنى المواطنة. "هل هى فطرية أم مكتسبة؟ مكتسبة فمن أين نرضعها.. من الدساتير أم من القانون.. أم من النظام .. أم من الدولة؟"

يحلم بطل الرواية (كاظم) بأن يكون سياسيًا، لكنه ومعه قدره يصبح معلمًا. لكن المعلم (الذى كاد أن يكون رسولاً) يصبح أشقى الأشقياء فى الوطن العربى. جعلته الحكومات العربية "يكره وطنه وأرضه ويبحث عن وطن آخر له. أو كما قال الإمام على رضى الله عنه: الفقر فى الوطن غربة، والغنى فى الغربة وطن. يؤمن بقول أفلاطون من يعزف عن المشاركة فى الحياة السياسية يستحق العقاب بأن يحكمه جاهل أو لا يرعى شؤونه ويتجاهله ديكتاتور.. ونحن العرب هكذا"

يعترف كاظم بحلمه بالسياسة اعترافًا ويقينًا، فيصل إلى معارضة نظامه السياسى يقينًا وحُججًا، فهو مطبق الفكين إلا عند طبيب الأسنان. والدليل.. لماذا قتل على ابن أبى طالب؟ ولماذا قُتل الخلفاء الراشدون؟"

ويُذيل السيد حافظ فقرته السابقة بشعر "جبران خليل جبران":

ليت لى ألف عين

ترى كل ما يُعرض على الوجود.

من عجائب وطرائف....

الرواية سردًا وتخييلاً.

جاء منذ القديم، جاء السرد قبل التخييل.. أى أن الروايات قد استعملت الواقعية الحقيقة، حتى دخل (العقل) فى عالم الرواية ووجدان الروائيين النفسي، فزامل الخيال الواقع الظاهر والمعتمد قبلًا لإضافة شكلًا ونوعًا من أشكال الإبداع العصرى المُشبّع السيد حافظ الواقع بالخيال اللامع الذى يكمل صورًا سياسية واجتماعية وبيئية داخل لوحات روايته (حكاية سهر والعشق والقمر)، ولا ينسى أن يجعل نكسة ١٩٦٧ حجرًا أساسيًا كفعل استثنائى غير عادى مثل تغيرات وتحولات كبرى فى السياسة

العربية بأكملها، وعلى خريطة الوطن العربى بأطرافه البعيدة والقريبة (ذكريات وطن!).

يسرد السيد حافظ تاريخ الوطن المصرى ضمن ذكريات بلده ووطن (استشهاد البطل المصرى أحمد عبد العزيز قائد القوات المصرية فى حرب ١٩٤٨)، خطاب الزعيم جمال عبد الناصر ٨ يونيو معلنًا التنحى!، مظاهرات وطنية فى الإسكندرية). سمع فتحى رضوان – أحد أبطال الرواية يبكى "لأنى سمعت دقات قلب الوطن تلازم دقات قلبى، وجدتنى مواطنًا بلا وطن! وجدتنى مشروع كاتب فى وطن أُمى، ومثقف وسط أدعياء، وطيبًا وسط أشرار، وجدتنى حُلمًا يمسح مؤخرة الوطن الذى يضاجعه الأثرياء من عسكر يوليو..."

الآن يعلم قراء الرواية كلمات السيد حافظ وكيف أوضعها فى ذكاء وحكمة على لسان بطله فتحى رضوان.

يستغل السيد حافظ عامل الحرية فى روايته استغلالاً جيداً، حين يكتب عن الحرب الخاسرة لنا وللأمة العربية جمعاء؛ فالحرية تُحرِّم الفكرة السياسية، وتكشف أخطاء السياسيين، وهى لفظة واسعة المعنى عريضته، تصل إلى إعلان الحب والعشق وحتى التمرد والثورة.

"هُزمت سوريا معنا، واحتل الإسرائيليون الجولان والضفة الغربية من الأردن. قال الأستاذ هيكل إن الملك حسين خان عبد الناصر والأسد، وأبلغ إسرائيل بموعد الحرب وساعة الصفر. وكتبت جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل فى مذكراتها نفس الكلام.. هل الجيش العربي جيش من صلصال وورق مُقوى؟.. أمجاد يا عرب أمجاد.. كلام قوادين. الجيش الإسرائيلى خلع سراويله أمام هتلر، والجيش الألمانى خلع سراويله أمام

الجيش الأمريكى والإنجليزى فى الحرب العالمية الثانية، والجيش الأمريكى خلع سراويله أمام الجيش الفيتنامى، والجيش الفيتنامى خلع سراويله بعد الحرب، وقرر التمتع بالقمار والملابس والاستيراد والتصدير وممارسة البغاء. إنها حرب السراويل"...

"كيف سنطهر وننظف إسرائيل من القُدس ونحن غير قادرين على تنظيف شوارع القاهرة من الزبالة والقذارة؟"

لاحظ ذكاء الروائى السيد حافظ فى الإسقاط والمفارقة التاريخية anachronism فى غير الزمان الصحيح، هل أصبحت الحياة مظاهر؟ الملابس والأناقة هما عنوان الإنسان. أناقة لا ثقافة؟ لا شئ يهم بعد ذلك!.

بيان ٣٠ مارس ١٩٦٨ يقدم الإصلاح السياسي لعبد الناصر، (لا صوت أعلى من صوت المعركة)، (لا نداء أقدر من ندائها)، (تعبئة كل جماهيرنا بما لها من طاقات وإمكانيات من أجل واجبات التحرير والنصر)، (تحقيق السيطرة الديمقراطية على العمل الوطنى فى كافة المجالات)، تدعيم القيم الروحية والخلقية، والاهتمام بالشباب وإتاحة الفرصة أمامه للتجربة)، إطلاق القُوى الخلاقة للحركة النقابية سواء فى نقابات العمال أو نقابات المهنيين)، (تعميق التلاحم بين جماهير الشعب وبين القوات المسلحة)، (ضمان حماية الثورة فى ظل سيادة القانون).

"**كلمات كلمات ! لم ينفذ شئ من بيان ٣٠ مارس ١٩٦٨**" !.

أقوى من رابطة الدم والابن والأب والزوجة والأهل والبلد والبشر!" "شعبنا تحوّل إلى ذئاب.. قلبى مع الوطن.. لست حُرًا... الوطن مهزوم. الأحرار فى شعبنا نسبة ٢٠٪ وأنا منهم، يبدو أن نعمة الفهم والثقافة

نقمة وعذاب!" "الشعب متمرد كسول لا يحب العمل، ويحب الشر والكذب، والفهلوة والنصب، والتحايل على القانون"! أظن ذلك صحيحًا وإن أغضب الكثيرين.

"قال نزار قبانى لعبد الناصر بعد النكسة:

أرغمنى جُندك أن آكل من حذائى

يا سيدى..

يا سيدى السلطان

لقد خسرت الحرب مرتين.

لأن نصف شعبنا ليس له لسان

ما قيمة الشعب الذى ليس له لسان

لأن نصف شعبنا

محاصر كالنمل والجرزان

لو أحد يمنحنى الأمان

من عسكر السلطان ..

قلت له : لقد خسرت الحرب مرتين

لأنك انفصلت عن قضية الإنسان".

"العاصمة أم عاهرة للقرى فى كل بلاد الدنيا.. كل التجار خونة يشربون دماء الفقراء ويأكلون لحمهم نيئاً، التاجر لا ينال رضى الله – أو قد يناله بصعوبة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. خير الأماكن المساجد وشر الأماكن الأسواق، والسوق يحكمه التجار الفُجاّر. القادة العرب تجار في الخفاء يتقاسمون المال مع الأغنياء، من التجار أمراء لأنهم يحكمون دون ما حاجة إلى الظهور" وكل تاجر شاطر في هذه الأيام الملعونة).

لكن أين مصر وسط هذه الحياة الخرفة؟

يعود بطل آخر من أبطال رواية السيد حافظ ليقول: "مصر التي في خاطرى ليست هي هذه المأزومة المصدومة المهووسة، لأن مصر المنحوسة بالهزائم، مصر المحروسة بأهل البيت، مصر المحظوظة لكل من حكمها وسرق مالها، يومئذ تحدّث أخبارها. وأنا عشقت مصر تلك السافلة العمياء، الجاهلة القذرة الوسخة، الرائعة أحياناً وجميلة القلب، معشوقتى في الصباح والمساء. هل خدعت الشاب بحبها؟ وأنها أم الدنيا وأنا لست أولهم؟ هل علّمت الشباب عشقها الذى كان خطأً؟ وجدت جيشًا من عبيد ورعاع، أو شعبًا من العبيد يحب الانحناء والتملق، وعرفت بعد النكسة كم نحن سيئون كشعب، سيئون كقادة، سيئون كسياسيين، سيئون نحن كمدرسين، سيئون نحن كبشر. "وطن فاسد، شعب ٨٨٪ منه فاسد، ماذا جرى للوطن؟"

بعد هذه المعاناة من الهزيمة والأسى والعذاب، يقف السيد حافظ في محطة عنوانها (العشق والحب) وضمن عالم الحرية وأزماتها وانفراجاتها مُلقياً بروحه وشفافيته الناعمة، ووفق هذا العالم الذى يحتل أولويات مهمة في صدر الروايات، وأقصد به التجربة الإنسانية في المفاهيم السردية بكل علاقاتها المتعددة المنفتحة على أغلب مستويات الوعي الساخنة والدافئة وغير الساخنة، بغية اكتشاف حقيقة الإنسان البيولوجية والاجتماعية، والكشف عن المشاعر الحسية التي وهبها الله للإنسان في الطبيعة، بلا خجل أو مداورة، وعلى نسق الانفتاح المعرفي الحقيقي والطبيعي.

لا حياء في الدين ،ولا العاطفة ،أو العشق الدنيوى.

كاظم يخاطب الحبيبة سهر:

"حتى أتمكن من شفتيك عليّ أن أعبر بحوراً، حتى أتمكن من أن أرسم على نهديك، سأصعد جبالًا وأعبر جسورًا، حتى يتمكن من قلبك احتاج سيف روميو ورمح دون جوان. أحتاج ليلة القدر وصوم الليالي العشر، حتى أتمكن من جسدك ألف ليلة وليلة أحتاج مأذونًا وشهودًا ومهرًا ألف أغنية وألف كتاب عشق، حتى أتمكن وأنا الممكن وغيرك لا يوجد بالإمكان. حتى أتمكن منك لن أكون، وبك أكون أو لا أكون"

عشق متبتل يخاف الله، ويعشق حب الله وعشق حبيبته سهر. أليس عشق الجسد هو الرمز الحي والآبد الذي يعبر عن مكنوناتنا الحسية والثقافية والحضارية؟

ثم يعود الروائي النابه إلى الوطن، وحرياته ومساراته. يعود ليكمل شعلة الحرية في روايته.. إلى مصر، والى الأمة العربية التي باتت مكلومة جريحة.

"كل العروبة جريحة.. العروبة وهم أم حقيقة؟.. فلسطين وهم أم حقيقة؟.. إسرائيل وهم أم حقيقة؟.. كل شيء وهم أم حقيقة؟.. البلاد العربية ليست بلادًا حقيقية أمام إسرائيل التي أثبتت أنها حقيقة.. إسرائيل هم أولاد العم، اليهود في الأصل مصريون ونبيهم سيدنا موسى كان مصرياً، والدعوة نزلت في جبل الطور.. هل نحن وهم واحد، لنا اسم واحد في التاريخ اسمه (الكراهية) الكراهية التي تنتشر فتصيب المسيحيين والبشر الآخرين. آه! ما أقسى الإنسان ذا القلب الحجر!".

الوطن ليس وردة

ولا هو بحلم أو ظلمة أو ظلام. يقبض على بطل الرواية كاظم – زورًا – بتهمة الشيوعية، هو لم يكن شيوعيًا، لكن السلطة انتزعت منه اعترافًا زوراً وبهتانًا" أي وطن هذا الذي عشنا فيه، ونعيش الآن فيه.

الزور والتزوير هو مبدأ الدكتاتوريين ويحسبونه العدل!

تحمل الشتائم (اعترف يا ابن الكلب) بعد الضرب والإهانة والتعذيب، أطلقوا سراحه الأغبياء. "الشيوعيون تهمة في الوطن العربي، كرههم عبد الناصر، وكره الشيوعيون القوميين العرب، وكره الإخوان الاثنين، وكره السلفيون الإخوان المسلمين، وكره السلفيون الإخوان المسلمين، وكره الكاثوليك الأرثوذكس، وكره البروتستانت الاثنين، وكره اليهود المسلمين، وكره المسلمون والمسيحيون اليهود. نحن نعوم على بحر من الكراهية. هل يكرمنا الله بنبي جديد؟. لا أظن.. هل نحن في نهاية العالم؟ ويوم الحساب ونقابل رب العالمين، ونوزّع بين الجنة والنار؟"

"الوطن ليس وردة، ولا حديقة. الوطن إما مقبرة مظلمة أو جنة رضوان، الوطن إنسان ومشاعر. آه يا قلبى المهاجر مع الأحلام"

السيد حافظ يحلم بوطن آخر، غير وطنه أو وطننا جميعًا. أحلامه في جزيرة زاهرة بالورود والرياحين، وبالمشرف والأمان.

"كان الوطن بالنسبة لي في الحلم بستانًا وأمانًا وشجرة زيتون وشجرة أرز. الوطن حنان".

الواقع التاريخى:

لا تخلو رواية من السرد الواقعي الذي عادة ما يتناول في أجزاء منه

التعامل مع التاريخ الإنساني، الذي يُقدم أعظم أنواع التاريخ بعيدًا عن تواريخ الأحداث أو الفِعال. فالأهم في التاريخ، هو ذلك الذي يكون الإنسان هو الضحية فيه، وهو المُغتال والمظلوم المتظّلم دومًا، وبلا نتيجة في النهاية.

يصر السيد حافظ على نبش تاريخه وتاريخ موطنه مدينة الإسكندرية، أو هو يحددها بلد بطله فتحي رضوان (والذي من المحتمل أن يكون هو نفسه السيد حافظ. عارضًا ميراث الوطنية المصرية من والده العبق بعمل الخير للأهل ولغير الأهل. متنقلًا بنا بين الأحياء والشوارع والمنازل والأسر، وعدد من الشخصيات الإسكندرية (السمراء حفيظة زوجة الدوكش، حماصة أخت حفيظة، عبد الإله بائع الخضار، عزيزة زوجة عبد العال، حندوقة الأكثر إثارة بينهن جميعاً) كل شخصية تحمل عالمها وسلوكها الخاص، ومهنتها وبريقها في الحياة الاجتماعية السكندرية التي تكشف جانبًا جميلًا من جمال وتاريخ الثغر.

الوطن مرة ثانية:

يظل الوطن هو هاجس الروائي الوطني السيد حافظ. ولِمَ لا وقد شب منذ نعومة أظافره، وفى الجامعة على الثورة، على الظلم والاستبداد مهما كان مصدره وصاحبه.

"آه! الحاضر كسول ومُمل وتعيس. كان الماضي حياً، كفاح ونضال وتحرر واشتباكات وانتصارات.. الآن الأمور ليست هكذا.. أعطوا كل منا نيشانًا ووسامًا وشهادة تقدير.. ولا شيء بعدها.. لا شيء حصل!

الجنرالات حصلت على كل شئ، المناصب وأراضى ومال، وأصبحت المقاومة الشعبية في خبر كان!

تاريخ الوطن في المقاهي لا يجمعه أحد، وتاريخ الجنرالات في المدارس تسعة وتسعين في المائة (٩٩٪) منه كذب في كذب، والمدرسون يعلمون تاريخ الوطن الكاذب الذي كتبه الجنرالات!".

عودة إلى العشق:

الرواية بشتى أشكالها تبدو مرة طليقة في القرن الحادي والعشرين بعد مرورها على أشكال ما بعد البنيوية والحداثة **modernness** قرن الرواية بامتياز، خاصة إذا كانت أشكالًا سياسية أو دينية أو اجتماعية، تزرع الرواية الأمل في النفوس، والعشق في النفوس، والأمل بل الآمال لتُسعد البشر والبشرية بلحظات الحب والغرام.

ولتكون أكثر جرأة من المجهول والمخفي، في ثوب رومانسية تشفى غليل العشاق والمحبين. "آه يا سهر! عندما تغفو عيناك على وسادة الماء، تتسلل روحي منى وتغادرني إليك، إلى روحك، إلى قلبك، إلى عقلك، كي تحميك من الأحلام المُزعجة.. هل أنت الحضور؟ أم ملكة ملكات التاريخ؟ أم رعشة في الدم؟ واشتعال الروح؟ أم أنت زهور ارتوت بدم الحسين والمتنبي وبلقيس وكليوباترا؟ أنت شرفة للشهوة تطفئ القلب"

تتوافق مع هذه العودة إلى العشق خيالات وتخيلات الروائي الكبير السيد حافظ ليبعث لروايته بصورة جميلة غير مألوفة إلا في الخيال الجميل. يتحدث فيها العصفور الطائر مع الله عز وجل:

"ربى، ورب الناس وكل الناس، ارفع عنى البلاء واجعلني بشرًا، أنا لست معترضًا ولكنى أطمع في العفو والرحمة والعتق من مكانة العصفور. أنزل لي آية واجعلني بشرًا. اللهم ارفع عنى شقاء عقلي

وقلبي من جهلاء العصافير. اللهم لا تجعل رزقي بين عبيدك الجهلاء. اللهم أسألك أمن نفسي، وأن ترحمني من كيد الأعداء من الصقور والصيادين".

صورة مبتكرة في الخيال التواق إلى الأمن والقلب الحنون بعيدًا عن الجهلة والجهلاء من بني البشر.

تتميز الرواية – في عدة جوانب منها – بالإيحاء بعشق الوطن الذي يحلم به الشرفاء وكاتبها. الوطن مصر أم الدنيا، وعشق الوطن عذاب، ومصر السبعة آلاف عام. مصر التي في ظني أنها لم تتحرر بعد. وما معنى لفظة وطن؟ ولفظة مواطن؟ غاب عنا الوطن، مصر الوطن، وغابت المواطنة هي الأخرى!.

"عالم كاذب يغزو مصر أم الدنيا، أم السيدة هاجر أم أنبياء الله، وأم سيدنا إسماعيل، وأم العرب، وهي مصرية.. مصر عالم كاذب في سير حُكامه عند مذكرات محمد علي بتاريخ كاذب وكذوب.. تُخرّج المدارس فيه أغبياء تجهل حقيقة تاريخها وحقيقة الأشياء فالأوطان أحلام وأكفان وأماكن وهمية تصنع لنا جواز سفر في الروح قبل المدن".

حقاً إن الهوية عار على حاصلها. ألم تقتل مصر سيد درويش بأغانيه وألحانه المستحدثة؟ (زورونى كل سنة مرة حرام تنسونى بالمرة؟).. هذه مصر (وهى هي حقيقة مصر) كما صورها لنا بكل الصدق الروائي السيد حافظ حفظه الله.

الجزء الثانى: حكاية نفرو إخناتون والنيل

(خَلْفاً دُور. إلى مصر الفرعونية)

يستهل الروائي السيد حافظ الجزء الثاني من روايته الطويلة (قهوة

سادة) بمقولات هي حروف من نور تضئ مدخل وبداية روايته بقول إخناتون

إلهى .. إنك صانع ومُصور دون أناشيد منقطع
مُصور لأعضائك بنفسك.
ومُصور دون أن نُصّور.
منقطع القرين في صفاته يخترق الأبدية.
مُرشد الآلاف إلى السبيل.
(**إخناتون**)

ومن الإنجيل اختار الفقرة الجميلة:

"الحق أقول لكم: إن جميع الخطايا تُغفر لبنى البشر والتجاديف التي يجدّفونها(٢٩) ولكن من جدّف على الروح القُدس فليس له مغفرة إلى الأبد بل هو مستوجب دينونة أبدية) مرقس ٣ : ٢٨.

وينتهى الروائى بمقولة ثالثة، وأخيرة ينطق بها لسان بطله فتحي رضوان خليل تذكر:

"الصراعات والمتناقضات التي يمر بها شعبنا الآن هي القوة المحركة للتاريخ.. ليس عيبًا أن أي ثورة بلا مبادئ، معظم الثورات التي كان لها مبادئ سقطت وقتلت.. نحن نحتاج إلى ثورة عقلية.. متى ينتهي الصراع المفجع بين العبد والسيد؟ إن معظم المبادئ خادعة وليست حقيقية.

(**فتحى رضوان خليل**)

إخناتون ، والنيل، ومصر الفرعونية:

زوايا ثلاثة تتربع وتستند عليها رواية الروائي السيد حافظ ليعدم من

خلالها – عبر روايته الطويلة– أفكارًا قديمة أصيلة، وأخرى حديثة مستقاة من فكر فرعوني، أو لعلها تمثل إسقاطات لها من العصرية والآنية الكثير الكثير الذي يؤكد غيرة السيد حافظ على مصر، وعلى الوطن، إيمانًا منه بالخلاص الذي يضع وطنه مصر بإذن الله في أوج التألق والازدهار.

يذهب الروائي – في صدق وواقعية – إلى حقب التاريخ ليفحصه في دقة وأمانة عجيبين تؤكد شخصيته الرائعة ونظرته الثاقبة المؤكدة حين يفصح في إسهاب دقيق ورقيق عن شخصية الملك إخناتون، أمنحتب الرابع، متعمقاً في سلفه (النمرود) أمنحتب الثالث الذي علّم شعب مصر الفرعوني أن يعبدوه ويصلوا له وحده، باعتباره الله والإله، حتى أن المصريين كانوا ينحنون لقصره الأبيض من أبعد المسافات وحتى ولو تجاوزت خمسة كيلومترات بُعداً! استغلالٌ لمستبد حاكم يُدخل من شارك في البناء له الجنة يوم الحساب! ويُقيد بالحديد وسلاسله الرافضين لأوامره وجبروته، وبالكرباج الفرعوني الغليظ.

ينتقل السيد حافظ بين الفرعونين الثالث والرابع، منتقلًا في ذكاء إلى فكرة الحرية عند الشعب القديم، شعب ما ظل يبحث عن العدل في الخفاء في موقف تضاد وعناد ومقاومة للفرعون أمنحتب الثالث اللعين.

حرّرت كتب عديدة تاريخ إخناتون (أمنحتب الرابع) لكنني مع ذلك لم أشهد تقريرًا وافيًا، وتشريحًا دراميًا أصيلًا يكشف عن خبايا تلك الشخصية في التاريخ الفرعوني، كما أوردها لنا في روايته السيد حافظ، كاشفاً عن خصائص الشخصية، وإيمانًا بالله عزّ وجل. هو لا يعبد التماثيل (كما عصر والده أمنحتب الثالث)، ولا يدّعى الألوهية، ويعرف

لغة كائنات حية كالطيور والحشرات، ويُحس بالشفقة الأبوية لكل مواطن على أرضه.

إخناتون المؤمن بالإله الواحد، وبشعبه من بعده، يُجسد درجة عالية شاهقة من درجات الإيمان القوى المتعافي "هو يصلى للإله رمز القوة آتون"، ويعتبر الشمس رمزاً للإله الموحد، ونور آتون يفيد جميع الأجناس (بعيداً عن العنصرية والتمييز)، وآتون ليس رب شعب ما أو مدينة معينة، بل كان رب الناس التي تشرق عليهم الشمس فهو رب المصريين، رب شعوب آسيا، شعوب النوبة، وهو راعٍ لا يفرّق بين أحد من رعيته".

وليؤكد السيد حافظ الشخصية الكبيرة المؤمنة بالله وحده إخناتون، يسجل ديالوجًا دراميًا بين الملك والملكة (إخناتون، نفرتيتي) على النحو التالي:

"إخناتون:مصر الآن تعبد أكثر من راعٍ إلهًا. مصر لا تحتمل كل هذا. النيل هو الحضارة، والحياة.. المصريون يبتعدون عن حقيقة الله.. الحضارة لا تقوم على التفتت. أي طريق يسير فيه الوطن؟ أشعر أنى حاكم لشعب ضائع!.

نفرتيتي: كُن مثل أبيك أمنحتب الثالث، أنت الإله وأنت الله، الذي يعبده الناس.

إخناتون: إن أبى قد جُنْ.. لقد مات أبى، الله لا يموت. إذن هو ليس إله. إن شعبي مُمزق قلبه بين أيدي الكهنة. إن الفرعون وسيط بين الشعب والرب.

نفرتيتي: شعب؟ أي شعب؟ من هو الشعب؟ مزارعون حقراء يزرعون

القمح والشعير ليس لهم أية قوة.. القوة في الدين وكهنة المعبد يسيطرون على المحاربين وجيشك.. الله هذا في خيالك أنت الذي تراه.

إخناتون: سيراه شعبي معه..أنا لن أتعامل مع الكهنة، لست بوقًا للكهنة، ولا نفيرًا للجند... لقد ألغيت كل الآلهة".

الشعب في عين إخناتون هو الحرفيون، والرعاة، والفلاحون، وهم في القانون ممنوعون من العمل السياسي!

إخناتون والإيمان:

في رأى السيد حافظ تمتع إخناتون بإيمان قوى وعزم من حديد "يعلم أن الطريق إلى الله به أشواك، وبه عناء، وبه شقاء وألم، الطريق إلى النور يفنى الجسد فيه، ولكن الروح تظل تُفنى بالإيمان والاشتعال والوهج". إخناتون يُصلى في شروق وغروب كل شمس.

جعل الله الإنسان خليفته، وهو يعلم أنه يُفسدها ويفسد فيها، كما يقتل ويذبح فيها. وقف إخناتون حقاً ضد الرأي العام".

- يا إلهي، كل شئ قبيح هو منى، عندما يغيب نورك عنى، وأعرفك حين أصلى، إلهي.. ماذا، وكيف، وأين الخلاص منك، وأنت حولي وفىّ تسكن، وفوقي وتحتي في السماء والأرض، إلهي.. إني في غاية العشق لك، والجهالة نار تحاصرني، أنا أدرى ولست أدرى. إلهي.. طهّرني من الكآبة والغربة، وليس لي سفينة أبحر بها إلى قلبك إلا الدمع.. آه آه".

يعترف إخناتون لملكته نفرتيتي بحظه العاثر في حياته الملكية، وبالوطن أي العقل الضيق، وبتدني أناشيد دينية هابطة، وبسلوك المصريين شعبه

في الوطن. لقد ضاق بالنفاق وبالشر وبغياب الخير والفطنة وبكل ضجيج فكرى تافه (ضجيج في غير طائل) على خط مسرحية شكسبير التي جاءت بعد عصره Much ado about nothing .

يستطرد إخناتون فيقول: "أخاف على مصر من المؤامرات التي تحاك ضدها من كل صوب (وكان الفرعون الملك إخناتون – أمنحتب الرابع يتحدث إلينا اليوم في مصر مرة ثانية بعد ثورة الخامس والعشرين من يناير الخالدة) أستشعر شيئًا قادمًا سيطيح بي!! الكهنة، أم نفرتيتي، أم الجيش.. الجميع يا أخرى!.

كما يتجلى إيمان إخناتون بالله في حواره التالي:

"أيها الواحد العظيم.. اهتم بأمري، واجعلني أتحدث عن أعمالك العظيمة في أي أرض أحل بها.. تعالى إلىّ ونجنى أنا الرجل الصامت. إلى الله الواحد.. أنت تشرف بجمالك يا آتون الحي يا رب الأبدية.. ساطع، وقوى، وجميل.. إيه أيها الإله الذي سوى نفسه بنفسه، وخالق كل أرض وكل من عليها والناس، وكل قطعان الماشية والغزلان، وكل الأشجار التي تنمو فوق التربة

تحيا عندما تشرق عليهم، وأنت الأب والأم لكل من خلقته.. وعندما تشرق ترى عيوبهم بوساطتك وتضئ أشمعك كل العالم، وينشرح بسبب رؤيتك كل قلب.. عندما تشرق بصفتك سيدهم".

هذا الإيمان الإخناتوني لا يفارق روح وعقل وجسد إخناتون حتى وهو بين أحضان زوجته كيا. إنه يفكر في عالم جديد، متخيلًا نفسه وقد انتقل صاعدًا فوق جبال النور، مصطدمًا بتاريخ فرعوني كتب ووثق حال العبيد وحال العبادة القاتل الذي حوّل الناس كلها إلى عبيد أذلاء. إنه يستشعر

وحشة هذا العالم، حتى وجد نفسه يثور عليه ويتمرد لنمطه ونظامه وشكله ومضمونه، حين أحس بوهج الإيمان في قلبه، والنفاق في ذلك العهد الماضي هو الفجر الحر بعينه!.

يعود إخناتون – بكل إيمانه وأمانيه – إلى الصلاة في أكثر من مكان في الرواية الرائعة.

- أنت في السماء (يا الله) ولكن أشعتك فوق الأرض .. أشعتك تنفذ إلى أعماق البحر الأخضر العظيم.

أشعتك تحمل ألف ألف من الأفراح الملكية وحينما ترسل أشعتك تشمل الأرضين، وحتى كل ما صنعت وسواء أكان في السماء أم في الأرض، فإن كل الأعين تشاهده دائماً".

يظل إخناتون – بفضل من الله – واعيًالأمور مُلكه ودنياه. عارفًا بالكهنة ومُدعي الدين وحُزمة آلهة العبادة التي كرسّها أبوه أمنحتب الثالث الدكتاتور الفرعوني السابق على ملكه. يشكر إخناتون ربه على منحه الوعي واليقظة، وانكشاف هوية الجهل والجهلاء أمام ناظريه، وعلاقته بسريره نفسه الشفافة الخلاّقة:

"لقد سئمت من المراوغة بيني وبين كهنة آمون ومعبد آمون.. لا مراوغة في الإيمان!. فالدين لا يقبل كذبًا، ولا يطيق الكذابين"!.

النيل.. نهر النيل الفرعوني – المصري:

طيبة، عاصمة مصر القديمة، مدينة المعابد والآلهة، طيبة أسطورة العشق المختومة بالمِسك والعنبر، زكية الرائحة. والنيل الذي يستحم فيه الرجال والنساء.

يصف السيد حافظ مدينة طيبة المحظوظة بالنيل فيقول عنها: "محظية

الكهنة، الكهنة من كل لون وكل صنف واتجاه.. آلهة كثيرة. آلهة في كل شبر من أرض طيبة.. كم تدفع لكبير الكهنة لتحصل على وظيفة كاهن! (أي نوع من الرشى جرى على أرض طيبة قديماً!؟).

الكهنة والكهنوت، السر والأسرار، قُدس الأقداس، والتحنيط وغسْل الموتى والبركات. المهنة للكاهن لا تتطلب منه سوى الجلوس في المعبد طوال اليوم للصلاة، والأكل، وجمْع الهدايا! (مهنة مريحة!). النيل هو الزراعة، و الانتظار والصبر.

"المصريون هم الصبر...

هم الانتظار..

انتظار الزرع لينضج..

انتظار الفيضان أن يأتي..

انتظار فرعون أن يرضى

انتظار المطر..

انتظار الانتظار"

قال هيرودوت "مصر هبة النيل" يعطى النيل ويمنح سره وعطاياه للبشر القدامى – الفراعنة بعضًا من ماء مقدس مسحور ليْجمّل النساء بعد استحمامهن به، والى الأبد (أية أساطير قديمة هذه!)

يحمل النيل عطايا الحب والعشق يهبهما للعشاق والفلاحين ليُقدم لكل منهم أملًا في الحياة، ونوراً يضئ طريقهم. شخصية (نفر) عندما تغيب عن ضفاف النيل تشعر بالوحدة، "فالمساءات رتيبة، وقابلة النجوم الليلية على سجادة حزينة، والحب بين الماء والنار جليد وجمر". وسرعان ما يفقد صوتها البريق، والشبك، والصيد فلا ترى شيئًا أمام

بصرها.
تعود الرواية (قهوة سادة) بالنيل إلى عصرين مُهمين: العصر القديم الفرعوني، والعصر الحديث المعاصر الذي تجري أحداثه بطريق المزج Mixture أو بين اختلاق الأحداث Invention بشريطة إيجاد وحدة unit بين العصرين والزمنين. ويستند الراوي الذكي في روايته إلى وحدة تنتج عن عامل الارتجاع الفني الروائي Flash-back فيلجأ إلى قطع – مرات ومرات – للتسلسل الزمني في الأثر الروائي الأدبي بإيراده أحداثًا أو وقائع أو مشاهد وقعت في زمن سابق.
يؤيد السيد حافظ رفض إخناتون لعروس النيل ضحية الغباء وأسطورة ملكة النيل التي ترمى له في كل عام. لكن ذلك يغضب الكهنة ورجال الدين. يا لهم من قلوب قاسية متحجرة! لا تفهم كثيرًا.
ثم تجار طيبة على جانبي نهر النيل! الذين لا يقلون قسوة وفجرًا عن كهنتهم. إنهم صناع التماثيل والحاصلون على المال والهدايا من الطيبين الغلابة فلاحى الأرض، وهم الذين يخدعهم أصحاب المال والمنافقون للسلطة، والطامعون في قتل إخناتون.
"يذكر إخناتون لزوجته نفرتيتي: يا أجمل ملكات مصر بلا استثناء.. أنا إخناتون زوجك وحبيبك، أرفض الخضوع إلى الكهنة، والانحناء للتجار أعداء الله، يسرقون أموال العامة، ويخفون السلع والبضائع القادمة من بلاد بونت وغيرها. هؤلاء يريدون أموالًا في جيوبهم، لا يريدون مصر أم الدنيا".
يختار إخناتون على ضفاف النيل فلسفة الحرية في التفكير، والحرية طريقها السلام لا الحرب. فالسلام أمن وأمان، "والحرب لا تنشر أي

عدل أو عدالة، لأنها تنشر الويل والدمار والخراب ودموع الأرامل، وجيوشاً من الأيتام التي بلا حُلم".

مصر الفرعونية، مصر المعاصرة:

الروائي البارع السيد حافظ يفتتح الجزء الثاني هذا من روايته (قهوة سادة) بعبارة تكشف عن آلامه وآماله في الوطن المصري المعاصر، نابذاً الماضي العتيق، وناقدًا لكل أوضاع الفكر العفن الذي ساد مصر وطنه بين فترات وفترات.. "في بلادي يمُر الحلم ويسافر ويعود بلا أجنحة (قطّع الظلم أجنحته)، في وطني صُنعت للأحلام أضرحة (يدفنون فيها الوطن)، لمن أكتب؟ لمن؟

وأنا أقول له: سوف تكتب وتكتب، وحقك في الكتابة هو رواياتك وإبداعاتك.. قدّمت مصر الفرعونية، وطيبة، ونهر النيل العظيم – في السابق- كما أفردت في روايتك (قهوة سادة) المعابد والآلهة القدامى والكهنة الكسالى، وتجار المال والخضروات، والعبيد المساكين. ودكتاتورية الفرعون أمنحتب الثالث، ثم أوضحت سُلطة الدين الغاشمة ند الفرعون الجديد إخناتون.

ولجأت بعد ديالوجات درامية رائعة إلى نفسك عبّرت عنه مونولوجاتك يا من تلبست روح بطل روايتك (فتحي رضوان خليل) جاهدًا في عصرك الآني خلاص العالم من الفقر والجهل والمرض

"ربما هزني موت جيفارا.. ربما قهرني هذا الإحساس بالثورة والثورة المضادة، وموت بابلو نيرودا، يحيرني أبا ذر الغفاري، الثائر حتى الموت، ربما اغتيال شهدي عطية الشافعي وحسن البنا... لا أكاد أعرف نفسي من أنا؟ ضائع أنا بيد الثوري والكاتب".

وقفت سيدي الكاتب إلى جانب صف الفقراء والكُتاب، وعاديت السياسيين الحاصلين على المناصب والشقق الفاخرة والأموال (الحرام).
أردت تحرير نفسك الصافية من القلق والحيرة، اعتبرت كتب الأرصفة الغثيان بعينه، ذهبت بك كتاباتك إلى اكتشاف حقيقة العالم، ثم... فهمت أخيراً أن ما لك كله يعيش في وطن عبيط. إذن، لقد اكتشفت الحقيقة الخالية من التزويق، المفتقدة للذوق، الحالمة بالثقافة والتنوير.
حّررت مدة حقائق عن مصر القديمة والحديثة: معظم شوارع مصر بأسماء الحزم والخونة (تاريخ مُزيف لمصر) خدم الفاطميين لهم شوارع بأسمائهم تخليدًا لذكراهم. بهاء الدين قراقوش، وحارة تُخلد اسمه اللعين والذي أذاق المصريين الأمرّ جلدًا وسجنًا وسخرية. وهكذا، وعلى نفس منوال الكذب والإدعاء (حارة الدليم، حارة درب الملوخية، قصر الشوك – قصر الشوق، حارة العطوف) هذه هي مصر العبيطة تاريخًا ومعاصرة.
نعم، سرق الوطن أمانيك العزيزة الغالية. الشعب المصري جاهل أمية ظروف، وأمية ثقافة. وتعلق فتقول "يا لذلّ شعوب فقدت العقل لبؤسها، يا لأمم أمعنت في أذاها وعميت عن منفعتها. تُسلب (أيها الشعب) أحمل مواردكم وأنتم على السلب عيان، تتركون حقولكم تُنهب ومنازلكم تسرق وتجرد من متاعها القديم الموروث عن آبائكم! تحيون نوعًا من الحياة لا تملكون فيه الفخر، حتى لكأنها نعمة كبرى في ناظركم لو بقى لكم ولو النصف من أملاككم وأُسر له وأعمالكم".
كيف استطاع هذا الروائي الذكي المزج والخلط بيد آلاف السنين والقرون؟ وكيف به، وهو يلحظ داخل (الفلاش باله) هذا التعدد وهذه

الثنائية المتطابقة المتماثلة في الحالين، حال الماضي البغيض، وحال الحاضر البغيض هو الآخر؟

وتحاول الملكة نفرتيتي أن تكسب ود زوجها الملك إخناتون، تسعى للاقتراب من زمرة الشعب، تحاول منع رجال الشرطة من ضرب الفلاحين المصريين بالعصي ليسلموا الحبوب وحصار الزراعة عنفاً. إلى ما بعد ذلك من وثقهم والقذف بهم في بئر ورأسهم إلى أسفل، وأمام زوجته للأسف أو بغير أسف. (ألم تسمع عن هذه البربرية الآن في زمننا المعاصر، وأشد منه غباءً وبلادة؟) لك الله يا مصر القديمة والحديث العصرية!.

فتحي رضوان بطل الرواية يذكر: "الشاعر نجيب سرور قابلني في محطة الرمل في مقهى إيليت وقال لي: اليسار أكثر خيانة من اليمين، وأنا لم أصدقه"، مصر خايبة طول عمرها.. المصريون يحتاجون غسيل عقولهم حتى ولو مرة في السنة.. اقرأ صحف الكويت تُذهل، لدينا الأخبار مثل الأهرام مثل الجمهورية، مسخرة، كله تمام (نفس حال اليوم المعاصر!) مصر مش عاوزانا.. مصر عاوزة الحرامية والكدابين والمنافقين واللصوص واللى بيحلبوها. مصر لا تحب الشرفاء. مُعظم الشعب ملوث بفيروس الفهلوة والنصب والكذب. تعبت، يا بنى إدينى قهوة سادة. ناداني عمري الضائع بيد (مصر) الوطن والحروف.

عبر حكايات ومشاهد فتحي رضوان بطل الرواية، وبين أحداث ماضٍ يروى الكاتب الروائي حكايات وحكايات عن مصر. فضّلها الله في التاريخ، مشيرًا إلى أحاديث نبوية عن الرسول صلى الله عليه وسلم "إذا فتح الله عليكم بعدى مصر، فاتخذوا منها جُنداً كثيفًا، فذلك الجند خير

أجناد الأرض لأنهم في رباط إلى يوم القيامة". مصر التي حظيت بميلاد العديد من الأنبياء موسى وهارون، ويعقوب ويوسف والأسباط وأرمياء. ودخل إليها دانيال ولقمان الحكيم، ودفن بها العديد من العلماء. لم يترك السيد حافظ ساعيًا إلى مصر إلا وذكره مستعرضاً فعاله وإرادته (أقوال المسعودى، كعب الأحبار القضاعي) ومن الفلاسفة القدامى الذين تحدثوا عن مصر كتب الروائي المتمكن من تاريخ الحضارات: هرمس، أبقراط، جالينيوس، ألينوس، فيثاغورات. كتاب أحمد حسين (تاريخ مصر). هذه مصر التي يتبول مصريون في الشارع، ليس كلهم بالطبع، لكن الغالبية العظمة مما أفقد الحاكم بأمر الله صوابه، فبنى لهم مراحيض عمومية. الناس تحتاج إلى وعى وثقافة!. والى رفع الروح المعنوية.

يحلم فتحي رضوان بمصر الأمة، وبتحريرها من التخلف، يخاطبها في شخص حبيبته سهر بالعشق البائن الظاهر: أكتب لك قصته (مسافر زاده الخيال) "يا عصفورتي، هذه الدنيا بدونك تعنى الوحشة والقلق والفزع والخوف، عيناك مرافئ الأمان والحنان والآمال. آه. عندما أراك أشعر كأنني غريبة عن الديار، وقمر عاد للكواكب ليدور، اسمحي لي أن أكتب بعض الكلمات، في زمن تفقد الكلمات براءتها ونقاءها وسُموها، ونبض قلبها الدافئ.. أنت من أنت؟ أسمع هفيف أنفاسك ليلاً فيطاردني الحلم إلى ضوء الفجر فأصلي، وأراك أمامي كأنك نجمة في السماء".

عشق لمصر، ومن أجل مصر يكتب السيد حافظ ليسجل تاريخًا مصريًا وطنيًاصادقً ا وأصيلًا. مصر القديمة "بردية سليم حسن القديمة، وما كتبه الأدباء في مصر منذ أربعة آلاف عام قبل الميلاد. تقول البردية: "كل شيء في مصر يقبل رشوة إلا الله، لأنه عادل ونزيه. الرجل يذبح

أخاه من أمه فما العمل؟ الرجل ينظر لابنه نظرة عدوه. الرجل يذبح بجوار أخيه فيتركه وحيدًا لينجى نفسه! العدو يحرم البلاد من العمل، إن من حصد المحصول لا يعلم عنه شيئًا. قوانين قاعة العدل، والأحكام قد ألقى بها ظهريًا فصارت تدوسها الناس بالأقدام في المحال العامة، والفقراء يقضونها على قارعة الطريق. أوراق العدل على الطريق ملقاة، لا تنفذ أحكام العدل في البلاد، لا قيمة للعدل عند الأغنياء. الناس تسلب السائح ماله في الليل ويجردونه مما معه (البلطجية) ويضربونه بالعصا أو يذبحونه كالشاة. نظام البلاد قد قُلب رأسًا على عقب. فمن كان عصا صار رب ثروة، والغنى الأصلي صار إنسانًا منهوبًا، والمتحلي بالفضائل يسير وهو محزون (مكتئب) البؤس عم في هذا الزمان والفساد والفوضى.. لكنني عندما أقرأ، فإني أسمع نبض مصر، مصر الناس، وليست مصر الكهنة والحُراس. إني أدوس على أرض طاهرة تئن بأوجاع الناس ويحتشد فيها همس المظلومين والجياع. الحب بين ضفتي النيل يغيب. إن مصر تنتحر على ضفاف التشتت والصمت والاستسلام.. وأنا لا أريدها كذلك".

يعلن الروائي السيد حافظ عصيانه وتمرده، إنه لا يقبل بمصر الوطن أن يسير بها الحال على ما هي عليه الآن. إنها أفضل من ذلك بكثير بكثير.. "يكره الله السياسيين (سبب هذا المصير المظلم والظالم لمصر العصرية اليوم) لقد أنزل الله رسالات الأنبياء من السماء لمقاومة هؤلاء الطغاة. إن الله يحب الفقراء المستنيرين، ويكره الأغبياء الذين لم يفكروا ويتأملوا في خلق السموات والأرض والمجتمع والتاريخ. إن الله يحب كل ما هو جميل الروح والقلب، ويكره الأشرار به ثم يردد.." إنني

مصري. أكيد أنا مصرايم بن بنصر بن حام بن نوح عليه السلام".
يعود قرب ختام الرواية، فتحي رضوان إلى القاهرة العاصمة المصرية الآن، يعود إلى الوطن القاتل والمقتول والعاهر والمتدين في وقت واحد. "فنجان القهوة أمامي قد برد، وأيامي تهترئ أمامي في ساحة الغفلة والأمية الثقافية. يا فاجرة أنت أيتها المدينة التي تدعى القاهرة. تعالى من وسخ الشوارع، ولا تستحمي في النيل لأنه مُلوث "تعالى ولو مرة واحدة لتشربي معي القهوة (السادة) وأنت طاهرة".
من مصر الآنية أم الدنيا، إلى مصر أم العروبة "والخونة الفلسطينيون الذين يُعطون إسرائيل رقم البيت والشارع والشقة واسم الناشطين لإسرائيل حتى تضربهم وتقتلهم بدم بارد. تُرى كم مليون خائن عربي يتعاون مع إسرائيل؟ تُرى كم مصري خائن؟ الخيانة مهنة، الجاسوسية مهنة هي الأخرى، أكل عيش. كم خائن في تاريخ مصر وتاريخ العرب؟"

الحرية مرة أخرى:

يتعامل السيد حافظ بمفهوم ومضمون الحرية تعاملًا يحمل معها الخير للبشرية، يظل يعمل على تأكيدها لإعطائها البعد الإيجابي وأمل الحياة لعيشها واستمرارها داخل حياة معاصرة أليمة. آن الآوان لكي تنهض الحرية متجاوزة آلامها والماضي الرديء الذي حبس وجودها في حيوات عربية متخلفة، خارجة عن حدود المصداقية والموضوية. لقد تحطمت آمال القراء العرب فغفلوا عن القراءة وفترت إرادتهم، وتخلفوا عن البحث عن الجديد في عالمي الآداب والثقافة.
فقد روائيو اليوم – العرب على الأقل – دورهم التنظيري الذي يعنى التحليل والتشريح والدراسة والنقد كنتاج طبيعي لأحوال المجتمعات حتى

تعبر الرواية تعبيراً شاملاً وأمينا عن الواقع الحي أو الخيال الناشط الجميل الذي يضيف إلى الواقع تشويقاً وتطلعاً إلى غد روائي أفضل. لقد جهّزت (قهوة سادة) للسيد حافظ إشراقة فعالة تعيد لنا جميعًا صورة النقد البناء للمجتمع العربي عامة. وحتى تكسب معركة الموقف، فقد زودت القارئ بالتواريخ، والتحليل الفلسفي والأدبي، وبالأمثلة تلو الأمثلة التي لا تنضب، ولا تختفي بين الحين والحين، لتظل الروح الروائية ممسكة ومتعلقة برأس القارئ وعقله وأحاسيسه ونبضات قلبه حتى يقبل ما يرويه الراوي من تاريخ يسير بين القديم والحديث.

(قهوة سادة) عمل أدبي رصين يضيف إلى جانب التاريخية، الحقائق والحقيقة، والعشق الفني، معنى آخر مسار الرواية. يتجول الروائي الكبير السيد حافظ بين القضايا المهمة والمعاصرة، فيتحسس ويتلمس السياسات التي تطيح بالإنسانيات، ويلقى الضوء الأبيض الناصع على مؤامرات التجار آكلي لحوم البشر واستغلالهم للدين بعقد صفقات الحوار مع الساسة والسياسيين الجهلاء، ويفكر في مصر الجديدة آملاً الخير لها ومؤملاً رخاءها وعزّتها على يد ثورة ٢٥ يناير الصاعدة بإذنه تعالى، مبتهلاً إلى الله اكتمالها ونصرها مع الشعب المصري العظيم، آمين.

سيرة ذاتية

يعد المخرج المبدع والمنظر الأكاديمي د.كمال الدين عيد أحد رموز الإبداع الفني الذين تفخر بهم حياتنا المسرحية، فهو أحد رواد النهضة المسرحية الحديثة خلال النصف الثاني من القرن العشرين، هؤلاء الذين ساهموا بموهبتهم وخبراتهم في إثراء مسيرة المسرح المصري بصفة خاصة والمسرح العربي بصفة عامة .ويحسب للمبدع القدير/ د.كمال عيد - أطال الله في عمره - أنه مازال مصرا علي بذل الكثير من الجهد وبدأب شديد لينير الطريق أمام الأجيال الجديدة من المسرحيين، وذلك سواء عن طريق المساهمة الأكاديمية بالتدريس والإشراف علي الدراسات العليا أو عن طريق نشر الترجمات والمؤلفات المسرحية وكتابة المقالات والدراسات ومن بينها تلك المقالات القيمة بجريدة "مسرحنا الأسبوعية".

- ولد "كمال عيد محمد" بمحافظة "القاهرة" عام ١٩٣١، وتخرج في المعهد العالي لفن التمثيل عام ١٩٥٢،
- بدأ حياته العملية بالعمل كمفتش للمسرح المدرسي بالإسكندرية عام ١٩٥٥، ثم انتقل للعمل كمفتش للمسارح والملاهي بمصلحة الفنون.
- وكانت فرصته الذهبية لصقل موهبته حينما أوفد في بعثة دراسية إلي دولة "المجر"، حيث نال بكالوريوس أكاديمية الفنون المسرحية عام ١٩٦٢، ماجستير الآداب الدرامية من جامعة "بودابست" عام ١٩٧٠، ودكتوراه في فلسفة الآداب الدرامية من

أكاديمية العلوم المجرية عام ١٩٧٤ .

- وبعد عودته من البعثة عين مخرجا بالمؤسسة المصرية للمسرح والموسيقي (البيت الفني للمسرح حاليا)، كما عين عام ١٩٨٨ وكيلا للمعهد العالي للفنون المسرحية .
- له العديد من المسرحيات المتميزة لفرق مختلفة ومن أهمها عروضه بكل من فرقتي "المسرح القومي" و "مسرح الجيب"
- له من المؤلفات ٣٥ كتابا ما بين التأليف والترجمة في مختلف صنوف المعرفة المسرحية.
- حصل علي العديد من الجوائز وشهادات التقدير من مصر وبعض الدول العربية. كان أخرها جائزة الدولة التقديرية لعام ٢٠١٨، وتكريمه من الهيئة العربية للمسرح عام ٢٠١٩.
- كتب عنه العديد من الكتاب الكبار أمثال الأستاذ / فؤاد دوارة ، والكتاب ألفريد فرج ، والعملاق / سعد الدين وهبة ، وأ. فوزية مهران، وأ. نبيل بدران، وأ. نعمان عاشور.



قهوة سادة والأرواح السبعة لسهر

نموذجًا

رواية " قهوة سادة "

للكاتب السيد حافظ

بقلم أ. فاديا سلوم

قهوة سادة والأرواح السبعة لسهر

"لا تحلمى يا روحى بالمستحيل قبل أن تستنفدى الممكن"

"ألبير كامى"

الرواية حدث أو مجموعة أحداث تقتطع من سيرة بعض الأشخاص إما من الواقع أو من مخيلة الكاتب ويجعلنا الكاتب نرافقها في مكان وزمان محددين ولكل كاتب أدواته ووسائله في تشكيل وإبداع هذا العمل.

ها أنا اليوم أقرأ الجزء الأول من السباعية المسراوية للكاتب الأستاذ السيد حافظ بعد أن قرأت أربعة أجزاء سابقة وهي: كابتشينو- كل من عليها خان – حتى يطمئن قلبي – ما أنا بكاتب ، وبذلك يكون قد تبقى لي الجزء الأخير إن شاء الله وأعانني .

لم أشرب القهوة حتى أصبحت في مهنة التدريس .. وجدت زميلاتي يحببن هذا المشروب الأسود الذي كنت أنفر من طعمه المر،أنا التي أدمن الحلويات بكافة أنواعها .كان أصدقاء النضال السري يهزأون مني يعتبرونني صغيرة على هكذا مشروب ، حتى انخرطت بالعمل المهني وتغيرت كل قناعاتي ، أصبح شرب القهوة طقس من طقوسنا اليومية عندما نخرج للاستراحة نكمل مرارة العمل وتعبه بطعم هذا المشروب العجيب ،لم أرغبها أبدا مع السكر أحببتها سادة .

وها أنا تائهة مع فنجان قهوتي السادة وأرواح سهر السبعة أقرأ وأنا أسأل نفسي ترى أي روح أنا في هذه الحياة ومن هم أرواحي السابقة.

في الروايات أنا خارج نطاق التغطية أنا مع أشخاص الرواية وهمومهم وانفعالاتهم .. كم مرة بكيت .. كم مرات رميت الرواية من يدي فزعا أو استياء لاكتشف أنني في واقعي المؤلم ..

لكن المؤسف أنني لم أفكر سابقا بدراسة أو قراءة أو نقد لكتاب ما لم تربكني أي رواية إلا الروايات العربية التي تحوي الظلم والبأس سابقا كنت أكتب ملخصا صغيرا جدا لكل كتاب أقرأه أو احتفظ بمقطع أثر في نفسي.

غالبا ما أعود للبداية لأعيد ترتيب ما فاتني في عجقة القراءة هنا بدأت من النهاية وعدت بالعكس في مقال للكاتب صلاح السروي يكتب :

((ينطلق أصحاب الاتجاه الاجتماعى فى فهمهم للرواية من رؤيتهم للعلاقة الوطيدة بين العمل الأدبى والواقع الاجتماعى- التاريخى. ومن ثم، فالرواية عندهم ليست كيانا أدبيا مطلقا، ولا يوجد لذاته، وإنما يوجد تلبية لعدة تحولات جوهرية تتم فى الواقع الاجتماعى.))

قهوة سادة قهوة زيادة : عنوان لافت كالعادة

القهوة المشروب المفضل لأكثر سكان الأرض وله طقوسه وخاصة في الصباح منهم من يشرب قهوته وهو في السرير،منهم من يشربها مع أفراد العائلة ومنهم من يشربها في العمل نحن في سوريا يرتبط فنجان القهوة مع الصباح وصوت فيروز.

هذا كان العنوان الرئيسي ،أما العناوين الفرعية التي جاءت في خمس وعشرون فصلا كانت كلها بنكهة صوفية أميل إلى الرومانسية.

أما الإهداء فكان بنكهة المرارة على الوطن المكلوم:

((إهداء

إلى عينيك الحزينتين..

إلى كفيك . يا بلادي المقهورة الجميلة

إلى حب أعيشه ، ولا يهجر أحلامى وتمرد بلا سبب ليكون حبا لا يعرف الانتهاء..
إلى ابني محمد الرائع" أبو كادى وفريهان"
المؤلف))

الشخصيات :

هي محور الوجود في كل رواية لولا الشخصيات في كل عمل أدبي لما وجد وهي المحرك الأساسي لأحداث الرواية والهدف الذي تبنى عليه الأحداث، يرى الناقد المجري لوكاتش أن أي وصف لا يشتمل على نظرة شخصيات العمل الروائى الى العالم لا يمكن أن يكون تاماً، وهو فى ذلك يطابق بين مفهوم النظرة إلى العالم، وبين مفهوم آخر استخدمه فى كتاب"دراسات فى الواقعية" أطلق عليه "السيماء الفكرية للشخصية" وكلما كانت هذه السيماء معقدة في شخصيات الرواية تعطي بعدا فلسفيا وعميقا وتجعل الأحداث أكثر تشويقا لأن الشخصيات الغير عادية تصدر انفعالات تدهش القارئ وخاصة إذا كانت جريئة .

شخصيات الرواية يرافقوننا بكافة نوازعهم في الأجزاء السبعة للعمل الكبيرلسباعية الكاتب الأستاذ السيد حافظ أول ما يطالعنا من الشخصيات سهر ولدت" سهر "في يوم ١٢ رجب ١٣٧٧ هـ - ١ فبراير ١٩٥٨م، يوم أن تم الاتفاق على الوحدة بين سوريا ومصر ، والتي أطلق عليها اسم ((وحدة ما يغلبها غلاب))

وأصبح الاسم الجديد لمصر وسوريا " الجمهورية العربية المتحدة" ، وأصبح" عبد الناصر" الزعيم لكلا البلدين ، وأطلق على" شكري القوتلي "اسم ((المواطن العربي الأول))ص١٥

هذه سهر عشيقة القمر

وتظهر لنا شهرزاد الشخصية الأسطورية التي أعطاها الكاتب حيزا كبيرا من الحرية والتي جعلتها الأنثى الأكثر تمييزا في مجتمع ذكوري جل اهتمامه السيطرة على الأنثى.

تعد شهرزاد الراوية في المسراوية هي التي تنقلنا بأسلوبها الشيق إلى قصور ألف ليلة وليلة لتروي لسهر قصة نفر والتي هي روحها السابعة وتنقلنا مع سهرعبر آلة الزمن إلى أحداث تاريخية قرأناها في كتب التاريخ لنسمعها قصة وكأنها قصة من قصص قبل النوم.

أما كاظم المدرس السيئ الحظ الذي أوقعه القدر في قرية سهر ليقع في حبها ثم توقعه بنت المختار وردة التي كانت تغار من سهر رغم جمالها في مشكلة كبيرة يضطرها بتهديد من والدها المختار أن يتزوجها .

في الفصل الثاني نرى فتحي رضوان الصحفي المصري وحبيب سهر في المستقبل هكذا يصفه الكاتب ولد" فتحى رضوان خليل "فى نفس اليوم الذى استشهد فيه فى فلسطين البطل أحمدعبد العزيز قائد قوات مصر فى حرب ١٩٤٨ .. ولد فى يوم الأحد ٢٣ أغسطس ١٩٤٨.

فتحي رضوان الشاب الثائر المتمرد على المجتمع وكل عاداته وتقاليده فتحي رضوان يحلم مثل كل الشباب العربي أن يهاجر إلى بلد أجنبي ويتكلم لغة أجنبية لكنه هاجر إلى بلاد النفط من أجل لقمة العيش ((صمت فترة.. نعم ضيعت عمرى بين شفاه النساء الجميلات.. وضيعت قلبى فى وطن حقير اسمه مصر والوطن العربى.. هزم الاثنان فى ست ساعات عام ١٩٦٧.. ولم أدرأن فى العشق ابتلاء، وأنه مكتوب على جبينى منذ الميلاد.. سيدتى كم الساعة معك الآن؟.. الزمن الحلو قادم

أم غائب عنى دون وداع؟؟ هل عقرب الساعة يتحرك للأمام أم للخلف؟..
أم اختفى من معصم قلوبنا وشعوبنا..))ص٦٥

هذا هو فتحي رضوان المغامر الثائر باختصار شديد.

أما الشخصيات التاريخية التي على لسانها فند لنا الكاتب الكثير من الأكاذيب التاريخية ينقلنا الراوي بوساطة شهرزاد إلى عالم أخناتون ونفرتيتي وقصص الحب والخيانة والغدر عبر العصور يسقط الأحداث القديمة على ما يحصل في عصرنا الحديث.

أحداث الرواية :

الحدث في الرواية وهو كل فعل وردة فعل يقوم به أشخاص الرواية مرتبة ترتيبا سببياً ،تدور حول موضوع عام، وتصور الشخصية وتكشف عن صراعها مع الشخصيات الأخرى وهي مجموعة الانفعالات التي تحدث في مكان وزمان ويكونها الراوي برؤيته الشخصية حيث يجعلها وسيلة يسقط من خلالها الرسالة التي يود ايصالها للقارئ هذه الرواية غير الكلاسيكية سلطت الضوء على معتقدات وعادات المجتمع وخاصة العادات البالية من زواج البنات التقليدي بغض النظر عن رغباتهم هذه الأحداث المتداخلة بين الحديث والقديم كسرت النمط الكلاسيكي من خلال التجليات لشخصيات الرواية في كافة انفعالاتهم العاطفية أو الدينية وحتى السياسية منها والأحداث والصراعات التي تفرض نفسها من خلال القضايا التي يعالجها الكاتب في مجمل العمل الروائي وهذا ما نسميه طريقة تضمين الأحداث.

لقد أصبحت الرواية المعاصرة بحاجة ماسة إلى تقنيات فنية متطورة تجعل منها أعمالا مميزة، لها مكانتها في عالم الكتابة، وهذا ما جعل

الروائيين يبحثون عن سبل تمكنهم من تفعيل أساليب سردية جديدة من خلال ابتكار لطرق جديدة في رسم الهيكل الكلي للأحداث التي تبنى عليها كل العلاقات بين الشخصيات في الرواية وبالتالي تنسج الحبكة على هذا المنوال.

وهذا يعتمد على الأسلوب ما الأسلوب الذي استخدمه الكاتب السيد حافظ في هذه المسرواية المتفردة في كل شيء ؟؟

الأسلوب هو فن استخدام الأنماط التعبيرية التي من خلالها يقوم الكاتب بسرد أحداثه لتصل إلى ذهن القارئ لقد وظف الكاتب وسائله الجديدة وأبدع في ايجاد نظريات جديدة وأساليب حديثة أدخلت على الرواية العربية نمطا وأسلوبا جديدا لم نعهده في الروايات العربية واستخدم أسلوب التواترالتكراري حيث يعيد لنا الحدث بنفس الألفاظ.

عندما تبدأ شهرزاد في رواية القصص ترتشف شهرزاد القهوة رشفة رشفتين، تفتح حقيبة يدها تخرج منديلا يشبه منديل أم كلثوم يشع بحكايات حب معطرة تنتشر فتغطي الخليج.. تمسح أطراف شفتيها.. تطويه مرة.. مرتين، ثم تحتفظ به في يدها اليسرى أو تخفيه بين النهدين.. تنظر يمينا شمالا .. أماما خلفا، ثم تهمس ورأسها للوراء، وهي تشرب مشروب المت ى رشفة رشفتين..

تميل إلى اليمين واليسار والأمام والخلف مرتين.. ضحكت وقالت محدثة سهر:

- كان يا ما كان في سالف العصر والأوان فى زمن إخناتون.. بنت اسمها نفر.. تلك أول روح خلقها لله لك يا سهر.. ص١٧٤

يكرر الكاتب نفس الجملة في كل مرة تبدأ شهرزاد بالحكاية ، وظف الكاتب وسائله الجديدة وأبدع في ايجاد نظريات حديثة أدخلها على الرواية العربية المعاصرة.

المكان والزمان في الرواية :

كل عمل روائي يحتاج إلى مكان تدور وتتحرك فيه الشخصيات يمكن أن يكون حقيقياً أو من خيال الكاتب المكان .

حظي الزمن باهتمام العديد من النقاد، نظرا لما يتركه من انطباعات لدى القارئ للمنتج الأدبي، كونه يقوم بوظيفة حيوية من خلال تحرك الشخصيات في مسار الحدث عبر انتقالاته بين الفترات الزمنية المتباعدة أو المتقاربة ، وبذلك يشكل حلقة تربط كل عنصر بما قبله يقول " بارت " في كتابه (مدخل إلى التحليل البنيوي للقصص) أن الزمنية « ما هي إلا طبقة بنيوية من طبقات الخطاب، وأن ما نسميه الزمن في (٢) القصة لا يوجد إلا وظيفيا في نظام دلالي « فمن خلال تلك الدلالة التي تمنحها الوظيفة، تظهر معالم الزمن الذي يأخذ مجراه ضمن النسق السردي ، وهنا سنحاول الوقوف عند ذلك بدراسة بعض النماذج منها قصة (يوم) فنقوم بتتبع الأحداث و انتظامها فيها بحسب التسلسل الزمني ويشدد أستاذ الأدب العربي في الجامعة الأردنية الناقد د. عماد الضمور على أهمية المكان كعنصر رئيسي في العمل السردي مركزا على الرواية، حيث يقول «يسهم المكان في إقامة دعائم الرواية والحفاظ على تماسك عناصرها اذ يتجاوز ارتباطه ببنية الرواية إلى تشكيل ابعادها الدلالية، وترسيخ هوية الشخوص ومرجعياتها الفكرية مما يجعله يتصل ايضا بعملية التلقي وكشف بنيات الرواية العميقة؛ لذلك فإن الروائيين يتبنون

استراتيجية عميقة في اختيار امكنتهم اذ يسهم الوعي المكاني للشخصية الروائية في إنتاج رواية متماسكة، فالمكان الواقعي يختلف عن المكان الفني إذ إن أهمية المكان الواقعي واضحة في مؤسس للشخوص ومرتبط بالزمان ومنبثق من مرجعية الكاتب الفكرية لكنه في النهاية يعجز عن تحقيق اللذة الجمالية التي تتأتى مع المكان الفني.

الأمكنة متنوعة في مسراوية الكاتب فهو ينقلنا من البيوت إلى المدرسة إلى المقهى وشاطئ البحر وألى قصر الفرعون الأعظم أخناتون عبر قفزات زمانية متقنة لم تؤثر أبدا على هذه المجرواية السردية وأيضا والأهم أنه ينقلنا بأسلوب مميز بين سوريا ومصر وليس أي مكان في سوريا إنه منطقة الجبل في محافظة السويداء وينقل لنا عاداتهم في الملبس والمشرب وفي أخر المسراوية يحجز لنا الكاتب تذاكر لنجد أنفسنا على كراسي المسرح لنشاهد مشهد مقتل أخناتون والخيانة العظمى التي نالت منه ، لم يكن الخوض في مجريات هذه المسراوية سهلاً أبداً الكاتب الأستاذ السيد حافظ يتقن ما يقدمه بخبرة الكاتب المتمرس وعين المسرحي الحاذق وأنا أكتب ما أقرأه بين السطور كقارئة فقط أحببت هذه السباعية بكامل أجزائها تستحق هذه الرواية أن نكتب عنها مجلدات ودراسات أشمل وأعمق من ذلك مع احترامي الشديد للكاتب الكبير وللدكتورة نجاة صادق الجشعمي على إتاحة لي هذه الفرصة القيمة.

أ. فاديا سلوم



"قهوة سادة" للسيد حافظ من سلطة العنوان إلى حكايا شهرزاد

د. جميلة رحمانى

المملكة المغربية

في البدء كانت الحكاية

ظل حبر الروائي السيد حافظ – الذي تنوع قطافه الإبداعي بين الرواية والمسرح- يخفق شغبا بانِيا لجوهر الجمال الناطق والحقيقي، سخِيا في طرح القضايا الساخنة؛ يطرقُ بابَ التمرد على الأوضاع الاجتماعية والسياسية والثقافية، مشعلا فتيل ضياء السرد. كاتب مشهود له بجرأته وشجاعته المعرفية والثقافية، يعلن موقفه دون مواربة أو خفاء وهو يحدثنا عن كوة ضوء، عبر احتراف هتك الحجب واستنطاق المساحات المسكوت عنها، وكشف المعاني الإنسانية الثانوية في أعماقها. يصيخ السمع لنبضات نصوصه بغية الوصول إلى عمق بوح إنساني قائم على تنوع كوني وشمولي، ممتد إلى تطلعات الإنسانية الرحبة التواقة إلى باحة سلم وقت انبلاج فجر الحرية.

***

يسألونك عن "قهوة سادة" قل هي:

رواية مصنوعة بذكاء، تحمل بين طياتها حبكة مثيرة ومشوقة. أصر السيد حافظ بإصدارها ضخ دماء جديدة في صلب الكتابة السردية، محاولا تشييد جسور إبداع رجل في جعبته ما يبشر بمستقبل سردي به عمق، وروح، وحياة. فعندما تكون الحروف تائهة على الشفاه، فيعقد معها الكلام؛ ينبثق السرد ويتغلغل الدفْء إلى الأعماق؛ ليتسرب من ثقوب الأيام مزيج من عطر الحكايا.

رواية وأنت تقرأها تطالعك باقات نرجسية فواحة من خلجات النفس والروح والذاكرة؛ ونبض الوجدان، يعطر أريجها دنيا الحب الصوفي.

حاملة في ثناياها الشعور الوطني المدثر برداء المعاناة، والمزمل بوشاح الاغتراب، المستعر بلظى نار الألم. حتى أضحت صرخة في وجه الظلم والفقد، حيث حاول الروائي السيد حافظ رسم بدقة معاناة الشعب المصري والإنسان العربي ليكتسب حيويته، فيساعد نهر السرد على شق مجراه. مخترقا التراث اختراقا معرفيا، ومستنطقا إياه استنطاقا فنيا. متكئا في ذلك على التراث والتاريخ والأسطورة. وهو ما أشار إليه في روايته بقوله: "أحببت سهر الجغرافيا والتاريخ.. ذاكرة التاريخ تغذيها بالوهج والخيال"[١]. استلهم التاريخ ليشيد فوقه معمارا من خياله الوثاب، فتمتد معها مخيلته لصوغ التاريخ صياغة جديدة لتمنحه قراءة جديدة بل حياة جديدة. ومنح هذا التضافر بينهما – أي بين الخيال والتاريخ- الرواية حيوية ونبضا وحرارة. كما كان بارعا في توظيفه أسطورة شهرزاد اقتباسا وتضمينا؛ دون أن يُخلّ ذلك بإيقاع سرده ولا بنبض كلماته أو بصمات تعبيره، وهي ميزة المتمرسين بالكتابة الراسخين في الإبداع. وهو عنوان ثراء مخزون الأدبي الكاتب وغناه، الذي تمثّـله واستوْعبه، ثم أجراه متدفقا منسابا عصيا على التقليد.

***

هل أتاك حديث السيد حافظ المسرحى والروائى

الذي ظل لعقود طويلة يبحث عن دائرة ضوء يخرجه من ظلمة العتمة الذي دثرته لفترة طويلة. ليتحوّل السرد على لسانه، وتحت قلمه، إلى أداة بوح يلملم جراحاته فيصوغها في قالب حكائي يروي عبره عنف

---

[١] - قهوة سادة، السيد حافظ، ص ٢٦.

المتناقضات داخل مجتمعه؛ فأضحى والسرد متلازمين كالظل منذ بدء الحكاية إلى سدرةِ منتهاها. يقول السيد حافظ:" اكتشفت أن حب الوطن والكتابة عناء ألقيت أشواقي على أحرف اسمك يا وطني.. فتحولت على الورق إلى ثلاث زهرات ذابلة"(١). فاقتراف فعل الكتابة هو فعل إثبات الذات والوجود، وتفجير منابع الإبداع ليجري نهرا من الأحاسيس والانفعالات حتى تروي ظمأ وجودها. وتعبير لصيق بالحياة، ورفض معلن للتبدد والإقصاء. يقول السيد حافظ: "وأبعث في الكلمات ورد الحياة"(٢).

فلا مناص من أن الكتابة لم تعد عنده سردا للتسلية بل هي اختراق لعقل الإنسان، وسحبه من غيابات جب الواقع، ودفعه للاندماج بالنص، لأن: "الروائي كالشاعر يعذبه وعي حاد بالواقع، وإدراك مرير لتناقضاته المخيفة، لذلك ليست الكتابة بالنسبة له مجرد اشتراك مع اللغة أو مغامرة بريئة مع شطحاتها الصافية، بل كانت صورة لوعيه المعذب، وتجسيد لمواقفه الفاعلة في الحياة، مراجعة ضغوطها"(٣). إنها صرخة موجعة ومدوية نكاد نسمعها على جدار الرواية؛ للكشف عما يمور في النفس الانسانية من معاناة، وألم، وقلق، وخوف. ما يؤكده قوله: "أحب البحث عن المجانين في الكتابة لأشبع عطشي للمستحيل"(٤). فعلى طاولة الزمن الجريح ثمة حكايات تستنشق عبق الأمل؛ وهي تبحث عن فسحة من التفاؤل عبر نافذة الحلم المؤجل، يقول السارد:

---

(١) - المرجع نفسه، ص ٣٥.
(٢) - المرجع نفسه، ص ٤٦.
(٣) - الشعر والتلقي، علي جعفر العلاق، دار الشروق، الأردن، الطبعة الأولى، ١٩٩٧، ص: ١٣٢.
(٤) - قهوة سادة، السيد حافظ، ص ٩١.

"كلما حاصرني حب الوطن بنيرانه.. وأسهم حقده.. وحاول قتلي.. هربت منه تحت جلد النساء حتى أضمد جروحي. قررت أن أكتب مذكرات شاب في العشرين رواية.. ولم لا"(١).

يخرج الروائي كلماته ليبعثرها فوق بياض صفحات حياته، وهو يداعب حرف السرد الذي جمع الكل حوله كأم رؤوم توزع حنانها على كل من سوّل له قلمه أن يدخل غمارها، لتأخذه في حضنها الدافئ كأنها تريد أن تعيده طفولته الأولى وهو متأبط أحلامه وآماله. وما إن صار على بعد حضن دفعته إلى تقمص شخصيات مختلفة، ومعايشة أحداث متعددة في لحظة واحدة. فيلقى ما بيمينه ليعبر عن درامية اللحظة وقساوتها؛ فلا "بديل للكتابة إلا الكتابة"(٢). ففي حضرتها يصمت اللسان؛ ويطلق للقلم العنان ليعبر عن خفايا النفس ومكنوناتها، فتهب نسمات الكتابة محملة برائحة حروف رقيقة اقتلعت من أرض الواقع. يقول:

"وجدتني بلا حيلة أمام نور الكلمة وأمام ورقة بيضاء"(٣).

فعندما يختلط حبر السيد حافظ السردي بمشاعره وإحساساته، تنهمر شلالات من البوح والرغبات المتصاعدة في ترسيخ الحضور. ووسيلة لتحرير أحاسيسه؛ والتعبير عن أحزانه وأفراحه، وعن عاطفته المتأججة وعنفوانه المعطّر بمعاني الحب. يقول السارد:

"لمن أكتب؟ لمن؟ أكتب لك أنت.. يا من تراني بقلب الأولياء والشعراء والزاهدين والمترفين بنور العشق وللعشق يقين"(٤).

---

(١) - المرجع نفسه، ص ٤٦.

(٢) - المرجع نفسه، ص ٣٨٣.

(٣) - المرجع نفسه، ص ١٠٩.

(٤) - المرجع نفسه، ص ٢١١.

فالكتابة عنده بمثابة الرئة التي يتنفس بها، والهواء الذي يتنسم منه. فهي التي ستعوضه بعض ما ضاع منه قهرا؛ ولم يستطع حينها إداركه، يقول:

"يا ناهد الكتابة تعوض لي بعض أيام من عمري الذي سرقه الوطن مني"[١].

***

جمالية العتبات وشعرية العنوان

شكلت العتبات النصية حقلا معرفيا قائما بذاته باعتباره مكنونا جوهريا؛ فهي: "ذات سياقات توظيفية، تاريخية ونصية، ووظائف تأليفية تختزل قسما من منطق الكتابة"[٢]. بفضلها يصبح من السهل على القارئ الولوج إلى عوالم النصوص وفهم معانيها، وأهم هذه العتبات "العنوان" فبواسطته تنكشف المعاني؛ وتتوضح الأفكار؛ ويتلاشى كل غموض. وهو بمثابة المفتاح الإجرائي المساعد على اقتحام أغوار النص؛ وفتح مغاليقه ومجاهيله؛ واستقراء جل أفكاره الخفية، ومدى "ارتباط بنيته ومحدداته الذاتية بشروط السياق الثقافي والاجتماعي الذي أنتجه"[٣].

"قهوة سادة" عنوان وَسَمَ به الروائي السيد حافظ روايته، وهو عبارة عن بنية مختزلة، شديدة الاقتصاد لغويا، حيث يلعب هذا الإيجاز في بنية العنوان اللغوية دوره في اختزاله للنص مبنى ومعنى، فإن ما تم تكثيفه

(١) - قهوة سادة، السيد حافظ، ص ٢٣٦.

(٢) - أرض الأبدية قراءات في تجربة الشاعر سيف الرحبي، مفيد نجم، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧، منشورات الجمل، ص ١٥

(٣) - عتبات النص بحث في التراث العربي والخطاب النقدي المعاصر، يوسف الإدريسي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨، الناشر مقاربات، ص ٣٢.

وتركيزه سيتم توسيعه وتفصيله في النص الأكبر. وبذلك سيفتح العنوان أفقا توقعيا لدى المتلقي فتتكون لديه فرضيات، إذ لن يدخل فضاء القراءة صفحة بيضاء، وإنما لديه خبرة قبلا. فيصير ثريا ذات إشراق دائم في مساحات المتن. لأن اختيار السيد حافظ لعنوان روايته لم يكن اعتباطيا، بل اعتمده على رؤية فكرية ومرجعية.

"قهوة سادة" عنوان عبارة عن جملة اسمية دالة على ثبات الانتعاش الذي يصاحب شرب القهوة وديمومته. جملة اسمية ذات طابع وصفي إنشائي؛ يغيب عنها الفعل كبنية دالة على شرط الزمان. ومن ثم الإمساك بجوهر المدلول؛ دون العَرَضِ الذي يشي به الفعل. عنوان يلبس دثار القوة، لأن الروائي بحار يجيد اقتناص المعاني وامتلاك الخطاب. بحيث ستصبح "قهوة سادة" محور الكلام السردي؛ وقطب الرحّى في عملية الإبداع اللفظي. وأمارة قوية وعلامة ثابتة على نهل السيد حافظ من نكهتها؛ لينسج رواية حلوة المذاق عصية على النسيان.

فلا ريب من أن القهوة قد احتلت مكانة بارزة في وجدان البشرية كلها؛ ومكانة روحية مهمة في الحياة الاجتماعية والثقافية للإنسان العربي، وهي شراب شعبي لكل فئات المجتمع؛ وشراب أولياء الله الصالحين حيث اقترنت بجلساتهم وحلقات الذكر، وهي أول ما يستفتح الإنسان به تباشير يوم جديد من الشراب. يقول السارد: "الصباح بدون القهوة خطر"[١]. كما كانت جلسات الحكي لا تحلو إلا في حضرة القهوة:

[١] - قهوة سادة، السيد حافظ، ص ٢٦٦.

"قالت شهرزاد وهي تشرب آخر رشفة من فنجان القهوة وتطفىء ركوة النار: الآن اذهبي إلى بيتك يا سهر تأخر الوقت اذهبي قبل الغروب.
قالت سهر: ونفر. قالت شهرزاد: غدا سنكمل الحكاية يا سهر."(١)
فالقهوة والحكي متلازمان لا ينفصلان عن بعضهما؛ لأن الانتشاء بمذاق القهوة يجعل الحكايا تنساب ماءً زلالا، فلا يمل سامعها بل يقول هل من مزيد. وقد ينتشي شاربها حدَّ السكر ولعا بمذاقها المميز يقول: "القهوة قبلات للروح كي تنهض"(٢). مشروب ينبه العقل ويوقظ الروح، إنها ثنائية العلاقة بين القهوة والوجدان، بمثابة الحبل السري الذي يربط القهوة بالعشق، حتى أضحى الحديث عن أحدهما هو استدعاء للآخر. يقول "اشتاق لشرب قهوة سادة معك وارتشاف قبلة مع كل رشفة"(٣). فثمة علاقة ذاتية ذات ارتباط خاص ينبع من حنين نوستالجي للعودة لسحر جنة العشق ودهشتها؛ حاضرة في وعي شاربها وفي وجدانه، وتوازٍ بين اللهفة لشرب قهوة وبين الارتماء في حضن أنثى يقول السارد:
"آه في البرد أحتاج إلى قهوة سادة.. وإلى حضن أنثى وإلى سيجارة وإلى وردة وإلى لحم طري يغطيني يدفئني ينسيني أنثى ليس لها مكان إلا في جنة عشقي ولا يعرف قدرها إلا ملك على قلوب النساء مثلي أحتاج أنثاي في البرد والقهوة السادة قبل وبعد المضاجعة"(٤).

(١) - المرجع نفسه، ٢٥٦.
(٢) - المرجع نفسه، ص ٢٦٦.
(٣) المرجع نفسه، ص ٩٩.
(٤) - المرجع نفسه، ص ١٠٦.

تأكيد كثافة الحالة الشعورية الطاغية؛ والنزوع لاختراق حدود المسافة بين شرب القهوة واللذة بحثا عما يبقي هذه العلاقة على قيد الاستمرارية.

"قهوة سادة" عنوان مفتوح غير مقيد؛ كما السرد لولبي أبوابه مشرعة، يبرز عناد السيد حافظ لاجتراح مغامرة حكايا أخرى. يقول في نهاية الرواية على لسان شهرزاد:

"هي بنت جميلة عاشت في عهد النبي موسى؟ ما اسمها وحكايتها؟ قالت: اسمها نور غدا نبدأ الحكاية"(١).

***

ثلاثية الفقد والجرح والاغتراب

يُعَدُّ الروائي السيد حافظ من هؤلاء المبدعين، الذين فجروا منابع الإبداع ليجري نهرا من الأحاسيس والانفعالات حتى تروي ظمأ وجودها. روائي لا حول له سوى سحر حرفه، ولا قوة له سوى عبق كلماتها. طوَّع حرفه ليخرق جدار الصمت كمبدع يحس بالواجب المفروض عليه. يلامس هموم الواقع قصد تغيير كل ما من شأنه أن يسيء إلى إنسانيته، وكإنسان يحترم إنسانية غيره لم يتوان في تعرية وضع لا يتماشى وحقوق الإنسان(٢)، وفضح القبح وإحداث هزات داخلية ترج الذوات المتلقية. يسجل رؤيته حيال مجتمعه عبر بوابة السرد؛ لنرصد عبرها علاقة جدلية بين الإبداع وبين المجتمع، تلك العلاقة التي يبدو للوهلة

---

(١) - قهوة سادة ص ٣٩٣.

(٢) - جرت أحداث رواية "قهوة سادة" على عهد الرئيس الراحل جمال عبد الناصر.

الأولى أن المجتمع مفعول به موصوف؛ لكن الحقيقة أنه هو الفاعل لأنه هو الذي كون الكاتب وجعله يقتات منه(١).

"قهوة سادة" عمل سردي صادر عن وعي حقيقي؛ ونَفَس جديد غير معهود في الكتابة يتغلغل في أعماق الشعب مسجلا نبض الحياة اليومية، راسِما بكل أمانة معاناة المواطن المصري في حقبة تاريخية كانت فيه كل الدول العربية على صفيح من نار:

"أوقفوا ذبح الإنسان وتشريد الأطفال والنساء.. اعلنوا بقوتكم بأنفسكم: إننا لا نرغب في إنفاق الأموال على السلاح.. كفانا سلاح.. أنفقوا الأموال على الفقراء.. على العلم.. على النهوض بالإنسان في أحراش أفريقيا.. في صحراء آسيا.. أنفقوا الأموال على الأراضي غير القابلة للزراعة.. إن العالم يحتاج إلى الكثير"(٢).

يحاول أن يلامس حالة البؤس التي يعيشها المواطن في حقبة تاريخية، ولا سيما في فترة الحرب الكبرى التي طحنت الشعب المصري:

"وجدتني حلما يمسح مؤخرة الوطن الذي يضاجعه الأثرياء من عسكر يوليو الذين سرقوا مجوهرات الملك فاروق وباشوات مصر وأصبحوا باشوات هذا الزمان.. وجدتني بسمة على شفاه أطفال لا تعرف الرياء.. وجدتني أعشق كل الأنبياء وأنه من الغباء ألا نشعر أن الإنسان خليفة الله على أرضه وتحت سمائه.. إذا مر قلبي على بابكم أخبروني فقد ذهب يبحث عن وطن ليتدفأ به في هذا الشتاء"(٣).

---

(١) ـ سوسيولوجيا الأدب، روبير إسكاربيت، ترجمة آمال عرموني، دار عويدات، بيروت، ١٩٩٩، ص٢١.

(٢) ـ قهوة سادة، السيد حافظ، ص ٦٣.

(٣) ـ المرجع نفسه، ص ٣٥.

فنجده يسخر قلمه لفضح حالة الاغتراب الحادة؛ ومدى قساوة وقعها حين يعانيها المرء وهو في وطنه، وبين ذويه، إنها حالة نفسية يشعر فيها الإنسان بألم أشد وأصعب. ونجد مثل هذا الاحتدام في قول صاخب للسارد وهو يصف الحكومات العربية بأنها:" نجحت في جعل المواطن العربي يكره وطنه وأرضه ويبحث عن وطن آخر.. في أوربا أو أمريكا"(١). رسم بريشة دقيقة معاناة الشعب المصري، كما رسم تيه ذات تلوك قسوة الخذلان، وصور البيئة المصرية تصويرا دقيقا، حيث التقط أدق جزئياتها ترتيبا عضويا لتصبح الشخصية حية في الرواية. "نحن التلاميذ لم نكن نحمل فقط الكتب في حقائبنا التي كنا نحملها على أكتافنا.. بل نحمل معها هموم عائلاتنا وأحلامنا ومشاكل بيوتنا"(٢). وهذا لم يمنعه محاولة العثور على بعضه المتلاشي ليرمم كلا روحيا، والاستئناس بحلم يضج بالحياة، منسوج بدفء واستقرار.

جاء سرده طافحا بمرارة الغربة معبرا عنها بأصدق الأحاسيس، إنها غربة دائمة تهيمن بظلالها على هذا النص السردي، يقول:

"منذ نشأة القاهرة في العهد الفاطمي وهي متسخة كما قال الجبرتي وحتى الآن.. إحنا شعب غلبان.. كيف نحارب ونحن لا نستطيع تنظيف شوارعنا من الزبالة.. ولا حتى صناعة كبريت صالح للتصدير"(٣) شفاف في فضح القبيح والدنيء، "العربي لا يفلح إلا في مضاجعة النساء"(٤). صارم في التنقيب عن عيون المرارة والمعاناة الإنسانية. يقول السارد:

---

(١) ـ المرجع نفسه، ص ٢٥.
(٢) ـ المرجع نفسه، ص ٧١.
(٣) ـ المرجع نفسه، ص ٤٥.
(٤) ـ المرجع نفسه، ص ٤٥.

"قتل وحرق هتلر آلاف اليهود في المحرقة.. قتل الأمريكان آلاف الآلاف في هيروشيما باليابان بقنبلة ذرية.. قتل الفدائيون الفلسطينيون مئات اليهود.. قتل اليهود مئات وآلاف الفلسطينيين"(١).

نتلمظ سفرا نُسج في غيابات الوجدان، ونقتفي أثر لواعج الكيان المُكتوية. فنتعثر خلف تنهيدات تعج انكسارا وحسرة، وشوقا دفينا مغلفا بنوبات العتاب، تذرف الروح هسيسا صاخبا يلف نذوبا لا تقبل الإنمحاء.

يقول: "العالم والبشر حقراء يشربون دم بعضهم صبحا ومساء"(٢).

فبالرغم من أن القهر قد نال، وبالرغم من أن النغمة الرئيسة هي الحزن والفقد، فإن الشعور بالاغتراب والضياع يمثل بعدا آخر قد يمتد إلى الصراع القائم بين الذات والوجود لأن: "محور الشعور بالغربة والضياع هو في الحقيقة؛ تفريع عن المحور الأساسي العام؛ محور الذات والوجود؛ أو هما يتوازيان على مستويين مختلفين"(٣).

فحينما تصطدم الذات بالوجود؛ فإنها تعجز عن تحقيق تطلعاتها وأحلامها لأنها عندئذ تتحرك وتسير وحدها، وتظل محبوسة في إطارها الضيق مادامت تؤمن بمنطقها ونظرتها الخاصة في تقييم الوجود، وهذا ما نلمسه في كلامه:

" الفقراء ليسوا أبناء الله على الأرض.. بل أبناء الشيطان.. الفقر الذي وأد أحلامهم فصاروا أعداء بعضهم بلا سبب.. يكرهون بعضهم بلا سبب.. الفقراء أبناء الشيطان في كثير من الأحيان لأن الرجال الفقراء

---

(١) ـ قهوة سادة، السيد حافظ، ص ٤٦.

(٢) ـ المرجع نفسه، ص ٤٦.

(٣) ـ الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، عز الدين إسماعيل، الطبعة الثالثة، دار الفكر العربي، ص ٣٥٦/٣٥٧.

من كثرة التعب والهزال والمرض لا يضاجعون النساء.. فيضاجعهن الشيطان نيابة عنهم.. فيخرج أولاد الفقراء مجرمين عشوائيين.. سفهاء.. لا يعرفون الله إلا كلمة لا فعل.. أولاد الفقراء أبناء الشيطان إلا من رحم ربي واصطفى.. أما أولاد الأغنياء معظمهم أغبياء بسبب أكل اللحوم بكثرة.. إلا من وهب ربي وأعطى.. الفقر هو الذي قال للرب لا"[1].

جعل الكاتب من إبداعه مرآة للنفس الضائعة والممزقة في متاهات الاغتراب؛ التي تلقي بظلاله الكئيبة على ذات السارد، وتشده إلى قاع الرتابة والإحساس بالضياع مثقلة بالآلام، مضمخة بالحزن على ما مضى؛ والتحسر على ما بات سائدا يقول: "أصبحت الحياة مظاهر.. الملابس والأناقة هما عنوان الإنسان أناقة لا ثقافة.. لا شيء يهم بعد ذلك"[2]. حس الضياع والفقد والاغتراب دفعه أن يشعر بفقد الإنسان لقيمة إنسانيته؛ وعدم جدارته؛ أو قدرته على التكيف حتى صرخ بضياع اليقين.

والناظر في سرده يلفت نظره إحساس مريب بوقع الفقر على نفس المواطن، وشكوى صارخة من هوان منزلته الاجتماعية؛ وعدم تقدير المجتمع له، وعجزه عن الأخذ بنصيبه من الحياة. جاء على لسان السارد:

---

(١) - قهوة سادة، السيد حافظ، ص ٤٩.

(٢) - قهوة سادة، السيد حافظ، ص ٥٢.

"أنا ممن يصنعون ضوضاء أثناء صعودهم وهبوطهم.. دائما أريد أن أشعر أنني من الأحياء بضوضاء الحذاء. أو أثبت لنفسي أني شيء على الأرض"[1].

فبين رفاث من أمنيات سحيقة تنقب الذات عن خلاص، عن فجوة صبح تسكب تباشير شمس وفية تداري اختناقا وثقلا قاسيين؛ فأخذ من الحياة فوضى ليخرجها نظاما، والاضطراب ليصوغه ترتيبا، والانطماس ليجلوه نورا.

وكمثقف واع بما يجري حوله؛ واع بما يحاك ضد الإنسانية؛ سواء عاش في ظل الاستعمار أو في ظل الأنظمة القمعية المصادرة لحرية الإنسان؛ يعاني كل أنواع الضياع، إذ أصبح رقما من أرقام المدينة فقد فيها إنسانيته وشل فيها تفكيره، وأصبح عاجزا عن التواصل مع المجتمع ومع ذاته المعطلة. فحين يفقد الإنسان الرضا بما يريد؛ تجف الحياة تماما وتغشاه مسحة من الكآبة لأن الرضا يجلب السرور وفقد الرضا يفجر البكاء من العيون يقول متذمرا:

"أنا أتلاشى.. أشعر بأني غير موجود.. ربما أكون ذبت في الأشعة ورحت إلى السماء لكي أركع تحت أقدام الإله.. أخبره عن رغبتي في أن أكون شيئا بدلا من كوني لا شيء"[2].

تحول كل شيء إلى مرارة مخزنة حطمت الإحساس بالرضا والقبول؛ وغدت الأيام سجنا أبديا للإنسان، والأرض وجودا ملعونا، القادم إليها مفقود والذي يغادرها مفقود. فهي سجن مفتوح كل شيء فيها غامض،

---

(1) - المرجع نفسه، ص ٤٧.
(2) - المرجع نفسه، ص ٦٠.

وسديمي يمشي فيها الإنسان كالأعمى لا يفرق بين الليل والنهار، ولا بين القبح والجمال. يقول:

"الطغيان لا يعرف جنسية أو هوية.. الطغيان لا يعرف عنوانا.. أنا أكره الظلم والطغيان"[١].

لايزال ذاك الإنسان الطامع في وقت انبلاج فجر الأمل؛ ينام في الحصباء ويلتحف الألم، يعيش في معمعة الواقع باختياره. وهو إحساس تام بالضياع تتساوى فيه الإرادة الدافعة؛ والإرادة المعطلة. فلا شيء يتغير؛ ولا أمل في التغيير. هو ذا اغتراب الإنسان الذي ضاق من قسر الواقع بعد انقلاب حاله لدرجة أصبح من الصعب – إن لم يكن من المستحيل- معها بوجود شيء يطلق عليه "إنسان". يقول في هذا الصدد:

"يا أيها الإنسان.. ما أجمل هذه الكلمة عندما يصبح الإنسان إنسانا أو يوجد إنسان بالفعل في الوجود"[٢]. صارت الأيام للإنسان سجنا أحكم إغلاق أبوابه في ظل الهزيمة والضياع، حتى عندما يفيق على صباح يوم جديد فإنه يعيش غربة عن نفسه مادام قد فَقَدَ القدرة على امتلاك ذاته وتحقيق إنسانيته فيها، يقول:

"هبطت إلى أمريكا إلى الدمعة الحزينة في عينها إلى تمثال الحرية الذي يشكو لي مهزلة التقدم المادي"[٣].

حتى أضحت المدنية بصراعاتها المختلفة وضوضائها، بوتقة تذوب فيها إنسانية الإنسان، ويصبح قطعة من مكوناتها لا يملك القدرة على فرض

---

(١) - المرجع نفسه، ص ٧٧.
(٢) - قهوة سادة، السيد حافظ ص ٦٠.
(٣) - المرجع نفسه، ص ٦١.

وجوده وتحقيق ذاته؛ فيمضي في الأرض منقسما على نفس، وحيدا غريبا متلفعا بأحزانه.

وبمكر سردي تشويقي مقصود، من شأنه أن يجذب المتلقي المفترض نحو مشاركة السارد في حلمه، الذي يرجوه أن يتحقق، يقول:

"نحن صعاليك الشوارع نملك الحلم والأحلام في بلدنا تداس بالأقدام"[١].

ساعيا إلى التخلص من الاغتراب الذي يستبطنه، والتمرد على العصف النفسي الحاد الذي ينتابه، ويهز مشاعره وأحاسيسه، لأنه لا يستطيع أن يعزل نفسه عما يجري في عالمه فهو يتفاعل مع هذا العالم، ويتأثر به، ومن الممكن أن يؤثر فيه. يقول بإصرار الغيور على حال أمته:

"اسمع يا راجل إنت انت ليه ما بتبطلش تتكلم عن مصر والعرب والتغيير.. إزاي بس أغير نفسي قوليلي.. نفسي أكون حمارا وغبيا زي كثير من الناس مش عارف.. يبدو أن نعمة الفهم والثقافة نقمة وعذاب"[٢].

فتجده يعتصر من السحاب رذاذا يروي ظمأ أفئدة مفعمة بعشق الجمال، هذا الفيض من العطاء ودفء المشاعر؛ لا يمكن أن ينبع إلا من روائي مرهف الإحساس؛ إنسان عشق قلما يموت في الكلمات ويذوب فيها. فكتب روايته "قهوة سادة" بحرقة وقلق، دون اغتصاب لحظة الكتابة بردة فعل رقيب وحسيب، فجاء عطاؤه متحررا، أبيض ناصعا لا يخنقه سواد الأغلال. فهو مبدع بتركيبة معجونة بماء الجرأة في تعرية الخلل في المجتمع، وفي القيم، وفي الذات، وفي الإنسان.

(١) - المرجع نفسه، ص ١٠٨.
(٢) - المرجع نفسه، ص ٧٩.

الحكى فعل تحرري وانعتاق الذات من سجن الألم

استرفد السيد حافظ من الإرث الأسطوري؛ عبر استغلال الأصوات المندثرة في تعرجات شفهية عريقة في القدم؛ عاملا على تشكيل الواقع الأسطوري وفق رؤية جمالية، تكشف عن تناقضات الحياة لا تروي أحداثا جرت في الماضي وانتهت، وإنما تصور صراعا أبديا تعرفه الحياة الإنسانية، وهو صراع موجود على الدوام ومظهر من المظاهر الحياتية التي قد تصيب الإنسان في أي وقت وحين.

إنها "شهرزاد" المرأة التي دخلت معبد الحكاية، لتدفع القتل عنها وعن بنات جنسها. المرأة الإنسان التي زرعت وردا لاقتلاع شوك الحقد من حديقة الإنسانية، شهرزاد التي كانت ولا تزال قائمة، حكيها مستمر. لأنها لم تقل كل شيء، فحالة الصراع بين الخير والشر؛ الصراع الدائر بين السلطة والشعب في الماضي والحاضر لا يزال قائما لأجل البقاء والحياة.

"شهرزاد" الأسطورة التي ومنذ القديم نالت حيزا كبيرا من اهتمام كل من سوّلت له نفسه اختراق قلاع لياليها، فكانت تفكيره الذي يفكر به، ويده التي يبطش بها، وعينه التي يرى بها العالم، فلقد كانت سراجه المنير الذي يقتفي أثره. فكما شغلت ابتسامة الموناليزا الغامضة الكتّاب والأدباء والرّسامين والفلاسفة، وأسالت حبر العديد، ظلّت شهرزاد دون ابتسامة، لكن بدهائها وذكائها سلبت العقول، فكانت وستظل اللّغز الذي حيّر وسيحير الأدباء؛ فهي العنقاء التي تبعث مع مداد كل مبدع فنان.

فلا مناص وشهرزاد بهذه القوة أن يستلهم الروائي السيد حافظ هذه الأسطورة الشهرزادية، فيعيشها كإنسان وناقد لأوضاع اجتماعية

وسياسية واقتصادية عاشتها وتعيشها مصر، وكل البلدان العربية بله الإنسانية جمعاء. فشهرزاد الأسطورة مثال للمرأة الذكية والفدائية التي ضحت بنفسها لأجل الحفاظ على بنات جنسها، ومن ثم الحفاظ على الحياة والاستمرارية، هو بعث من جديد يقول: "آه يا سهر لو تعلمين كم أحبك"(١). فعبر سلاح الحكي تراوغ ملكاً مدفوعاً بهوس الانتقام وتغويه بسلطة المعرفة. وبالحكاية المروية بسحر تقهر الموت؛ وتبعد أطيافه. إذ لم تكن تحكي وتتكلم، وتؤلف فحسب، لكنها كانت أيضا تواجه الرجل، ومعه تواجه الموت من جهة، يقول الدكتورعبد الله الغذّ امي:

"تدافع عن قيمتها الأخلاقية والمعنوية من جهة أخرى، كانت تتكلم والرجل ينصت، فإذا سكتت تعلق شهريار بصمتها يوما كاملا إلى أن تتكلم مرة أخرى لتمارس عليه سلطة اللغة وسلطان النص"(٢).

لتمثل هذا الانتصار العجيب للبريء والضعيف؛ الذي ينجح في تغيير مصيره بمداهنة جلاّده؛ محولاً الحقد إلى حبّ.

نافلة القول.. لم يحاول استدعاء شخصية شهرزاد التي حظيت بامتداد عبر الزمن للإمتاع، إنما بغرض تشكيل خيوط متينة في النسيج العام للبناء الروائي، وبلورة طرائق مستحدثة تضمّ خواص الأسطورة العجائبية لتؤلّف نسيجا سرديا تلتقي في رحمه أساليب وبنيات تعكس علامات التجريب بمختلف أنساقها، ومن ثم خلق نص سردي جديد. باعتبارها رؤية "مغايرة للأشياء.. ولذلك تكون الكتابة المتشبّعة بروح الفانتاستيك مغامرةً واستجلاءً للبقايا والهوامش والمقصي من كينونتنا

---

(١) ـ قهوة سادة، السيد حافظ، ص ١٦٨.

(٢) ـ المرأة واللغة، عبد الله الغذامي، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٦، المركز الثقافي العربي، ص ٥٧.

المحاصرة بضغط القوانين والمحرّمات وشتى أنواع الرقابة"[1]. ولإماطة ستر طالما حجب شمس الحقيقة عن الأبصار، فهي ببنائها السردي ومضمونها الخرافي تعتبر هروبا من الأوضاع الواقعية المتردية، حدَّ يمكننا القول إن الكاتب يصنع أسطورته الخاصة.

هذه صورتها وذاك شأن الحكي

في النهار تولد الحكاية، وفي أول الليل نحكيها، وفي آخره ننام على وقعها. كان شهريار يسهر كل ليلة مستوحشا فصار سجين حكايا شهرزاد. هذه المرأة التي أوتيت "علم" الحكايا فتسللت لتروي للعالم دور امرأة ليست ككل النساء، أسطورة خلقتها الأزمات والمحن وتواتر الألم. "شهرزاد" أنموذج صقلته الصعاب فكانت أسوة في التحدي، والصبر، والذكاء، يقول السارد:

"تلك المرأة الشامخة، أسطورة كل العصور. "قالوا عنها عرافة الجن يمدها عشيقها الجني بالسر.. وأسرار كل البشر.. شهرزاد تحب سهر لأنها تذكرها بشبابها تذكرها بالجمال الذي فتن العقول في شجن.. وألهب خيال الرجال"[2].

فهي لم تركن إلى سيل الدموع، وتخفي وجهها وراء غلالة الحزن وتتوقف عن الحياة. بل لملمت شمل حزنها، وابتدأت غدها بفكر مسؤول يعي حجم ما بانتظارها، وما يحمله من تحديات. متأهبة لتكون في عون كل من لجأ إليها وطلب مشورتها؛ فلا تبخل عليه؛ ولو بالقليل. يقول:

---

(١) مدخل إلى الأدب العجائبي، تودوروف، ترجمة الصديق بوعلام، الطبعة الأولى، ١٩٩٣، ص: ٥/٤.

(٢) ـ قهوة سادة، السيد حافظ، ص ١٨.

"ذهبت أمها بها إلى "شهرزاد" وقالت لها: البنت صارت أنثى. زغردت "شهرزاد" العجوز.. نثرت عليها بخورا به حبهان وعين الشيطان حرقتها في النار"[1].

راهنت شهرزاد/ الحكيمة على أن إشاعة الفرح يأتي دوما بالغد المضيء؛ الذي يرتب الأحزان هنا وهناك، حتى لا يدع المستقبل يتوقف عبر زمن مظلم حاسرَ الرأس، مكلومَ الفؤاد. يقول السارد:

"تؤمن بكلام شهرزاد العرافة التي تسكن في كوخ بعيد.. شهرزاد لم تتزوج ولكن سميت باسم شهرزاد لأنها أسعدت أناسا كثيرين بقراءة كفهم"[2].

حققت شخصية "شهرزاد" طموح انعتاق الذات الأنثوية فاستطاعت بالذكاء؛ والقدرة على الإبحار في دهاليز الحكي؛ أن تتغلغل في أعماق الذات الجماعية، وتعبر عن فضاءات الكائن والممكن. وهي في ذلك مسكونة بفكرة انعتاق الذات، وفي محاولة دؤوبة لمعانقة جماليات الكلمة في أقصى درجات اشتغالها وبوحها ومعاناتها. تقول الدكتورة فاطمة المرنيسي في كتابها "شهرزاد ليست مغربية":

"السرد فن ننجح أو نخفق فيه لكننا نحتاجه لنحيا ونجعل الآخرين يحبوننا، يجب معرفة الآخر جيدا لإغوائه بشكل أفضل"[3].

فليس خافيا أن شهرزاد جعلت من إنتاج الكلمة/ الخطاب الذي يحررها/

---

[1] ـ المرجع نفسه، ص ١٥.

[2] ـ المرجع نفسه، ص ١٨.

[3] **شهرزاد ليست مغربية، فاطمة المرنيسي، المترجمة ماري طوق، الطبعة العربية الثانية، ٢٠٠٣، ص ٢٣.**

المرأة من بطش الآخر، حيث اعتمدت بدكائها لولبية السرد لإبقاء البطلة سهر على قيد التفاؤل بغد مشرق؛ ينقذها من قبضة كل رجل سولت له نفسه الارتباط بها؛ والاستمتاع بعطرها الساحر، يقول السارد:

"لكن العرافة شهرزاد قالت لأبيها: لا.. ابنتك ستسافر إلى بلاد النفط .. بلاد الذهب تتزوج من رجل ثري وتفتح لها المدن ألف نافذة نور.. وستتمرغ في الذهب.. الأب ينتظر أن يأتي هذا الفارس القادم الرحالة.. لترحل معه سهر على سفينته.. ويكون علمها شمس وقمر.. كما قالت العرافة العجوز"[(١)].

تبدأ شهرزاد حكيها مع بداية اللّيالي متخذة من فكرة قطع الحكي/ السرد أداة إغراء تنال من البطلة سهر؛ فتجعل قلبها معلقا بحكاياها، فتنال منها حتى تصل حدَّ الإدمان فلا تستطيع أن تعيش دون حكي.

"قالت شهرزاد: إلى هنا صاح الديك وغدا نكمل الحكاية يا سهر.. من باع باع.. ومن اشترى اشترى.. لقد باع أخته.. واشترى الكاهن نفر بثمن بخس.. لقد حول كي إلى غاسل للموتى.. غدا نكمل الحكاية أو بعد غد"[(٢)].

جعلت شهرزاد/الساردة حكيها مفتوحا، إذ تنهي كل ليلة قصتها بموقف شائق مفتوح، مردوف بعبارة "غدا أو بعد غد نكمل الحكاية"، وهذا ما يلزم على البطلة سهر إبقائها لسماع نهاية الحكاية،

"مرت شهرزاد على بيت سهر.. وبعد تناول القهوة والضيافة همست سهر ومن هي الروح الثانية يا خالتي شهرزاد؟ ضحكت شهرزاد وقالت:

---

(١) ـ قهوة سادة، السيد حافظ، ص ١٧.

(٢) ـ المرجع نفسه، ص ٢٣١.

هي بنت جميلة عاشت في عهد النبي موسى؟ ما اسمها وحكايتها؟ قالت: اسمها نور غدا نبدأ الحكاية"[1].

نسيج حكاياها كنسيج عنكبوتي متداخل ومتشابك الخيوط، معلوم المركز. فمركز الليالي ومحور دورانها هو القصة الإطار؛ التي لخصت دوافع السرد؛ تتبع حيوات الروح الأولى التي تنحدر منها سهر البطلة، ومن ثم معرفة سر عطرها الساحر الذي سلب لب كل من استنشقه ولم يعرف سره، هذا السر الذي بات لغزا لا يفقه كنهه سوى شهرزاد التي أوتيت من العلم دون سواها. فالحكاية الأم لها قدرة على توليد حكايات مرتبطة ببعضها البعض، بسمات مشتركة، "قالت شهرزاد وهي تشرب آخر رشفة من فنجان القهوة وتطفئ ركوة النار: الآن اذهبي إلى بيتك يا سهر تأخر الوقت اذهبي قبل الغروب. قالت سهر: ونفر. قالت شهرزاد: غدا سنكمل الحكاية يا سهر."[2]. فبين عبارتي "بلغني يا أجمل بنات الجبل" و"إلى هنا صاح الديك وغدا نكمل الحكاية يا سهر" ترسم شهرزاد عالمها بفضاء معماري وهيكل لولبي يرتكز إلى رؤية شمولية. إذ تكمن وظيفة الليالي في كونها تجسد تقطيعًا يبعث على إغراء المتابعة والترقب، ويحث على التتبع والاستمرار، وبدون هذا الفصل السردي ستبدو حكايات شهرزاد تراكمًا لا حضور له، حتى تمر البطلة "سهر" بمحطتي توقف لا غنى له عنهما؛ نهاية الحكاية ونهاية الليلة، وبين هاتين المحطتين تتزايد متعة السرد وبهجته.

لا ريب أن شهرزاد التي أنقذت حياتها وبنات جنسها من الموت بـ"القصة

---

(1) ـ المرجع نفسه، ص ٣٩٣.

(2) ـ المرجع نفسه، ص ٢٥٦.

المحكية" عندما قبلت التحدي لتحطم الجبروت والظلم، كانت لها "خزانة مفترضة" وإلا فمن أين لها هذه الذخيرة النصية، يقول السارد:

"شهرزاد قد ورثت من أبيها مكتبة بها كتب الشيخ الإمام جلال الدين السيوطي وكتاب ابن حزم طوق الحمامة في فن النكاح.. لم تقل سر علمها بالعشق والغرام"(1).

فشهرزاد كانت على قدر كبير من العلم والمعرفة وهذا ما أكده كل من اخترق حصنها. تقول الدكتورة فاطمة المرنيسي:

"أعود إلى ذي بدء: علم المرأة وثقافتها. إن مأثرة شهرزاد ما كانت لتتم لو لم تختزن كمّا هائلا من الأخبار التي استخدمتها لتبني قصصها حيث التفاصيل الواقعية المدهشة تنم عن معرفة استثنائية وإلمام عميق بالعالم والكائنات"(2).

الأمر الذي سيمكن شهرزاد من تصريف المعرفة لممارسة سلطتها على كل من دق باب حكاياها، إذ ستشكل مصدر قوتها لإحداث التغيير المرغوب، ونقل معرفة ما بالعالم، إلى معرفة أوسع وأشمل لتحقيق التجاوز وفرض البديل الممكن لإعادة الحياة لمجراها الطبيعي والإنساني جاء على لسان السارد قوله:

"تجلس النساء تحت ركبتها يشكين من ضعف الرجال الجنسي وجهلهم بالتعامل معهن. فقط هي شهرزاد التي تعرف.. وتنصح بعض النساء بعمل فنجان قهوة على الريحة قبل الجماع بنصف ساعة حتى ينجبن ذكرا.. وتعرف للنكاح مائة اسما فتجلس النساء أمامها في ذهول.. تقول

---

(1) - قهوة سادة، السيد حافظ، ص ١٧.

(2) - شهرزاد ليست مغربية، فاطمة المرنيسي، ص ٢٧.

إن النكاح له أسماء كثيرة"[1].

فشهرزاد السيد حافظ تشبه شهرزاد ألف ليلة وليلة؛ في سعة علمها وتنوع ثقافتها فأضحت لغزا حيّر عقول المفكرين وسلبه، فهي وحدها قادرة على تفسير نفسها. يقول السارد:

"والنساء يجلسن في ذهول أمام علمها قالوا إنها قديسة وقلن عنها لعوبا قلن تزوجت من ألف رجل.. قلن وقلن والناس دوما تقول"[2]

حملت شهرزاد العالمة على جلب انتباه الآخرين؛ وحملهم على الشهادة لها بقدرتها على الإمتاع في السرد؛ والمعرفة التي هي في الأصل حصيلة ذهنية لتراكم التجارب الإنسانية في بعدها الكوني، وقيمتها في تكسير النظم القاهرة المؤطرة لوجودها. فأضحت قبلة العارفين السالكين طريق البحث عن كينونتهم يقول:

"خرجت سهر من المدرسة مبكرا.. ذهبت إلى بيت شهرزاد.. لم تجدها جلست سهر أمام بيت شهرزاد.. الروح تعطش لحكايا المعرفة كأنها طفل يعطش لثدي الأم"[3]

وقّفت سلطة اللغة لتجعل من المستمع/ البطلة سهر بعد كل ليلة من الحكي والسرد طفلا متعلقا بالصمت.

حرص الروائي السيد حافظ على استلهام ذلك التلقي الإيجابي الذي حظي به كتاب "ألف ليلة"، وحضوره الفاعل لنص الليالي في الذاكرة. وشخصية شهرزاد المعجزة التي قاومت سلطة الرجل بسلطة الكلمة

---

(1) - المرجع نفسه، ص ١٧.

(2) - المرجع نفسه، ص ١٨.

(3) - قهوة سادة، السيد حافظ، ص ٢٦٤.

تقول الدكتورة فاطمة المرنيسي: "شهرزاد تتكلم والمعجزة تحدث"[1].

على سبيل الختم

هنا تنتهي رحلتنا مع روائي رسم بسرده وثقافته لوحة جمالية، طرزها بأدبه الأصيل، وزينها بدخيرته المعرفية. ولأن الزمن الإبداعي لا يقاس بالعمر البيولوجي، فسيظل هذا المبدع المتمرد القلق الحالم خالدا، سيتجلى مشرقا كلما أظلم ليل في وجه الإنسان. فما زال له حلم الكتابة والإنتاج طالما قلمه متوهج ينبئ بالإبداع والإمتاع. هنيئا للروائي السيد حافظ المبدع الذي تيمم بتراب الوطن وتوضأ بنور الحرف وصلى في محراب الكلمة..

***

(١) - شهرزاد ليست مغربية، فاطمة المرنيسي، ص ٢٣.

لائحة المراجع :

- الرواية: قهوة سادة، السيد حافظ، ٢٠١٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- أرض الأبدية قراءات في تجربة الشاعر سيف الرحبي، مفيد نجم، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧، منشورات الجمل.
- سوسيولوجيا الأدب، روبير إسكارييت، ترجمة آمال عرموني، ١٩٩٩، دار عويدات، بيروت.
- الشعر والتلقي، علي جعفر العلاق، الطبعة الأولى، ١٩٩٧، دار الشروق، الأردن.
- الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، عز الدين إسماعيل، الطبعة الثالثة، دار الفكر العربي.
- شهرزاد ليست مغربية، فاطمة المرنيسي، المترجمة ماري طوق، الطبعة العربية الثانية، ٢٠٠٣.
- عتبات النص بحث في التراث العربي والخطاب النقدي المعاصر، يوسف الإدريسي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨، الناشر مقاربات.
- مدخل إلى الأدب العجائبي، تودوروف، ترجمة الصديق بوعلام، الطبعة الأولى، ١٩٩٣.
- المرأة واللغة، عبد الله الغذامي، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٦، المركز الثقافي العربي.



مقام البوح على شرفة الجسد
رشفة من فنجان قهوة سادة

د. حنان حطاب

أستاذة بجامعة محمد لمين دباغين
سطيف – الجزائر

قد تعجز الذات عن فهم ذاتها واستيعاب الآخر من حولها، حينها يتحول العالم الإنساني إلى كتلة من التناقضات التي لا تحيلك إلا على أزمة حقيقية، غير أن الذات بوصفها تمردا/ ثورة، تحاول الخروج من مأزقيتها نحو عالم التكشف والبوح عن اللامعبر عنه، فلا تجد سبيلا لها غير هداية الكتابة، والانطلاق في كشف عوالمها الداخلية، لتغدو كتابة الذات طوقا للنجاة، وحبلا للخلاص الذي يقود الذات لذاتها وإلى آخرها، وتغدو الحياة فعلا كتابيا تحفه الأسئلة والقراءات والتأويلات، وكأن الكتابة إعادة خلق شيء من شيء آخر، أو بعث للروح بعد أن جفت القرائح والأجساد وتهاوت جثثا مواتا لا ذوات فيها. من هنا تغدو رحلة الذات كشفا عن المنطقة المظلمة فيها وبحثا في مناطق السواد وتكحيلها ببياض البوح وزرقة السؤال الدائم.. من هنا تغدو الكتابة سحرا لمن لا سحر له.. وفعلا وجوديا يضمن توازن الذات وتجددها واستمراريتها.. فلا تكف مساءلة الذات لذاتها عن مداعبة وعينا في محاولة للانوجاد؛ فالبحث عن الذات رحلة وجودية ترتحل عبر مفاصل الحياة الإنسانية، وعبر جسد "قهوة سادة[*] فتنطلق الـ "أنا" متحدثة عن رغباتها وأهوائها وتمثيلاتها الغريزية وما تفتقد في الواقع، وتتحول الكتابة من مجرد سواد إلى بياض، إلى نوع من الفلسفة في الحياة، ويتحول فعل الكتابة رغبة في بلورة الأسئلة التي تمنح للوجود معنى حقيقيا، معنى يحرر

(*) قهوة سادة (رواية) للسيد حافظ: من ٤٠٠ صفحة تضم فصلين: الفصل الأول: حكاية **سهر** والعشق والقمر وهو الفصل موضع الدراسة / الفصل الثاني: حكاية نفر وإخناتون والنيل.. صدرت الرواية عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، عام ٢٠١٢.

المبدع ويحرر معه القارئ والمتهم من احتمال التحول إلى مجرد رؤوس وسط قطيع.. فالذات حين تشعر بثقل العالم فوق كاهلها، تلجأ للكتابة فيصير فعل الكتابة معادلا للنجاة، والمخرج الوحيد المضمون للانفلات من ثقل الروح المتعبة؛ فالكتابة تمكننا من مساءلة المجتمع وتسعى لخلخة قيم استشرت بعنف فيه".(١)

قهوة سادة جاءت لتجيب عن تقلبات هذه الذات وأوجاعها.. كيف تتموقع هذه الذات أمام ذاتها؟.. ثم كيف تنكشف أمام آخرها، كيف تتعرى ذات سهر بطلة الرواية وتنكشف أمام ذاتها وأمام آخرها ممثلا في كاظم (العاشق الولهان) وشهرزاد (رمز الحلم والرؤيا) وفتحي رضوان (زوجها بعد ١٥ عشر عاما).

كيف تكون شرفة الجسد مقاما للبوح، وسبيلا للبحث عن هوية الذات، وكيف ينكشف الجسد أمام الذات؟.. كيف تتعرى الذوات في مرآة فنجان من القهوة السوداء المعتمة الثقيلة المحملة بالأسى والهروب، والمتعبة بسواد الليالي الحالكات، وبأرق القلوب العاشقة.. بين صخب أجساد متعطشة وأرواح متمردة.. ذوات تفتقد لذواتها وتبحث عنها من خلال كل رشفة من فنجان قهوة سادة.

على شرفة الجسد(*)

يطرح النص السردي اليوم إشكالا محوريا على صعيد القراءة والتأويل

---

(١) ـ عمر محمد منيب إدلبي، سرد الذات فعل الكتابة وسؤال الوجود دراسة في فن السيرة الذاتية، إصدارات الثقافة والإعلام، حكومة الشارقة، ٢٠٠٨، ص ٦٤.

(*) هناك فرق جوهري بين الجسم والجسد، فالجسم مرئي ومنظور وملموس، بينما الجسد دلالة خطابية، ولذلك لا يمكن لمسه أو قياسه بمعايير كمية سوى من باب القراءة والتأويل بحيث يمكن الشعور بهالته وجماله وجلاله، إدراك دلالاته الإيحائية والخطابية والإشارية والأيقونية. ولذلك يقال عن الجسد: إنه بناء رمزي لا غير.ينظر رسول محمد رسول: الجسد المتخيل في السرد الروائي، النايا للدراسات والنشر،سوريا، ط١، ١٩،٢٠١٤.

حول طبيعة اللغة وعلاقتها بالمتلقي، ومدى إسهامها في تحويل إدراكاته المعرفية اتجاه آفاق جديدة ومدى احتوائها على أبعاد دلالية ومعرفية وأخلاقية سيما بعدما كثر الحديث عن لغة الجسد الذي يمثل"معطى حيويا وحياتيا يتمفصل فيه البيولوجي والسيكلوجي ليشكلا أنا جسدية، تدخل في علاقة مباشرة مع الآخر فضاء وزمنا"(١)

منذ الأسطر الأولى، تعلن الرواية وبكثير من الجرأة صرخة الجسد في كل ركن من أركانها، وعبر كل شخوصها التي تتداخل ضمن لعبة درامية تتحكم في تصرفات مربكة، متناقضة تعبث بذواتنا وتخدعنا برائحة قهوة تتسرب إلينا عبر أحداث الرواية بداية من عنوانها "قهوة سادة" رواية تنطلق من تعانق الأجساد لتروم تفجيرها والانسلاخ عنها.. تبدأ رواية "قهوة سادة" حكاية سهر والعشق والقمر، بعلامات النضوج الأنثوي عند سهر واقترانها بحادثة تنحي الزعيم عبد الناصر لتأخذ خيوط الرواية* بالتشكل وتتبدى للقارئ – تدريجيا- شخصيات/ أجساد النص...

سهر: "اسم يعرفه الليل والبحر والسحر وأحلام الشباب المراهقين والرجال العجائز على أبواب الدكاكين والمحلات في الجبل في بلاد الشام"(٢)

أما كاظم، فعاشق سهر "معلم اللغة العربية في مدرسة سهر ٤٠ سنة، أشقر وسيم.. العاشق لها في صمت يحب كل الصباحات كي يراها.. يريد

---

(١) - النص والجسد والتأويل: إفريقيا الشرق، الدار البيضاء ،٢٠٠٣. ص٢٠.

* "بقعة دم على قميص نوم سهر: خافت.. ارتعدت.. بكت.. جاءت الأم مهرولة.. وجدت بقعة دم حمراء في ثوبها.. زغردت الأم.. ثم ارتعدت.. لقد بلغت سهر نضجت اليمامة... الحمامة.. الوردة.. تفتحت مبكرا.. أصبحت طفلتها أنثى.. طفلتها ذات الاثني عشر عاما".. السيد حافظ: قهوة سادة. ص ١٥.

(٢) - قهوة سادة:ص٢٠

أن يتنفس وجودها في الفصل.. في المدرسة، في الحي في القرية.. في الكون"[1]

وأما شهر زاد؛ فالمرأة ذات بصيرة حادة، قارئة للمستقبل، وملمة بعديد الكتب والتفاسير. قارئة للكف ومفسرة للأحلام. "شهر زاد لم تتزوج، ولكن سميت بشهرزاد لأنها أسعدت أناسا كثيرين بقراءة كفهم. شهرزاد على ذقنها وشم أخضر، هي بيضاء عيناها زرقاوان.. قالوا من جمالها تزوجها جني جميل ومنع كل الرجال عنها أو الاقتراب منها".[2]

أما فتحي رضوان.. "سيكون حبيب سهر بعد ١٥ عشر عاما(...) شاب ١٧ عاما، مصري الملامح عربي الفكر عالمي الإحساس بالجمال، كان يذاكر الثانوية العامة أدبي"[3]

شخصيات محورية في رواية قهوة سادة تتواطئ على حب الجسد والغرق في متاهاته، تتعانق مع سهر الليالي، يفضح السارد من خلالها تورط العربي وفشله الذريع في علاقته مع الجسد، ولهذا يحاول من خلال الخوض من مناطقها المحرمة الكشف عن الذاوت من خلال الأجساد. وهنا يكون مقام البوح على شرفة الجسد.

ترسم الرواية ملامح شخصياتها من خلال لغة الجسد الذي يصبح مصدرا للتخييل والبعث بعديد الشيفرات الوجودية، فهو يتجاوز الجانب الفيزيقي ليكون حمالا لفلسفة أو فكر، ويعكس بشكل أو بآخر الذات التي تختبئ وراء ذلك الجسد دون أن تنفصل عنه... "فالجسد – والقول ل مين

---

(1) - قهوة سادة، ص ٢٠.

(2) - قهوة سادة: ص ١٨.

(3) - قهوة سادة: ص ٣٢.

دوبيران–Maine de Biran- ليس جسدا عضويا وليس كيانا حيا ولا جسدا إنسانيا، إنه جسد يتعالى عن هذه الظواهر التي من خلالها يقدم لنا نفسه، و بما أنه جسد يعيش في العالم، فإنه يوحد بين شكلين أو نمطين من أنماط وجوده أي وجوده ومظهره في الجسد الشخصي".[١]

فالجسد الذي سنقف عنده قراءة وتأويلا يتجاوز الجانب الفيزيولوجي إلى دلالته الرمزية المخبوءة خلف شخصيات الرواية والتي تخفي بدورها دلالات متعددة ومتناقضة.

لم تسلم سهر الطفلة البريئة من لعنة الجسد التي تضفيها قهوة سادة على كل من يرتشفها فتحوله الشخوص إلى مجرد أجساد تتراقص على موسيقى العشق أو الغريزة "ابنة السابعة عشر ربيعا التي كلما سارت في الأزقة أو الشارع يبعث نهداها في قلوب الرجال إشارات كهرومغناطيسية بفرح.. هي تعرف أن الله جميل.. وأحيانا يمنح أنثى من روحه ومن وجهه ألقا"[٢]

سهر مثلما رسمت صورة طفلة جميلة بريئة مثلت نزوة صغيرة في بداية تشكلها، وفتنة كبيرة في قلوب الكثيرين "كل صباح تنظر سهر في المرآة.. تنظر في عينيها.. يرتعش رمشها، تجد فتنة مختزنة لو وزعت على النساء العابرات في مدن الجمال لفتن رجال العالم العابرين على جسور العشق..."[٣]

بل إن السارد يبالغ في فتنه هذه الطفلة المراهقة وجاذبيتها من خلال

---

[١] - فريد الزاهي: النص و الجسد و التأويل

[٢] - قهوة سادة: ص ١٦.

[٣] - قهوة سادة: ص ١٩.

تلك العلاقة التي ربطتها بعصفور الكناري الذي لطالما تسلل إلى غرفتها وداعب أحلامها وخصلات شعرها، والذي لم يسلم هو الآخر من فتنة جمالها وإغماءة عطرها إلى درجة أنه تمنى أن يتحول إنسيا بشرا يتسنى له عشقها: "أخذت العصفور في حضنها ونامت. وتدفأ المجرم الصغير ونام بين النهدين يحلم ويسأل الله أن يتحول إنسيا، ولو ليلة.. ساعتين.. نصف ساعة.. دقائق، لكن لا فائدة تقدم ببطء من شفتيها ونال قبلة.. فتحت عينيها.. "أي... أي".. ضحكت ضمته، وضمته مرة أخرى إلى نهديها وشدت اللحاف، لم ينم العصفور وطاف بخياله ألف حلم.. آه لو كان بشرا لطاف بها في الفراش حول الكرة الأرضية واغتصبها ألف مرة.. تزوجها رغما عن أنف كل البشر"(١)

وهنا تحاول الرواية أن ترسم أول انحراف لها اتجاه لعنة الجسد أو العدوى التي انتقلت من البشر إلى طائر الكناري الذي فتن بسهر فتمنى أن يصبح بشرا إلى درجة أن بقية الطيور كما تسرد الرواية أرادت معاقبته لارتداده عن أصله وجنسه ويبدو أن تفاحة آدم فعلت فعلتها حتى مع طائر الكناري.. ويواصل السارد الحديث عن الجسد مع كاظم عاشق سهر، وبعيدا عن هيمنة الذكورية التي كثيرا ما طبعت النصوص السردية العربية وعبرت عن ملامح الرجل العاشق الدنجواني والذكر الفحل، تبرز لنا شخصية كاظم الذي يعيش قصة حبه في صمت قاتل، حب تحت وقع المسكنات، وأقصد أحلام اليقظة وكتب الجنس ومهدئات فرويد وكولن ويلسن، كاظم الذي "لم يلمس امرأة في حياته، لم يضاجع أنثى ولكن أمامه الكتب تشرح ما هو الجنس.. يعرف الجنس بأنه جملة من

(١) - قهوة سادة: ص ١٦.

الخصائص التشكيلية والفيسيولوجية العضوية التي تؤمن التكاثر الذي يتلخص جوهره بالتلقيح في نهاية المطاف".[1]

وتناقش هذه الرؤية علاقة كاظم بالجسد من خلال الاكتفاء بعالم الأحلام والتخيل واللذة المقترنة بالعالم الافتراضي.. الأمر الذي يكشف عن رؤية السارد للرجل العربي والجنس والتي تتسم بالغباوة واللا حرفة: "العربي لا يفلح إلا في مضاجعة النساء، وهذه المقولة ثبت فشلها بعد أن كتبت الأجنبيات الأوروبيات مذكراتهن مع العرب في الفراش، فسمعة العربي في فراش الجنس صدفة وليست حرفة، فمستواه ضعيف ومترد وهمجي مثل الكلاب.. المرة الوحيدة التي نجح في جيش مصر بكرباج محمد علي الذي دربهم على القتال وضعوا في أذن الفلاح المصري اليمنى بصلة واليسرى قطعة قطن حتى يعرف اليمين من اليسار؛ فكانوا يقولون باتجاه أذنك التي بها بصلة أو القطنة"[2]

والأمر ذاته كان مع فتحي رضوان زوج سهر بعد ١٥ عاما والذي عرف بمواقفه السياسية ودفاعه عن الوطن غير أنه تخبط بين ألاعيب النساء وأجسادهن وجنسياتهن المختلفة وأكاذيب السياسة ومشاكلها: "كان فتحي يسأل نفسه دوما. لماذا النساء في حياتي ضرورة كالماء والهواء وخطب عبد الناصر والميثاق، ومقالات هيكل يوم الجمعة.. ولم يرتشف الوجود والعدم من سارتر والعبث من ألبير كامي وصامويل بيكيت، لماذا تبحث عن كل كتب كولين ويلسن.. لماذا يبحث عن الجاحظ ويعشق المتنبي ونهود ناهد حجازي وفيفيان وماجدة، والمظاهرة التي يخرج

---

[1] - قهوة سادة، ص ٢٣.

[2] - قهوة سادة، ص ٤٥.

بها الطلبة من أجل فلسطين والجزائر واليمن"[1]

فتحي رضوان الذي اهتم بالأحداث والمواقف السياسية وساند المظاهرات والثورات الشعبية، لكن لسان حاله لطالما ردد: "يدها الحانية، أحن من يد الوطن على كتفي".[2]

وفي مقابل هذا الانخذال الذكوري تقتحم الأنثى خصوصية جسد النص لتعبر عن فحولة من نوع خاص، هي فحولة الأنوثة في زمن غاب فيه الرجال وضاعت الرجولة بين نظريات فرويد.. أين تقبع العقد وتتوارى الأمراض، لتبرز لنا هيمنة الأنثى من خلال شهرزاد، فهي عكس كاظم (الفاشل جنسيا) مثقفة جنسيا.. لعوب وذكية وقارئة للمستقبل، وقد مثلت هي الأخرى مساحة للصخب الجسدي من خلال الخبرة في تعليم النساء والرجال وتلقينهم آداب وفنون العلاقات ووصفات الحب، فكانت بمثابة مدرسة للتربية الجنسية.. والمفارقة أن هذه المرأة الناصحة لأهل القرية وخاصة هي امرأة فقد قلبها بوصلته إلى بر الأمان، وصار جمالها فتنة ونقمة منعتها من الزواج "هكذا الجميلات يا وردة يسحرن الرجال ويتزوجن القلق والصداع في صمت".[3]

عبر هذه الشخوص وغيرها ولجت قهوة سادة، واحدا من أكثر الطابوهات خطورة وحساسية في المجتمعات العربية، حيث مثلت لعنة الجسد فيها بوصفه هاجسا مرضيا لكثير البشر رغم أنه يمكن النظر

---

[1] - قهوة سادة: ص ٨٤.
[2] - قهوة سادة: ص ٧٣.
[3] - قهوة سادة: ص ٢٤١.

للجسد في حاجاته البيولوجية والجنسية في مضماره المعقول والطبيعي بعيدا عن العقد اللاأخلاقية والمرضية، ولا تقصد الرواية الوقوف عند هذه الأجساد وكفى بل تروم ما وراءها من بعد دلالي ورمزي.. فهل يمكن لهذه الرواية أن تكون مجرد عبث جسدي أو رواية تستفز غريزة القراء وتلعب على وترهم الحساس؟؟

مقام الروح

في حضرة الجسد تولد أسئلة الهوية والانتماء، وفي حضرة الجسد ينحت السرد وتتفاعل الكلمات وتتناسل الأفكار وتتهاوى؛ فداخل جغرافية الجسد تكتب الكلمات وتسافر في أبعادها الدلالية باحثة عن كيانها/ هويتها/ وجودها، إذ يغدو الجسد وسيطا لإدراك العالم وتحسسه وفهمه، فكما يقول ميرلوبونتي: "علمتني تجربة لحمي بما هي غلاف إدراكي، أن الادراك لا يولد أينما كان بل ينبعث من خفايا الجسد"(١) فيتحول الجسد من معناه الفيزيقي إلى وسيط، ويعبر عن الذات والكيان؛ فخلف الأجساد تتوارى شخصيات متباينة وعقد مرضية وهواجس داخلية، ومن الأجساد أيضا تبنى الهويات وتولد الانتماءات وتتحقق كينونة الكائن في علاقته بالآخر، "فلا وجود للجسد إلا بالغير أو الآخر الذي من دونه سيبقى الجسد كينونة افتراضية تعيش كمونها في خبايا ودياجير عالم دامس الظلام، عالم غير مرئي، سواء كان هذا الآخر أو الغير شيئا تكوينيا يدخل في بناء الجسد أم بؤرة تلق يأمل بأسرها خطاب الجسد"(٢)

---

(١) - موريس ميرلوبونتي :المرئي واللامرئي ، ترجمة عبد العزيز العيادي، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط٢٠٠١،١ ،ص٦٢

(٢) - رسول محمد رسول: الجسد المتخيل في السرد الروائي، النايا للدراسات والنشر،سوريا، ط١، ٢٠١٤،ص٢٩.

هكذا بدت الرواية عالما من الأجساد التي لا تحسن غير لغة الجسد والحركات، أجساد تتآكل من الداخل، تتهاوى نفوسها وتختنق من شدة الحلم لا الظفر.. أجساد ترفض الانكشاف لأنها اكتشفت أنها بلا هوية بلا انتماء، أجساد عارية لا وجود لها لكنها أجساد تبحث عن الانتماء والهوية، فإذا كانت الهوية إحساس الأنا بالانتماء -سواء كان هذا الأنا فرديا أو جمعيا- فإنه لا يتحدد إلا بالآخر. فلو عدنا إلى فلسفات الأنا، تلك التي وسمت في تاريخ فلسفة الحداثة بفلسفات الكوجيتو، أي الذات أو الأنا المفكر، سنلاحظ بأنها كلها تخلص إلى إحدى نتيجتين: إما الاعتراف بالغيرية واستدخالها ضمن كينونة الأنا، وربط الأنا بها، وإما السقوط في الأنا المتوحد بما تفيده من توحد وانغلاق".[١]

غير أن الأنا لا تتشكل خارج الجسد الذي يمثل دعامة أساسية لتشكل هذه الهوية وتحديد ملامحها، ورغم سطوة لغة الجسد على رواية "قهوة سادة" إلا أن هذا الجسد يحدد هوية الرواية بعيدا عن كونها رواية جسد أو رواية جنس. إنها رواية جسد يبحث عن هويته، عن روحه، يبحث عن السكينة بعيدا عن المساومات فـ "الجسد حتما ينتمي إلى الأرومة التي تحدد هوية الانسان، فدون الجسد الذي يعطيه وجها لن يكون الانسان ما هو عليه"[٢]

إنها رواية وقوع الذوات تحت وطأة الجسد وتلاشي الهويات تحت رحمة الشهوة، إنها انعكاس لقلق وجودي ولحياة عبثية وسجن إنساني داخل بوتقة الجسد. هذا الأخير "قد يكون مجازا إيديولوجيا يمكن الفرد من

---

[١] - حاتم الورفلي : بول ريكور...الهوية السردية، دار التنوير، ط١، ٢٠٠٩، ص٢٦.

[٢] - دافيد لوبرتون: أنثروبولوجيا الجسد والحداثة، تر:محمد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، الحمراء، بيروت، ط٢ ،١٩٩٧ ، ص.٥.

التعبير أو النفي بعدد الممارسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي يعيش فيها الجسد، إنه يرتبط بالضغوط وعوامل الضبط الاجتماعي بالإحباطات والحرمانات الكثيرة التي يحياها المرء" [١]

اللعبة التي أرادت الرواية أن تتخفى وراءها لترسم ملامح الذوات العربية الحائرة والأجساد المتمردة.. إنه الجسد العربي الذي استبيح للجميع فاغتصبوه دون رحمة، إنه جسد الوطن العربي وأي وطن هذا، و طن عار من اللباس، من الأمان، من الحقيقة، من الحياة والحياء، وطن بلا روح، وطن من ورق.. وهذه العقد التي تحدثت عنها الرواية إنما هي أمراض هذا الجسد العربي وعقده الجسدية والجنسية التي تنم عن علاقة مشوهة بعيدة عن الأمان والراحة والاحترام للآخر جسدا/ كيانا / هوية.

إنه الوجع المصري الذي يتملص من المسؤولية، فلا يجد غير وسوسات الشيطان وإغراءات النساء "كلما حاصرني حب الوطن بنيرانه وأسهم حقده، وحاول قتلي هربت منه تحت جلد النساء حتى أضمد جراحي"[٢] وهو تعبير عن حالة الاستسلام الروحي.. أين تغيب الروح وتعلو سلطة الجسد التي تعري عفن النفوس فتهرب من خطاياها ومآسيها عبر متاهة الجسد؟.

كما تعبر الرواية عن حالة من الاغتراب الروحي والاضطراب النفسي الذي تعيشه شخصيات الرواية لتنكشف من خلال المخاوف والأوهام التي يعيشونها؛ فها هي سهر تعيش حالة خوف من مستقبلها وجمالها،

---

[١] - عبد الناصر هلال خطاب الجسد في شعر الحداثة قراءة في شعر السبعينات ص٧٠ .١

[٢] - حافظ السيد، قهوة سادة

وتخشى أن يكون جمالها لعنة عليها مثلما كان مع شهرزاد، وها هو كاظم غارق في أوهامه ينام على حمى سهر، ويستيقظ معانقا أحد كتبه الجنسية وأما شهرزاد فقارئة المستقبل التي عجزت عن قراءة مستقبلها وفشلت طقوسها وكتبها وثقافتها عن نزع لعنة جمالها، وها هو فتحي رضوان أسكرته المظاهرات والشعارات وأتعبته النساء المتعددات الجنسيات وقاتله الشعور بالازدواجية واللانتماء ليجد نفسه بلا كيان بلا وجود وبلا وطن:

"وجدتني أثناء محاكمتي أبكى لأني سمعت دقات قلب الوطن تلازم دقات قلبي.. وجدتني مواطنا بلا وطن.. وجدتني مشروع كاتب في وطن أمي.. ومثقفا وسط أدعياء.. وطيبا وسط أشرار.. وجدتني حلما يمسح مؤخرة الوطن الذي يضاجعه الأثرياء من عسكر يوليو الذين سرقوا مجوهرات الملك فاروق وسنوات مصر وأصبحوا باشوات هذا الزمان.. وجدتني بسمة على شفاه أطفال لا تعرف الرياء.. وجدتني أعشق كل الأنبياء وأنه من الغباء ألا نشعر أن الإنسان خليفة الله على أرضه وتحت سمائه".(١)

أليست هذه أجساد حائرة تشعر باللانتماء واللا هوية بعد أن سجنتها أجسادها وأفرغتها من روحانيتها. أفرغتها من حب الوطن وملأتها بحب الأجساد الفانية، أفرغتها من الأمان وملأتها بالوجع، وأي وجع هو:

"أه.. أشرقت في نفسي لحظة اكتشفت فيها أن الوجع ليس له هوية وليس له انتماء.. اكتشفت أن حب الوطن والكتابة عناء.. ألقيت أشواقي على أحرف اسمك يا وطني فتحولت على الورق إلى ثلاث زهرات

(١) - قهوة سادة: حافظ السيد، ص ٣٥.

ذابلة"[1]

رواية "قهوة سادة" تحاول رسم ملامح الجسد العربي عموما والمصري بشكل خاص، الجسد الهارب من هويته وانتمائه والمتخفي وراء لعنة أجساد عارية.. غير أن بذور الأمل مازالت تبعث فيه الأمل لغد أفضل، ووطن أفضل. "الوطن يذبل ويموت كالزهور ثم يحيا بعد أن نلقي فيه ببذور عشق جديدة".[2] وهي نظرة استشرافية لمستقبل أفضل وأحسن بعيدا عن لغة السلب والإحباط، فالرواية بعد غرقها في اليأس والعدمية ترمي ببذرة أمل للقارئ بعد أن ذاق مرارة القهوة السادة في وطن عربي يعيث في العتمة والسواد والفساد لكنه يتوق الى غد أفضل .

كانت هذه رشفة من فنجان قهوة سادة سوداء كالليالي الحالكة، ومرة كمرارة الحياة في وطن غريب تاهت روحه واغتصب جسده.. فـ "إذا مر قبلي على بابكم أخبروني فقد ذهب ليبحث عن وطن ليتدفأ به في هذا الشتاء".[3]

"أكتب هذه الرواية بحثا عن روح مصر

المتخاذلة سبعة آلاف عام، وبحثا عن روح مصر أخرى، للإنسان فيها معنى وقيمة و حضارة حقيقة فعلا وقوة" .. السيد حافظ

---

(1) ـ قهوة سادة: حافظ السيد، ص ٣٥.

(2) ـ قهوة سادة، ص ٣٥.

(3) قهوة سادة، ص ٣٥.

قائمة المصادر والمراجع:

المصدر:

السيد حافظ: قهوة سادة (رواية): الهيئة المصرية العامة للكتاب مصر، ط١، ٢٠١٢.

المراجع:

١. رسول محمد رسول: "الجسد المتخيل في السرد الروائي"، النايا للدراسات والنشر،سوريا، ط٢٠١٤،١.
٢. دافيد لوبرتون: "أنثروبولوجيا الجسد والحداثة"، ترجمة :محمد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، الحمراء، بيروت، ط٢ ،١٩٩٧
٣. فريد الزاهي: "النص والجسد والتأويل": إفريقيا الشرق، الدار البيضاء ،٢٠٠٣.
٤. عمر محمد منيب أدلبي، سرد الذات فعل الكتابة وسؤال الوجود دراسة في فن السيرة الذاتية، إصدارات دار الثقافة والإعلام، حكومة الشارقة، ٢٠٠٨.
٥. كاترين هالبيرن وآخرون: الهويات الفرد، الجماعة، المجتمع، ترجمة إبراهيم صحراوي، دار التنوير، الجزائر، ط١، ٢٠١٥.
٦. عبد الناصر هلال: خطاب الجسد في شعر الحداثة، قراءة في شعر السبعينات، مركز الحضارة العربية القاهرة، ط١ ،٢٠٠٥ .
٧. موريس ميرلوبونتي :المرئي واللامرئي، ترجمة عبد العزيز العيادي، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط١، ٢٠٠٨.
٨. حاتم الورفلي : بول ريكور...الهوية السردية، دار التنوير، ط١، ٢٠٠٩



رمزية العشق وأسماء النساء في رواية قهوة سادة
(دراسة في جدل الأنساق الثقافية المضمرة)

الدكتور : ستار عايد العتابى
وزارة التربية / العراق

أسعى في هذه المقالة إلى إلقاء الضوء على تجربة عميقة بين العشق والأسماء ، العشق بصوره المختلفة ، وتتبع رمزيته ومعانيه ، فالعشق لا يتوقف عند حد معين ، ولا يختص بطائفة أو بلد ، ولن يكون له حدود تحيطه ، فصور العشق عديدة وأعماقه بعيدة ، تتنوع درجاته ومعانيه وفقاً للمحبوب ، و خلاف بين عشق وآخر سوى في البعد الذي يعنيه ، رمزية متشابكة وجدتها في (رواية قهوة سادة) ، لذا سأحاول تتبع أنساق تلك الرمزية وما فيها من مضمر ثقافي في رمزية العشق والأسماء في جدلية عميقة أرادها السيد حافظ ، وحاول إخفاء معانيها خلف تلك الرموز والإشارات .

الرمزية

يعد الرمز من عناصر الأنساق الثقافية المهمة في النص الأدبي ، فالرمز يثير في نفس المتلقي حالة من الطمأنينة للنص لتعبيره عن حالة عاطفية كامنة في أغوار النص لأن الرمز " نتاج الخيال اللاشعوري "[١]، لأن الترابط بين رمزية العشق التراثي في (قهوة سادة) ، وبين ما يقابلها في الحاضر ، واضح من خلال استخدام (السيد حافظ) لأسماء وشخصيات (أخناتون ، نفرتيتي ، شهرزاد) أسماء لها أثرها في سيرة العشق ورمزيته :

" مالت شهرزاد العجوز الجميلة للوراء وهي تشرب مشروب المتي محدّثة سهر :

(١) - محمد فيتور أحمد : الرمز والرمزية في الشعر المعاصر ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٧ ، ص ٣٧ .

كان يا ما كان في سالف العصر والأوان .. في زمن أخناتون .. بنت اسمها نفر..."[1]

إذ نجد عمق الرمز الذي يحاول (السيد حافظ) رسمه في هذه الصورة العميقة فـ (شهرزاد) الراوي التي تقص الحكاية على (سهر) ، اسم له عمقه التاريخي في عالم العشق والحب ، فينعتها رغم كبر سنها بالجمال (العجوز الجميلة) دلالة على عمق المعنى .

إن تناول تلك الأسماء التراثية يدل على عمق تاريخي متأصل في روح (السيد حافظ) يريد إظهاره بطريقة فنية في إشارة لأصالة العشق الروحي العميق للأرض وما فيها من تراث ، فيذكر مدينة (طيبة القديمة) دلالة على عمق العشق .

إن الرموز التراثية تعطي للنص روحاً وحيوية منحت (السيد حافظ) إلهاماً تخطى فيه التقاليد الزمانية إلى حدود جديدة منحت النص أصالة فنية عميقة ، لهذا نجد في (قهوة سادة) إشارات لأنساق ثقافية بعيدة الإيحاء ، فأغلب أسماء النساء التي وردت في روايته توحي بالرقة والعاطفة، والعشق ، لكون اسم المرأة يعطي دلالة رمزية متنقلة فـ " يصعب معرفتها ألا من خلال زجاج ضبابي من الإحساسات الإنسانية"[2].

فلو أخذنا بعض تلك الأسماء وتفحصنا معانيها لوجدنا ملازمة العشق لأسماء النساء روحاً وجوهراً :

سهر : يدل معنى الاسم على السهر الطويل المتجسد من معاناة الحب .

شهرزاد : بطلت الحب العميق تاريخياً مع شهريار .

---

[1] - السيد حافظ : قهوة سادة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ٢٠٢١ ، ص ٢١٧ .

[2] - بير دايكو : المرأة ، بحث في سيكولوجيا الأعماق ، ترجمة : وجيه أسعد ، دمشق ١٩٨٣ ، ص ١٩٨ .

سلمى : المرأة الناعمة الأطراف ، والرقيقة ، يدل اسمها على الإيجابية والسلم .
رغيدة : من الرغد والرغيد أي النعومة والطيبة والترف .
نوال : من العطاء والنصيب .
نفرتيتي : ملكة العشق في مصر القديمة ، وقصتها مع أخناتون معروفة.
سوسن : زهرة جميلة .

الانساق الثقافية

اهتمت الدراسات النقدية الحديثة في توظيف الرموز توظيفاً ثقافياً بما يتلائم مع موضوع النص وهواجسه الممهورة بثقافة الكاتب وسعة اطلاعه على تراث الأمة وتاريخها ، لأن النسق الثقافي " ينطوي على أفراد مفتعلين تتحدد علاقتهم بعواطفهم وأدوارهم التي تنبع من الرموز المشتركة والمقررة في إطار هذا النسق "[١]، والنسق الثقافي يقوم على " تركيبة اجتماعية منغرسة في أعماق الخطاب ، تعبر عن الصورة الاجتماعية والثقافية لمجتمع ما ، يصعب اكتشافها بالقراءة السطحية كونها تختبئ خلف السطور ، والنسق الثقافي هو عنوان المجتمع وهويته "[٢].

لذا سأحاول الكشف عن تمثلات النسق من خلال الرموز التي حددتها في رواية (قهوة سادة) ومن خلال ذلك سأتناول رمزية تلك الأنساق كما يأتي :

---

[١] - إيديث مويزيل : عصر البنيوية ، ترجمة : جابر عصفور ، الكويت ١٩٩٣ ، ص ٤١١.
[٢] - سماح عبد الفران : ثقافة النص ، قراءة في السرد اليمني المعاصر ، دار الاكاديميون للنشر ، الأردن ٢٠١٦ ، ص ١٧ .

أ . النسق البلاغي

تعد علاقة البلاغة بالنص الأدبي في مختلف مظاهره ، علاقة وطيدة ، فهي " نظام من القواعد تقوم مهمته على التوجه في إنتاج النص الأدبي ، وهي نظام يتحقق في النص ، تؤثر على القارئ بإقناعه ، أو تؤثر على المتلقي في عملية الاتصال الأدبي "[١]، ومن خلال هذا التأثير تتحول بلاغة النص الأدبي استراتيجياً من الجزئيات إلى نمذجة نسقية جميلة ، تعتمد الذائقة الجمالية إلى تجديد رؤيتها لتكون أقرب إلى الجانب البلاغي ليتكامل من خلال ذلك بناء النص .

فالكاتب بذوقه وسعة ثقافته " يرى الصورة جزءاً من نسق أوسع وإطار أشمل "[٢] ، لأن التفكير الذي يرسمه الكاتب أعمق وأوسع ، فهو يعتمد على موروث حقيقي ثابت في ذاته مؤطراً ذلك بلمسات من خياله ، وهو ما نجده في رواية (قهوة سادة)، إذ يتجه (السيد حافظ) إلى تمثيل صورة حيّة دون أن يوحي بتشبيهات لها ، ولم يصرح فيها ، يظهر ذلك بوضوح من خلال حلم المدرس (كاظم) الذي يرى معشوقته (سهر) في المنام ويحدثها بـ :

" رأيتني أقرأ في كفك .. حنان كل النساء حتى حنان أمي .

رأيتني أقرأ .. في صوتك موسيقى بتهوفن وشتراوس وسيد درويش والرحبانية وموسيقى العشق الخفية .

---

[١] - سعيد حسن بحيري : علم لغة النص – المفاهيم والاتجاهات – مؤسسة المختار للنشر ، القاهرة ٢٠١٠ ، ص ٢٢.

[٢] - مصطفى ناصيف : الصورة الأدبية ، دار الأندلس ، بيروت ١٩٨٣ ، ص ٢٠٩ .

رأيتني أقرأ وأتجاهل أمي لأني في أمة الأغبياء . أمة أرسل الله لها كثيراً من الأنبياء لتفهم لتعقل وهم مثل الحمار يحمل أثقالاً ".[1]

نسق بلاغي عميق المعنى ، أخفى فيه (السيد حافظ) عدة تشبيهات في صورة تمثيلية رائعة ، ومشهد رومانسي غرسه في خيال المدرس (كاظم) حيث يتحدث لمحبوبته ، فيرسم صورة أخفى فيها الكاتب التشبيه لتتكامل عنده صورة الإبداع الرمزي للحنان والحب الذي يعتمر في قلوب النساء بل حتى في صورتهن " كأن هذه المرأة الحسناء تجمع بين معاني الطفولة المرحة ، والحلم اللذيذ ، واللحن الرخيم ، والصباح الجديد ، والسماء البديعة ، والقمر المنير ، والورق العبق ، والابتسامة السعيدة معاً "[2].

ب . النسق الديني

وظّف (السيد حافظ) الخطاب الديني الذي تجلى في إشارات كثيرة تارة في شخصيات الرواية (فاطمة ، آسيا ، طيبة ، بلقيس) تلك الأسماء إسلامية ورد بعضها في القرآن الكريم ، وتارة أخرى في ذكره للمعابد والكنائس والمساجد ، إذ لم يميز ديناً عن دين ، ولا طائفة دون أخرى. جمع في واحة (قهوة سادة) بين المسلم والمسيحي في بيت واحد دون أن يفكر السكان بهذا الاختلاف أو يعرفون عنه شيئاً ، لأن الدين الإسلامي يوصي بإحترام الأديان الأخرى .

---

(1) ـ السيد حافظ : قهوة سادة ، ص ١١٣ .

(2) ـ عبد الملك مرتاض : نظرية القراءة تأسيس للنظرية العامة للقراءة ، دار الغرب للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ٢٠٠٣ ، ص ٢٨٦ .

فعائلة (أم جرجس) المسيحية تعيش بين المسلمين بحرية وأمان ، كما يورد (السيد حافظ) في روايته آيات من الذكر الحكيم تعبر عمّا ينسجم مع تمثلات روايته كقوله تعالى (*ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ)*[١] ، وعزز هذا التناسق بما رسمه من لوحة للتعايش الديني في مجتمع روايته فذكر نصاً من الإنجيل " الحق أقول لكم : أن جميع الخطايا تغفر لبني البشر والتجاديف التي يجدفونها...."[٢].

جـ . نسق الجنس والجسد

يمنح جسد الأنثى النص أبعاداً لاتقف عند حدود معينة بل نبث فيه روحاً وحيوية متحركة عبر فضاء النص ، فوضع الجسد بما فيه من تجسيم مثير على الرغم من تعلق مدلولاته بالمحرم والمقدس والدين ، فقد استثمر (السيد حافظ) صورة المشوقة وجسدها ليبث التشويق وفق رؤى متباينة ، وتوظيف فني جمالي اختلف عن غيره ، لأن " توظيف الجسد في الأعمال الروائية قضية مهمة لأن له سلطة جذب ، وتشويق قوية تمسك بتفكير المتلقي ، ووعيه ، وتفاعله الإيجابي مع النص ، على الرغم من أنها تثير غريزته الجنسية "[٣].

من ذلك ما كتبه (كاظم) مدرس اللغة العربية بحق معشوقته (سهر) إذ يقول :

" سأراكِ

سأضمكِ

---

[١] - سورة الحجرات : الآية ٤٦ ، كما ينظر / الرواية ص٣٧ .

[٢] - الرواية ص ٢١٥ .

[٣] - فليح الركابي ، وطعمة مطير حسين : سلطة الجسد في الرواية العربية المعاصرة – قراءة ثقافية - ، مجلة الآداب ، جامعة بغداد ، العدد ١٢٢ أيلول ٢٠١٧ ، ص ٧٠.

حتى أعصركِ في صدري ...

وأمتصَّ

رحيق شفتيكِ

حتى الألم

وسأدغدغُ

نهديكِ

وأداعب حلمتيكِ..

حتى تتبختر ... "[1]

وفي موضع آخر ، نجد ما يثيره جسد (عايدة) في نفس (المحبش) من رغبة جنسية مثيرة [2].

وحديث (اخناتون) عندما ضم (نفرتيتي) إلى صدره فيقول :

" قصدتُ باب نهديكِ فزعت الحلمتين ، وطارتا خارج الفستان ... "[3].

غزل صريح ، وحديث عن الجنس عميق ، وإلهام بأن الجسد الأنثوي يوحي بنسق عميق لأهمية العشق ، ما يثيره في نفسية الإنسان .

نتائج

في الرواية أنساق ثقافية مضمرة كثيرة ، اخترت منها هذه الانساق إشارة لأهمية وعمق تجربة (السيد حافظ) الفنية التي ميّزّ بها قهوته السادة ، لتعطي نشوة في نفس قارئها .

---

[1] - الرواية ص٨٣ .

[2] - المصدر نفسه ص ٣٦ .

[3] - المصدر نفسه ص ٣٣٥ .

وفيها من الإشارات والرموز الدلالية ، منها ما هو تاريخي ، وسياسي، ولغوي ، وسردي ، لا يسع المجال للحديث عنها في هذه المقالة البسيطة، بل تحتاج لتعمق ودراسة مستفيضة ، سأحاول إظهارها إن شاء الله مستقبلاً .



المرأة والحب فى رواية قهوة سادة

د/ لبلبة فتحى خليفة

مدرس مسرح بكلية التربية النوعية

أن المرأة فى صراع دائم نحو الحب هذا الصراع هو الذي يشكل وجودها وماهيتها، فهي تصارع العدم المتأصل بداخلها من أجل الوجود وتقاوم اليأس من أجل الأمل وتسعي إلي الحرية والالتزام وتحيي حاضرها، وفي الوقت نفسه تتطلع إلي مستقبل مختلف عنه، فالحب هو الذي يعطي لها معني للوجود.

يسعي الروائى "السيد حافظ" للبحث عن مستقبل الحب فى حياة المرأة ويرهنه بالخلفية الثقافية علي مر التاريخ من خلال قصة "سهر" بطلة الرواية والتي اكتملت أنوثتها فى يوم تنحي عبد الناصر بعد نكسة ٦٧، وكأن مصير سهر فى البحث عن الحب هو مصير مصر فى البحث عن الحرية والاستقرار.. وبدأت حكاية سهر بالبحث عن العريس المناسب فالابنة هي مستقبل الأب ومستقبل المجتمع وتطلعاته وأمنياته فى أن يكون له مستقبل أفضل من حاضره..

ويربط الكاتب القصة بضرورة تغير المناخ الثقافي بعد النكسة فى مصر وأن يتغير كل فناني مصر وتتغير الكلمة وتنبع من أعماق الشعب وليس من أعماق الزيف، ويعبر الكاتب عن الحلم بالحرية بحلم عصفور من الزواج بسهر لتحويل حلم الحرية إلي ممارسات.

لجأ الكاتب للتاريخ بحثاً عن هذه الحرية الضائعة التي تعبر عن الحب فى كل مكان وزمان والتي إن وجدت كانت الحضارة وكانت قيمة الإنسان المهدرة علي مر التاريخ سواء رجل أو امرأة ليكتشف "فتحي رضوان" الشخصية المؤرخة لفترة ما بعد ٦٧ أنها عصور بربرية فوضوية.

ويتساءل الكاتب علي لسان "فتحي رضوان" ما سبب ازدواجية الشخصية المصرية.. هل جينات العبيد الذين اشتراهم محمد علي

واشتراهم المماليك، هم بلاء الشخصية المصرية للخضوع والاستلام، وهل ستظل مصر بين قبضة الفساد والمفسدين؟؟؟، فمشكلة مصر الدائمة هي الدستور – دولة القانون – العدالة الاجتماعية، وإذا سلَّمنا بتشريط الشخصية المصرية على مر العصور فهذا دليل علي ازدواجية مصر بين الأنا والأخر، الرجل والمرأة، السياسة والمبادئ، النور والظلام، الحرية والطغيان.. هي جميعها تجسيد لازدوجية "الحب والقهر" فالمرأة دائماً مقهورة علي مر العصور مثل هذا المجتمع تماماً حتى أن وجد الحب يستغله المتسلط كمظهر من مظاهر القهر لتبرير طابعة الاستغلالي، كما قال "مصطفي حجازي" فى كتاب "سيكولوجية القهر" إذاً فما هو الحد الفاصل بين العشق والكره كما يتساءل الكاتب؟ وسنتعرف علي تفاصيل هذا التساؤل من خلال جدل أبطال رواية "السيد حافظ" قهوة سادة ليوضح لنا علاقة المرأة بالمجتمع ومصير الحب فى الرواية، والتي تنقسم شخصياتها بين العشق والكره، وفي تجريب تاريخي فى مختلف العصور يخرج الكاتب من عصر إلى عصر بشخصية المؤرخ "فتحي رضوان" ليروي لنا باقي القصة بشخصية الرواية "شهرزاد" مكملة لهذا العصر وملابساته وظروفه وثقافته ومصير الحب فيه..

اختار الكاتب شخصية شهرزاد كعرَّافة، وهي شخصية لها خلفية تاريخية من فنون الحكي، ولكن الكاتب أراد أن تكون "شهرزاد" نفسها معبرة عن عصر فى الماضي له امتداد فى الحاضر، وهي "سهر" بطلة الرواية إشارة إلى أن الزمن متوقف عند شهرزاد التي لم تعثر بعد على الفارس المناسب الذي يخرجها من التخلف؛ فجميع رجال بلدتها غير

قادرين على اكتساب حبها لوجود نقص ما يحول بينهم وبين حبها ولذلك فهي تجسد الماضي الأليم.. وسهر هي الحاضر الذي لم يمل فى البحث عن الحب الذي لم تجده شهرزاد، وتبحث عنه هي الأخرى مع سهر فى توحد لمصير لم يتحدد بعد.

تحاول العرافة "شهرزاد" أن تتنبئا لمستقبل "سهر" من خلال قصة فرعونية "نفر" حيث تربطهما نفس الروح العطرة، فإذا اعتبرنا أن مصير الحب والمرأة فى أي عصر هو عنوان تقدم العصر أو تخلفه، نجد تساؤل الكاتب عن مستقبل الفترة من ٦٧ إلي ٢٥ بناءاً علي المقدمات والمعايير الأدبية التي وضعتها القصة وهي مصير المرأة ومستقبلها وعلاقتها بالرجل باعتباره سلطة أو نظام ينظم العلاقات ويحدد الحقوق والواجبات والمسئوليات، لا ترى "سهر" مستقبلًا واضحًا مع المنقذ خارج البلاد؛ فتلجأ إلي شهرزاد لتربط قصة "سهر" العصرية "بنفر" الفرعونية فسهر لها نفس عطر نفر الذي يسحر الألباب؛ فروحاهما واحدة علي مر العصور وبدون حواجز الزمان والمكان قصة العشق والعطر واحدة، فما هي قصة "نفر" التي وصلت إلى نهاية فلسفة الوجود من خلال مواقفها.. فالأب نجار وكان يفضل ابنه "كي" على ابنته "نفر" فى حين يحاول الأخ أن يستغل أخته ليعتلي منصب الكاهن وبينما "نفر" فى أسرتها الصغيرة لا تستطيع أن تأخذ حقها فهي مباحة ومستغلة فأسرتها الصغيرة تجسد عامة الشعب ونجد على صعيد الحكام والقصر صراع بين الأم "تي" أم الفرعون وزوجته "نفرتيتي" كأنه صراع علي المصير فأم الملك "إخناتون" "تي" تكره زوجة الابن وتحاول إقصاءها؛ فهي لم تنجب سوى البنات؛ فقامت

بتزويجه بالملكة "كيا" التي أنجبت له الولد وكان صراع الملكة "تي" هو صراع على تثبيت نظامها وعقيدتها فى عبادة "أمون" وترسيخ لكهنة المعبد، ولكن إخناتون كان يفكر فى عبادة الإله الواحد "أتون" وكان يكره كهنة المعبد ويعتبر هذا انقلابا علي نظام الملكة وثورة علي السائد والموروث وبرغم نجاحها فى تزويجه إلا أنها لم تنجح فى تثبيت عقيدته فقد تعلقت روحه بعقيدة التوحيد.

فعقيدة نفر وإخناتون هي تحدٍ للثقافة الرسمية والعقيدة السائدة التي استطاع إخناتون أن يثور عليها لأنها ضد "نفر" ولا تجسد الحب الحقيقي فهي ثقافة استغلالية يشوبها التبرير الكاذب لمصير الهلاك الذي ينتظر نفر علي يد الأب والأخ، فقد استخدم "كي" أخو "نفر" شعار الحفاظ علة العقيدة من خلال التضحية بأخته كعروس للنيل ولكن فى الحقيقية هو الحفاظ على السيطرة والتسلط يتجسد أيضا في خوف الأب علي غياب الابن دون الانتباه علي غياب الابنة بالرغم أنها هي التي تدير المنزل فى حين أن الابن عاطل.. هي صورة لمجتمع أبوي متسلط.

ومن هنا تتضح فكرة الكاتب في أن صراع وهلاك الأمم يكمن فى الفئة المستغلة التي تطفو علي أكتاف الأمم بدعوى المصلحة الرشيدة والحب المزيف والوصايا الماكرة، فهي مبررات لإقصاء الحب الحقيقي من أجل المصالح الذاتية وبالتالي إقصاء القيم المطلقة فى قيم نسبية لا تبغي حضارة ولا إنشاء دول عميقة بقدر ما تبغي السيادة والسيطرة. ومن هنا تبرز مشكلة الحب والمرأة التي تعاني من ازداوجية الحب فهناك من يحب بدافع المصلحة ومن يحب بدافع الحرية.

يربط "السيد حافظ" مصير الحب بالموقف التاريخي من خلال

"فتحي رضوان" حيث بعد كل موقف تاريخي للوطن تتطور الأحداث فى قصة "سهر" بشكل يؤكد صراع الشخصيات نحو حبها، ونصل لنتيجة حتمية ملزمة لموقف كل شخصية تتصارع فيه الأحداث وتتشابك بين قصة سهر والظروف المجتمعية فى زمانين ومكانين مختلفان وكأن "فتحي رضوان" فى قصته وحكايته فى صراع مع ذاته لتحديد مصير الوطن الذي يراه فى حكاية "سهر مع الحب" لإثبات أن شرط وجود الحب وتحقيقه هو التزام ومسئولية من أحب ويمكن التنبؤ بذلك من خلال ردود أفعال الشخصيات فى مواقفها المصيرية نحو الحب والاستقرار فى قصص "فتحي رضوان" مع النكسة حتى ٢٥ يناير ومع حكاية سهر مع من أحبوها والعكس، وذلك لأنها عندما تعي حقيقة الموقف تعي حريتها وبالتالي تستطيع تحقيق الحق أو اختيار المستقبل الأفضل، ولكن سهر طالبة الثانوي لم تكتمل علمياً وثقافياً تستمد بعض المعارف والخبرات من عرافة القرية "شهرزاد"..

وفي ضوء موقف سهر تجاه من أحبوها يأتي موقف من أحبوها، لنجد الأستاذ "كاظم" مدرس اللغة العربية لم يحدد موقفه تجاه سهر لأنه لم يحدد موقفه من الحاضر الذي يحياه لكي يصنع مستقبله الذي يبغاه ولذلك فشل فى الوصول إلى سهر لأنه لم يستطع فعل شئ من أجلها فكان بمثابة رد فعل لإرادة "وردة" ابنة المختار فى زواجها منه حيث انتابه إحساس بالقلق بين اشتهائة لوردة التي يخاف من وجودها فى منزلة وخوفه من معرفة سهر بذلك لأنه ألزم نفسه بحبها، ولكن بالرغم من حبه لسهر إلا أنه لم يستطع مواجهة راغب أحد سماسرة الأوطان فى كل زمان ومكان فأصبح صراعه ضد راغب وأخته وردة حتى لا

ينجرف فى تيار دنياهم الزائفة غير متكافئ بسبب فقر كاظم فحبه وعلمه لا يكفيان فلابد أن يدعمهما قوة المال والنفوذ، وذلك لأن سماسرة الأوطان فى كل زمان ومكان تستطيع إفساد أي مشروع أمثال ابو راغب المختار، ابنه وابنته وميثاء العجوز الحيزبون؛ فكل منهم كان له دور فى حجب حب كاظم فنجد ابنه راغب وقد تقدم للزواج من سهر من جانب وأقدمت وردة لإيقاع كاظم فى حبها من ناحية أخري وهي إرهاصات باقتناص روح كل من كاظم وسهر ليعيشا دنيا المختار وأبنائه الزائفة.

فكاظم فى حياة سهر يعبر عن الحلم بالمستقبل الذي لم يأت ومازال فى الغيب.. هل ستنهض سهر بحبه؟ هل سيستفيد "كاظم" من قصص "فتحي رضوان" عن التاريخ والماضي لوضوح رؤية مستقبلية يهتدي بها هذا الحب؟ أما أن هناك نقص ينتاب تجربته ولابد أن ينظر فى نفسه أولاً ليتدارك أي نقص يهدد هذا الحب وما هي المقومات الأساسية لبناء أي مجتمع حضاري.

يتضح أن هناك تواز فى قصص فتحي رضوان عن التاريخ ومصير الحب فى حياة الوطن وفي حياة كل من "سهر ونفر" فكما استطاع راغب المختار وابنته وردة من السيطرة علي حياة كاظم، سيطرة الكهنة علي حياة نفر من خلال أيديولوجية وعقيدة راسخة على مر التاريخ وهي "حذر الحب" التي ترسخت فى أذهان الشرقيين وثقافتهم، ولذلك استطاعت شخصية "المحبش" أن تثير الفتنة علي أجمل فتاتين فى حارة فتحي رضوان جعلت أخوها يزوجها إلى إسكافي ليستر الفضيحة الوهمية وبذلك حبس جمالها فى الأحذية وهجر الجمال الحارة، فعندما شبه الكاتب هزيمة سوريا ومصر أمام إسرائيل وترك

سوريا للجولان ومصر لسيناء بحرب سراويل حيث خلعت مصر وسوريا سراويلهما أمام الإسرائيليين فإني أرى إسرائيل فى كل من "المحبش، وراغب المختار، وكهنة المعبد" فهناك تواز فى المصير يفعله المتسلط دائماً ضد ضحيته والذي ينجح فى أغلب الأحوال لنقص فى مقومات التكامل ينتاب الضحية، هذا النقص نتيجة لانفصال الفكر ومحاولة ابتلاع الأنا للأخر، فسفاحو الأوطان ينتصرون فى كل زمان فحرب الكهنة فى قصة "نفر" علي ترسيخ وإرساء شرعية العقيدة والدين ليجعلوا العامة تلتف حولهم ويجردوا العقيدة من مضمونها وروحها بقتل روح إخناتون التي تجسد روح العقيدة.. أما فى قصة سهر فقد انتصر راغب المختار فى حربه دفاعا عن الشرف وتزويج ابنته لكاظم هو إدعاء كاذب لإرساء شرعية وجود ابنته فى حياة كاظم. وبالرغم من أن فكرة انتهاك شرفه ادعاء مزيف إلا أنه استطاع أن يزوج كاظم من ابنته "وردة" الوردة التي ليس لها رائحة، وفرض دنياه المزيفة الخالية من الحب.. ويرضخ كاظم لمصيره بعد استعلاء على فكرة الزواج لفترة عامين.

وبهذا نجد المتسلط يستغل الحب كمبرر لطمس طابعه الاستغلالي من خلال إحاطة ضحيته بمجموعة من الأساطير تجعله يبدو مشروعاً وطبيعياً فعندما أراد "كي" أخو "نفر" أن يتزوج منها حاول أن يطمس طابعة الاستغلالي من خلال شرعية معينة ولكنه ليس إله حتى يسمح له بذلك وعندما لم يجد بدا من ذلك ذهب لكي يقدمها للكهنة "قرباناً للنيل" ومن هنا استغل "كي" أخته "نفر" تحت شعار الحفاظ على الهوية والعقيدة، ولكن فى الحقيقة هو الحفاظ على السيطرة والتسلط وعندما يضحي "كي" بـ "نفر" فهو فاقد للعقل والحكمة بالإضافة إلى الفقر غير

قادر على العطاء، ولذلك عمل بالمعبد مغسلا للأموات.

أما راغب المختار فجعل من ذهاب ابنته إلى كاظم بالمستشفي وحبها له أسطورة حول انتهاك شرفه وخطيئة أُرتكبت فى حقه، وكان هذا مبررا لتزويجه كاظم لابنته على غير إرادته ليصبح المختار تجسيدا للعبودية المختارة فى حياة كاظم.

لقد استطاع السيد حافظ أن يوضح أن المفارقة بين الماضي والحاضر والمستقبل هي جوهر الحرية الإنسانية، فالمفارقة بين الحب والحرية اتخذت أشكالاً مختلفة عند التطبيق فى ضوء الظرف الاجتماعي والتاريخي بين فتحي رضوان وقصة كل من "سهر وكاظم"، "نفر وإخناتون"، وتذكرني الأخيرة بالتجريب فى المسرح باعتباره تحدياً للثقافة الرسمية والهامشية معاً وخروجاً عليها حيث يجسد إخناتون الثقافة الرسمية وتجسد نفر الثقافة الهامشية، وكيف انتقلت نفر من ابنة نجار إلى قصر فرعون حيث كانت نفر فى توحدها مع فكر إخناتون أكثر تضامنًا من زوجته التي تضامنت مع عقيدة الكهنة الموروثة لانقلاب الفرعون ضد السائد والموروث والتطلع إلي عقيدة التوحيد، وكانت نهاية إخناتون على يد الكهنة و"كي" أخو "نفر" هي نهاية لنفر، فإذا كان جسد إخناتون يجسِّد الدنيا، فروح نفر العطرة تجسِّد عقيدة إخناتون للتوحيد، ومن هنا نصل إلى النقص الذي ينتاب المحبين ليصلوا بمن أحبوا إلى بر الأمان، وهو ضرورة أن يستند الحب إلى فكر تنويري حتى لا يصبح الحب وهمًا زائفًا أو شكلاً بلا مضمون، فقصة "نفر" هي الصورة المثالية لمستقبل "سهر" التي سردتها العرافة "شهرزاد" على "سهر" حتى تتنبأ من خلالها بمستقبلها والتي تحمل فكرة الكاتب عن

الحب والوجود؛ فوجود الحب لا يكمن إلا فى انتفاء الذات ذوبان الجسد من أجل بقاء الروح.. والوجود الحقيقي للحب هو الإيمان بفكرة أن الوجود مستمد من التوحيد، وأن كل الأعمال الطيبة من أجل الله.. ومن هنا جاءت نهاية قصة "سهر" منطقية، حيث اكتشف الأستاذ كاظم بعد استعلائه على زواجه من "وردة" أن السعادة الحقيقية هي الاتصال بالذات الإلهية، وأن يفني ذاته وجسده فى سبيل السعادة الأبدية وأن الجسد شئ نسبي يجسد سعادة وقتية دنيوية فأخذ يمارس حياته ولأول مرة مع "وردة" بصورة طبيعية، أما حرية "سهر" التي ستأخذها علي يد "المنقذ" هي حرية لا تلتزم بشئ لأنه لا معني لوجودها أو حريتها فى وطن آخر غير وطنها فما معني وجودها بدون انتماء، ولا حرية بدون التزام، ولا حب بدون مسئولية، فالمنقذ العريس المنتظر اختيار الأسرة لن يحقق الحرية لسهر وبالتالي لن يكون هو الحب الحقيقي حيث لا حب ولا حرية بلا وطن والتزام ومسئولية، فأمواله لا قيمة لها بدون وطن تنتمي إليه "سهر"

يقول الكاتب: "حب الوطن أكبر خطيئة فهو شئ هُلامي يسكننا ونسكنه رغمًا عنا، لو علمنا أن الله يرث الأرض وما عليها لعشقنا الله فقط".

تجسد هذه المقولة فكرة الكاتب عن الحب والوجود. ولكني أري أن حب الوطن عندما يكون فى المطلق فأنا أعشقه لكي يكون للجميع ولكن لو نظر كل فرد للوطن علي أنه ملك له ما أستطعنا أن نحافظ علي هويتنا وكرامتنا فالحب المفقود يجهله كل من يحاول أن يصنع القيود فى أيدي "سهر" أو يمنع طائر الحرية أن يسكن صدرها فغياب الحب

هو غياب الحرية. ودعاء عصفور الحرية إلى الله من أن ينقذه من الصيادين والصقور وأن يجعل صدر "سهر" وطناً له وأن يعتقه من كونه عصفورًا إلي بشر هو دعاء بأن تصبح الحرية التي نحلم بها ونحن نحلق فى سماء الحب إلي حقيقية تلامس أحضان الوطن وأن يرحمه من البخلاء والصيادين والصقور هو تجسيد للكهنة والمختار وابن الصياد الذي يريد أن يتزوج من "نفر" فهم بلاء لا يسمح للحب بالعيش على الأرض وليس فى كوكب واحد بل فى كوكب الأرض.

يؤكد السيد حافظ فكرته عن أهمية الخلفية الثقافة والتاريخية علي لسان فتحي رضوان من خلال حكاية (الجبرتي) مع محمد علي وعلاقته بالحب والوطن من خلال قصته الشخصية فثقافة الجبرتي هي القرآن الكريم وعلاقته بالحب والمرأة تكمن فى زواجه للمرة الثانية بعد ثلاثين عامًا عندما اكتملت ثقافته عندها عرف الحب وأنجب مستقبلاً من الحرية والحب متجسداً فى أحب أبنائه "خليل"، وعندها لم يفلح محمد علي فى تحويل (الجبرتي) إلى مجرد موظف يحدد مواقيت الصلاة ويكتشف الهلال وحتى لا يدون الجبرتي تاريخ ويوميات مصر اغتال محمد علي ابن الجبرتي "خليل" وبإغتيال "خليل" أُغتيل الحب والحرية من حياة الجبرتي، ففي كل عصر نجد الديكتاتور يحوّل المثقفين بعيداً عن دورهم التنويري لإقصاء الحرية وبالتالي إقصاء الحب؛ فنحن مجتمعات تربت على الإقصاء حتى في ثقافة الجنس نجد ظاهرة "الختان" التي تمنع المرأة من حقها، فمشكلة المرأة هي مشكلة الرجل فى الأساس فكيف يأخذ الرجل حريته حتى تستطيع المرأة أن تعطيه الحب.. إذاً فالحرية والحب مستهدفان على مر العصور وكل من يحاول

التجريب يُغتال جسدياً أو نفسيًا ،ومن هنا نستطيع أن نقول أن مأساة "سهر ونفر" هي فقدان الحرية؛ فالحب المفقود يجهله كل من يحاول أن يضع القيود فى أيدي "سهر ونفر"؛ فغياب الحب هو غياب للحرية والجهلاء الذي يضعون القيود أمثال "المحبش" فى قصة فتحي رضوان هم دائماً متفقين مع النظام السائد ضد الحب والحرية لأنهم فقراء العقل والقلب أمثال "ميثاء" جارة "سهر" التي أرادات أن تساعد التاجر "شداد" فى خطف "سهر" لتزوجها؛ فميثاء عجوز حيزبون فقيرة ناقمة على رفض أم سهر لشداد الغني، كما أراد المختار أن يزوج سهر لتجار الوطن، فالحب البديل المزيف لا يعرف إلا التجار وسماسرة الأوطان والمضللون من الجهلاء وأصحاب القوة والنفوذ.

فنهاية حب كاظم لسهر بزواجه من وردة هو انتصار لأصحاب القوة والنفوذ وانتصار الحب المزيف ليصبح الوطن مقبرة فى شكل وردة وترتفع الروح إلي السماء فلا وجود للحب علي الأرض.

بخطبة سهر للمنقذ وهي تجسيد لهجرة من أحب الوطن من حضن الوطن وروحه العطرة إلى بلاد النفط وتركهم لروح الوطن بعد نكسة ٦٧.



قهوة سادة
"ذاكرة الروح والجسد"
د. وفاء كمالو

كتب المؤلف السيد حافظ بعضًا منه على ضوء القمر، رسم على النجوم قصائده، أهدى الوطن أغنية، فظل ينتظر شروق الشمس، سأل الأرض عن مبدأ الزلزلة، واعترف ضمير الشتاء بأنه هو.. غيمة مثقلة، إذا أُجهشت بالبكاء فإن الصواعق في دمعها مرسلة..

جاءت الدموع إبداعًا ووعيًا وجموحًا ومساءلة، وكان ميلاد قهوة سادة هو وشم ناري على ذاكرة الروح والجسد، فهي ليست رواية عادية.. إنها شرارة ضوء كوني مختصر الزمن العملاق لتبوح وتروي عن العشق والأوطان، والهمس، والليل.. وأساطير التكوين والتوحيد، تلك الحالة الاستثناء التي يفتح بها المؤلف مسارات للدهشة والميلاد، ليواجهنا بملحمة روائية مسكونة بقسوة الأقدار ودعارة السياسة ومراوغات التاريخ، ملحمة تمردت على السائد والكائن وامتلكت وعيها الثائر وقانونها الخاص لتصبح قراراً بامتلاك الذات والحرية.

ترتكز القيمة الأساسية على فكرة ذهبية، رشيقة ثرية.. تسكن أعماق البشر وتروى ظمأ المعرفة للمصير عبر حركة الروح واندفاعات الجسد في كون غامض يلونه الإنسان بالدم والرغبة والأحلام، ليكتب تاريخ القهر والاستبداد، والتمرد والعصيان. وفى هذا انسياق يقفز الماضي إلى قلب الحاضر وتتجاوز الأزمنة حدودها.. فنعلم أن المؤلف يصدق الروح قبل الجسد، يصدق الله والمعرى والمتنبي وجمال عبد الناصر والحلاج، ولا يصدق القمر ولا النساء في المساء، وعبر الاشتباكات الثائرة تكشف الصياغات الشاعرية الدافئة عن أن هناك أوطان مومس وشعوب مومس.. وعن عذابات الوعي بأن الوطن لا يحب الفقراء، نذل مع الشهداء والشرفاء، وأن الغرباء من الحكام ظلوا يضاجعوه سبعة آلاف

عام.

تتكون رواية قهوة سادة من جزأين منفصلين متصلين، الاتصال يبدو وهمًا وحقيقة وألوانًا وظلالًا، الدهشة تسرى في شرايين المعنى، والزمن يراقص الإنسان، لنضيع أمام أحد أهم تقنيات الكتابة الحديثة التي تطرح مفهومًا جماليًا مغايرًا للوجود والإنسان عبر الماضي والحاضر والمستقبل، مفهومًا يبدو شاعريًا روحيًا، لكنه يشتبك بقوة مع إيقاعات العلم الحديث حيث الفمتوثانية والكلونتج والضوء وطاقة الحياة، وتطل بشاعرية كاشفة عن تجربة متفردة تبعث حضورًا طاغيًا يشاغب المشاعر والعقل والأعماق.

قد تكون القهوة السادة طقسًاوعزفًا وبهجة، أو استعدادًا لامتلاك السر والسحر والرغبة، وربما تكون تحققًا وعناءً ورفضًا، أو اندفاعًا إلى الضوء والبوح والمعنى. في هذا السياق يأتي الجزء الأول من الرواية بعنوان "حكاية سهر والعشق والقمر"، حيث البدء والمسارات والمنتهى والعشق والليالي والهوى، وإيقاعات البحث عن حقيقة عابثة تسكن أعماق وطن أدمن القسوة، واشتهى الفرار المجهول.

سهر.. أنثى الليل والبحر والسحر.. ابنة السابعة عشر الساكنة في أحلام المراهقين والرجال، على أبواب الدكاكين في الجبل.. في بلاد الشام كان ميلادها عام ١٩٥٨ زمن الوحدة بين مصر وسورية، وفى يونيو ١٩٦٧ زمن سقوط الحلم العربي، كان صعودها إلى مدارات النضج والاكتمال واندفاعات الوهج، فقد أدركت أن الله جميل.. وأحياناً يمنح أنثى من روحه ومن وجهه ألقًا.. في تلك الليلة تحرك نهدها في الفراش بقلق.. قامت إلى النافذة.. فتحتها، وجدت عصفورًا يرتعش.. أمسكته..

احتضنته، انتفض نهدها الأيمن، أدخلت العصفور في صدرها.. فتدفأ.. انتعش نهدها الأيسر وطرب، أخذت العصفور في حضنها ونام بين نهديها.. يحلم ويسأل الله أن يتحول إنسيًا ولو ليلة واحدة، طاف تحيا له ألف حلم، لو كان بشراً لطاف بها في الفراش حول الكرة الأرضية..

تمددت سهر ونزل شعرها على كتفيها فظللت العصفور.. شعرها غابة من الحرير، يموج بعطر لم يشمه من قبل، لا على الزهور ولا البخور ولا الغابات ولا أي بشر.

كان الرجال مأخوذين بجمال يسهر، وكان أبوها مسكوناً بالرغبة في الخلاص من هذا القلق.. لكن العرافة "شهرزاد" أخبرته أن الصغيرة ستسافر إلى بلاد الذهب لتتزوج ثريا يفتح لها أبواب المدن ونوافذ النور، لذلك ظل الأب ينتظر.. شهرزاد ليست امرأة عادية، هي قديسة ولعوب، مفارقات نبوءات، تراث وميراث وأساطير، هي الحقيقة والخيال، وهمس الليل وجموح الرغبة.

قالوا إن شهر زاد تعرف قصة امرأة جامعها ألف رجل، فحكت عن كل منهم أشكالاً وأوضاعاً، تعرف مدينة العلو والإيضاح في أسرار الليل.. بعض النساء قلن أنها هي التي عرفت ألف رجل، وجلسن أمامها في ذهول، وظلت هي تخفى سر علمها بالعشق والغرام، وتقرأ أكف النساء، وتثير الأقاويل بجمالها الأخاذ، فهي بيضاء عيناها زرقاوان.. تحب سهر، تعلم سرها وتعرف أن عرقها عطر لا يوجد في أي أنثى إلا ما ندر...

تنتمي شهرزاد دلالياً إلى عالم "ألف ليلة وليلة" وتتجه الرواية بشكل عام إلى منطقة الكشف والبوح والاحتفال بالجسد وبهجة الحياة، حيث يرتبط الحسي بالروح في نسيج حريري ناعم يستعصي على القولبة

والتصنيف، وتظل حدائق السرد والوصف تبعث طاقات اختراق الزمان والمكان لتصبح ملامح الإنسان وأسرار التكوين وجدل الموت والحياة، أما شخصيات حكاية سهر والعشق والقمر فقد جاءت واضحة المعالم، كاملة الاستدارة، تمتلك الهوية والإطار التاريخي وتشتبك مع الوعي الاجتماعي والثقافي والتراث والأساطير، ويذكر أن البناء النفسي للشخصيات قد كشف عن مستوى أعمق للقراءة يتشكل فيه نص موازى يبعث تيارًا من الصراع العنيد بين الإنسان والسلطة والتاريخ ومسارات تكوين اللاشعور الجمعي المسكون بالردة والجهل والسقوط.

كان كاظم مدرس اللغة العربية يحب كل الصباحات كي يرى سهر.. يريد أن يتنفس وجودها في الفصل.. في المدرسة.. في الحي.. في القرية.. في الكون.. كان يشم عطرها عن بعد فيقترب ويبتعد، وحين وصلته خطابات أبيه بدعوة أن يأتي إلى دمشق العاصمة، أخبره أن حياة الجبل أجمل.. ففي فؤاده وردة من سهر توشوش له بحكايا الليل والفجر والصبح.

لم يلمس الشاب الأشقر الوسيم امرأة في حياته.. لم يعرف الأنثى، لكنه قرأ كتب الجنس وعرف أراء كولن ولسون، وفرويد والكتاب العرب.. فكان يغلق الكتب وينام يحلم بالخنساء والنساء وسهر.. وفي هذا السياق يشتبك السرد مع السياسة ومعنى الوطن ويرتفع صوت المؤلف وهو يروي عن كاظم الذي أراد أن يكون سياسياً فأصبح معلماً، وتتبلور وجهة نظر السيد حافظ في أن الفلسطينيين والإسرائيليين يحلمون بالعودة إلى فلسطين الوطن.. فمن المصيب ومن الكاذب؟ التاريخ يقول أن الاثنين على صدق.. عاشا بالفعل على هذه الأرض منذ آلاف السنين، فهل

المشكلة صنعها الأنبياء سليمان وداود وموسى أم صنعها الأشقياء من الزعماء؟ أم صنعها وعد بلفور؟؟

وعبر المزج الجميل بين صوت كاظم وصوت المؤلف نلمس عذابات واغتراب الفتى الذي بعثر أحلامه وشحن روحه بين الفصول وعقول التلاميذ وظل يشعر فقط أنه معارض.. ولم يمتلك أبداً القدرة على الكلام. وفي اختراق مثير للمكان ننتقل عبر نفس الزمان من سورية إلى مصر، لنتعرف على فتحي رضوان بطل الرواية وأكثر شخصياتها دفئاً وثراء وخصباً وجموحاً وكبرياءً.. في يونيو ١٩٦٧ كان الفتى مصري الملامح في الثانوية العامة.. يجلس في البالكون ينظر إلى الشارع المقابل ليرى جارته "رغيدة" وهى ترقص عارية أمامه.. يجلس كانت امرأة متفتحة الأنوثة بينها وبينه بحر بعيد من الشبق والرغبة.. وكان يحلم بأن يقفز إلى حجرتها.. وفى يوم ٨ يونيو الساعة ٦ مساءً فوجئ بعبد الناصر يعلن تنحيه، خرج إلى الشارع في محرم بك وظل يبكي، سمع دقات قلب الوطن تلازم دقات قلبه.. أحس أنه مواطن بلا وطن، مشروع كاتب في وطن أمي.. ومثقف وسط أدعياء..

جاء النسيج الروائي مدهشاً في المزج بين الحب والجنس والناس والسيارة والزعماء والوطن.. وأثارت موجات الحقيقة جدلاً عارماً حول مصر وشعبها كما جاءت في كتب المقريزي وابن حزم وجمال حمدان وغيرهم من علماء الفقه والدين والتاريخ، تلك الحالة التي نزعت أقنعة الزيف وفتحت المسارات أمام قراءة حقيقية للواقع والسياسة وعذابات الإنسان.

أعلن فتحي رضوان خليل أنه حتى لو هزمتنا إسرائيل والعالم كله

والأمريكان فهو لن يهزم أبداً؛ فهو روح هذا الشعب العنيد العبيط الغريب الحبيب. الذي يستضئ روحه، ويبعث في الكلمات وردة الحياة.. وكلما حاصره حب الوطن بنيرانه وأسهم حقده وحاول قلته.. هرب منه تحت جلد النساء..

وحين ذهب الى محطة الرمل كانت الشمس مزهوة ببريقها، وكان هو مشدوداً الى بائع الجرائد.. لمح سارتر يبتسم له.. راحت بدلال تلعب بيديها فى أنفه.. شعر أنه انتهى تماماً.. إيليا أبو ماضى يحاصره بكلماته.. أنفاس جبران خليل جبران تحرك قلبه، ميخائيل نعيمة يداعب جبينه.. زوجة النبى موسى تدعو له.. العذراء تباركه وعائشة زوجة محمد عليه السلام تستغفر له.. هبطت فتاة الصورة العارية من الصورة.. تحاول أن تخطفه.. لكن تدخل الأنبياء موسى وعيسى ومحمد وإبراهيم انقذوه بالدعاء الى الله الذى استجاب لهم.. فعادت الى الصورة.

يأتى هذا التيار الفانتازى ليواجهنا بحركة لاهثة.. مشاغبة ومدهشة تقبض على جمرات الفن النارية، وتنطلق رشاقة عبر مسارات الوجود الإنسانى، حيث يلتقى فتحى رضوان مع جده قابيل بن آدم.. يراه وهو يداعب فتاة الصورة العارية، والتى تتجسد له فيعتصرها بقبلاته ويغلق الباب ليغتصبها.. ويظل المشهد الروائى مسكوناً بتيارات الحضور المدهش لكيوبيد، السلطان سليم الأول، الأمريكى المعاصر لويس أبولونيا.. عبد الناصر وبيان ٣٠ مارس ١٩٦٨ للإصلاح السياسى الذى لم ينفذ فيه شيئاً حتى الآن.. تلك الحالة التى تكشف أبعاد شخصية فتحى رضوان، وتنطلق الى إطار أكبر يصير جدلاً مع الماضى والحاضر والمستقبل.

ففى الجامعة فى كلية الآداب ظل فتحى ثورياً وهارباً تحت جلد النساء.. ضيع عمره بين شقاوة الجميلات، وضيع قلبه فى وطن هُزم فى ست ساعات، وأصبح يرتبك كلما قرأ تاريخ مصر المزدوج.

أخبرنا المؤلف أن فتحى رضوان سيكون حبيب سهر بعد خمس عشر عاما.. ورغم بساطة الفكرة الا أنها تؤكد أن الفن هو لحظة استثنائية، ووجود افتراضى منظم بعيد عن الخلل والعشوائية.. وحين تعود الأحداث الى سورية، يدخل عالم سهر حيث أبيها المحارب القديم الذى يمتلك كبرياءً عنيداً، ويؤمن أنه سيدخل الجنة، أمها الجميلة، وشداد التاجر الثرى الذى لفحه عطر سهر وأراد أن يتزوجها.. فهو يشترى النساء كما يشترى الفاكهة.. وفى الليل ينخلع قلب العصفور عندما شاهد جسد سهر المنحوت بيد القدر.. فخبأ عينيه بجناحيه خجلاً لكنها ضمته الى حضنها ونامت. ولم نكن تدرى أن فى عينيها حلم وحكمة لم تولد بعد، ولم تدر أيضاً أن عطرها قد سحر شداد وأنه الليلة لن تنام، وأن كاظم مدرس اللغة العربية يحتاج سيف روميو ورمح دون جوان حتى يتمكن من جسدها ألف ليلة وليلة، فهو يشتاق الى كتابة الأشعار على نهديها.. يحتاجها كموج بحر وزلزلة ويريد أن ينهى هذه المهزلة.

تميزت تقنيات السيد حافظ بالرشاقة والحرفية المدهشة فى السيطرة على أبعاد الزمان والمكان وجاء استدعاء الماضى إلى قلب الحاضر ليبعث مفارقات الوعى والإدراك وتحول تاريخنا الفعلى غير الرسمى إلى تيار من الوهج الكاشف عن بشاعة الحقيقة ووجهها العنيد فتاريخ الوطن بالفعل فى المقاهى لا يجمعه أحد.. ويذكر أن وجهة نظر المؤلف قد تبلورت عبر الرؤى الدالة لمذكرات محمد فريد وسعد زغلول والشيخ

محمد عبده، لتصنع نسيجا روائيا مركبا شديد الدقة والتماسك.
رفض والد سهر أن يزوج ابنته للعريس الغنى شداد.. رفع من وجهه البارودة وطرده مؤكداً أن ابنته ستتزوج من رجل يسافر بها الى بلاد الذهب.. وفى المدرسة جاء العصفور العاشق ووقف على النافذة.. اندفعت سهر بفرح برئ وفتحت، فدخل وقفز على صدرها وتمنى أن نأخذه بين نهديها، وعاش كاظم المدرس الشاعر لحظة مثيرة حين لمح قلب العصفور يذق مثل قلبه بعشق سهر.
جاءت شهرزاد خبيئة الجن الجميل.. جاءت الى بيت سهر.. قررت أن تكشف لها الأسرار.. وقالت لها.. أنت الروح السابعة لنفر.. التناسخ سبعة أرواح وروحك الأولى نفر كانت فى مصر، وكانت روحها تعطر جسدها.. مثلك تماماً وروحك الأولى نفر كانت فى مصر، وكانت روحها تعطر جسدها.. مثلك تماماً فمن هى نفر...؟؟ هذا ما سوف ترويح شهر زاد فى الجزء الثانى من الرواية...

الجزء الثانى

حكاية إخناتون مع نفر

فى مزج مثير بين شهر زاد الأسطورة وشهر زاد الخيال، ينطلق صوت المؤلف السيد حافظ ليأخذنا إلى الجزء الثانى من رواية "قهوة سادة"، الذى جاء بعنوان حكاية إحناتون مع نفر، وفى هذا الإطار يأتى الارتباط بين الجزأين ليخترق منطقة جديدة تموج بالشفافية والخيال والنورانية، وبالبحث العنيد عن الجذور والأسرار حيث الروح والزمن والجمال، وبصمات المعنى ونِفر الروح الأولى لسهر يمتلك هذا الجزء أهمية خاصة على مستوى الرواية المصرية والعربية فهو يأتى كإنجاز إبداعى

متميز يضم وثائق فرعون ونفرتيتى وإخناتون، يشتبك بحرارة مع الضمير الجمعى، يطرح علاقة البشر والسلطة ورجال الدين بالأنبياء حين يُلقى بها على قارعة الطريق.. لنصبح أمام كشف متوهج لبذور الفساد العميقة الممتدة عبر التاريخ..

وعلى مستوى آخر استطاع السيد حافظ فى روايته الساحرة أن يلملم أبعاد ووقائع حكاية إخناتون بأسلوب جدلى لطرح وجهات النظر المختلفة، ليمنحنا إجابات إنسانية لأسرار ما جرى فى مصر فى زمن إخناتون حين بحث عن آتون باعتباره إلها لا شريك له..

قالت شهر زاد.. كان يا ما كان فى سالف العصر والأوان.. فى زمن إخناتون، بنت إسمها نفر.. أحلى بنات طيبة، طيبة القديمة، مدينة المعابد والآلهة.. أسطورة عشق مختومة بالمسك وأجنحة الأحلام المنكسرة على ضفاف النيل.. طيبة التى توشوش الليل والنيل والبحر، ونفر عشيقة القمر وأحلى بنات هذا الزمن، عندما تسير كل صباح بين الأكواخ الفقيرة، كان جسدها يفوح عطراً.

كان أبوها نجار السفن الى تسير فى النيل، تسكن معه فى كوخ بسيط، وأخوها الأكبر "كـى" يريد الالتحاق بكهنة المعبد فى طيبة، لأن سلطتهم أقوى من كل السلطات وحينذاك سينام فى بيت كبير على النيل سيهديه له أحد التجار الأثرياء، وعبر سحر اللغة وبساطة الصياغة يضعنا المؤلف فى قلب أحداث خطيرة، ناعمة يائسة ومثيرة لكنها مرسومة بلغة النقد والجروتك وحرفية الدراما التى منحت الشخصيات أطرها الاجتماعية والنفسية، وحتى تكتمل الأبعاد، يدخل القارئ عالم إخناتون.. نراه جالساً بجوار نفرتيتى يداعب شعرها، يهمس لها أنه هو نجمها

المشع، زفير العشق وشهيق الشهوة، وكان من الجائز أن يوزع قلبه على الفقراء أو يبعث روحه هدية لها.. فهى أم بناته الجميلات وقد تأتيه بالصبى..

وكان الفرعون أمنحتب الثالث والد إخناتون، نمروداً جباراً على الناس أن يصلوا ويعبدوه لأنه هو الإله.. هو الله.. وكان يجعل المصريين ينحنون لقصره الأبيض ما داموا قد شاهدوه، علمهم أيضاًَ النحت والزراعة وبناء المعابد.. ليدخلوا الجنة يوم الحساب، هكذا كل المصريين يبحثون عن العدل فى الخفاء حتى ولو فى عبادة خنفساء، جعران، قطة أو زهرة اللوتس.. كل مصرى إختار لها فى السر..، كموقف مقاومة ضد النمرود الذى حكمهم بالحديد والنار.

ويأتى اشتباك المؤلف السيد حافظ مع تفاصيل المشهد السياسى والاقتصادى والدينى فى زمن النمرود ليواجهنا بمفارقة شديدة التكثيف والدلالة تنطلق الى قلب الحاضر، الذى لا يزال مقيداً بالجهل والزيف والتسلط والقهر، تلك الحالة التى جاءت صياغتها بأسلوب ساحر مبهر ومشوق، وحين نتعرف على إخناتون (أمنحتب الرابع).. يجده كياناً مختلفاً فهو لا يدعى أنه إله، ولا يحب أن يعبد التماثيل، يرى أن الله قوة أكبر من كل شئ، وأن الحرية هى الوجود، كان يحلم بأن يعرف لغة الطير والحشرات وكل الكائنات؛ فمستنقعات النشوى تنبع أزهارها بإشعاع أتون الآخاذ الذى تنشر الطيور أجنحتها فيه.

أصبحت نفر حديث رجال ونساء طيبة.. فتاة ينز جسدها عطراً.. أنثى خرافية أسطورية وواقعية.. عندما قابلها المدرس "باكا" على النيل وقع فى غرامها وشعر أنها ومضة تسللت إلى الحشا، وكما عشق كاظم فتاته

سهر كان هناك عشق سائف بين المُعلم "باكا" والجميلة نفر، أما الفتى "كى" فقد باع أخته نفر للنيل للكهنة ليدخل المعبد ويعيش السلطة والثراء.. أخبرهم أن أخته هى أجمل فتيات طيبة، عطرها يخلب العقول، وستكون للنيل عروساً منيرة.

تتوقف حكاية شهر زاد وينتقل الحدث برشاقة من طيبة فى زمن الفراعنة إلى القاهرة فى السبعينيات حيث فتحى رضوان الضائع بين الثورى والكاتب هزمه موت "جيفارا" وبابلونيرودا.. يبكى بحرارة على صدر "ناهد" ويتساءل فى ألم: يبكي الأنبياء كلهم وآخرهم سيدنا محمد.؟؟ ألم يبك الزعماء كلهم وآخرهم عبد الناصر.. وسألته ناهد لماذا يكتب؟؟ أجابها لكى يحرر ذاته.. فالكتابة عندى خبل وهذيان وحمى الأنبياء، كأنه فى رحلة خارج الزمان والمكان ليكتشف أنه إنسان..

وعبر امتداد الحوار الممتع نتعرف على شئ من تفاصيل تاريخ مصر، وحقيقة أسماء والشوارع التى تسمى أحياناً بأسماء القاتل والمقتول مثل طومان باى البطل، وسليم الأول العثمانى القاتل..

هكذا تنطلق إيقاعات الوعى وتتصاعد حرارة الرقص على هزائم وأسرار الإنسان ونعود الى قصر إخناتون فى طيبة.. نراه يراقب قرص الشمس فى الغروب ويسجد تراه نفرتيتى فتخرج غاضبة، وتأتى الأم الملكة تى.. ترفع رأسه المقدس وتقبل جبينه.. نسأله ماذا يفعل.. يخبرها أنه يصلى الى أتون إلها واحدا ولا شريك له.. فتؤكد أنه لا يخرج من بطانة عقيدة أبيه، وهذا سيفتح أبواب الشر..

فى هذا السياق يتبلور صراع نارى مخيف بين إخناتون الذى يلعب بنار العقيدة المقدسة وبين كهنة المعبد؛ فالدولة مكونة من أربعة أضلاع:

الفرعون والجيش والكهنة والشعب، وإذا فقد ضلع تسقط الدولة من قلب التاريخ الى هامشه.

أخذ اخناتون يبكى فى سجوده.. أخذته أمه الملكة الجميلة تى الى صدرها، حذرته من الكهنة.. وحدثها عن نفرتيتى زوجته التى تهاجمه، عن مشاعره بالخوف من الطعنة التى ستأتى من داخل أسرته وليس من الكهنة، ونصحته بأن يتزوج امرأة تؤازره وتدعمه عندما تجد امرأة غيرها معه. ورغم أن نفرتيتى كانت جميلة الجميلات تعشق ذاتها وحياتها، إلا أن الشعب لم يكن يشعر بها ولا يحبها لزوجها ولا للعرش.. وحين ذهبت تشكو زوجها لأخيه، أخبرها أن البلاد مهددة من الداخل بالتفتت من كثرة الآلهة، ومهددة من الخارج من الحيثيين، لذلك يحاول إخناتون بناء عاصمة جديدة للبلاد هى أخيتاتون.

فى عناق مدهش لتيارات الوعى قال إخناتون أن الكهنة يفعلون كل شئ باسم الآلهة.. ومصر تعبد أكثر من ٤٧ إلهاً.. النيل هو الحضارة والحياة.. والكهنة يقولون أن النيل ذكر ويجب أن نهديه أجمل الإناث كل عام حتى لا يقطع عنا الماء.. الكهنة يقولون أن الخنفساء والجعران والقطة آلهة.. المصريون يبتعدون عن حقيقة الله.. ويعلن إخناتون أنه يرفض الكهنة ولن يتعامل معهم.. لن يكون بوقاً ولا نفيراً.. هو نبوءة من هذه الشمس الزمز الإله الواحد آتون الذى يمنح الحياة والخبز والحب.

هكذا كانت ثورة إخناتون أخطر ثورات التاريخ، فقد عشق مصر المحاصرة بين الكهنة والجيش وآلهة زائفة، وقرر أن يعلن على الرعية أنه ألغى الآلهة ليصبح آتون هو إله واحد.. وهناك فى المعبد كانت

نفرتيتى تسترضى الكهنة بالذهب واللؤلؤ وتدافع عن زوجها.. لكنهم طلبوا منها أن تستعد لتولى الحكم، وفى تلك اللحظة علمت أن إخناتون سيتزوج الآن من الأميرة كيا؛ فسقطت مغشياً عليها.

تمتد الإيقاعات ويتوازى السرد وتشتبك الحكايات والأحداث.. فى سورية كانت سهر تفكر بعمق فى روحها الأولى نفر.. العريس منقذ الذى سيأخذها إلى بلاد الذهب يجلس مع أبيها ليخطبها والزغاريد ترتفع، فسوف تذهب معه الى دبى بعد شهور.. هكذا ظل كاظم مدرس اللغة العربية معذباً باندفاعات القدر بينما كانت وردة الأنثى الجميلة زميلة سهر، مأخذوة بجنون الرغبة فى امتلاك كاظم الذى حرك فى أعماقها نيران الوهج.

لا تزال القهوة السادة هى قبلات للروح كى تنهض.. فتحى رضوان فى الإسكندرية يشربها بجنون، ويسحر ناهد بكلماته عن الوطن والسياسة والزعماء، الثقافة ونجيب سرور ولطفى الخولى واليسار.

ذهبت نفر الى المعبد تبحث عن أخيها "كى" رأتها نفرتيتى وشمت عطرها المثير.. توقفت وسألت الجميلة التى تشبهها عن حياتها، وقررت أن تأخذها الى القصر لتكون وصيفتها، وذات فجر خرج إخناتون ليرى إشراق الشمس.. كانت نفر تراقبه.. سارت خلفه.. سجد الفرعون وبكى.. وبكت خلفه نفر.. سمع صوتها وسألها عمن تكون؟؟ حدثها عن الشمس والإله الواحد آتون.. فآمنت به وبكت..

وفى هذا السياق تظل الرواية كاشفة عن إيقاعات الوعى والخبرة والجمال، وتتخذ الصراعات مسارات مدهشة تتبلور عبر الحضور الأنثوى المقدس، فقد أشعلت كيا الغيرة فى قلب نفرتيتى ودفعتها الى

الإيمان بالإله آتون.. وصلوا جميعاً له.

حور محب هو قائد المحاربين فى طيبة وثقة الفرعون إخناتون.. صارحه برغبته فى هدم التماثيل ونشر عبادة آتون، وحين رأى القائد نفر قفز قلبه من الجليد، وشاغبه الحنين الى النساء.. وحين اقترب موعد وصول حابى بالفيضان أمر الكهنة بإحضار نفر لتكون عروس هذا العام.. لكنها رفضت الموت.. فقد آمنت مع إخناتون بآتون الذى فى السماء. وفى هذا السياق يتخذ الصراع مساراً جامحاً ليصنع لحظة درامية عالية، تشتبك بقوة مع وقائع ما تشهده مصر بعد الثورة..

أشباح السقوط تتراقص حول أحلام الصعود. وتجار طيبة صناع تماثيل الآلهة يجتعون مع الكهنة اللصوص مغتصبى أهالى طيبة ليعلنوا الحرب والنقمة على آتون الإله الواحد الذى يدعو له الفرعون أمنحتب الرادع، وقرروا ضرورة التخلص من الفرعون الذى رفض أن يلقى سهماً الى السماء ليجرح الرب العظيم، ولم يكتف الكهنة بذلك وقرروا أن يشوهوا إخناتون، ويجعلوه عبرة فى التاريخ.. وصنعوا له تماثيل فيها ثدى أنثى.

استطاع المعُلم باكا ان يلتقى بالفرعون ويطلب الزواج من نفر.. كان حفل الزفاف أسطورياً حضرته الملكة نفرتيتى والملكة تى والملكة كيا وإخناتون وكبير الكهنة الملعون.. وفى تلك الليلة لم ينم حور حب قائد الجيش وقرر الانضمام الى كبير الكهنة سوات ضد إخناتون، فرح الكاهن بجنون، فقد أصبح الجميع يداً واحدة ضد الفرعون الذى علم أن نفرتيتى تتآمر ضده فأمر بتحديد إقامتها فى قصر بعيد واكتشف أيضاً أن حور محب يخونه ويفرط فى البلاد.. تلك الحالة التى تنذر بانتهاء العالم وانتصار الشر بالقصر صامت وحزين والملك يصلى ويسأل آتون.

قبل الضربة القاضية كان فتحى رضوان فى القاهرة، التى يراها مدينة عاهرة تسكن خلف المآذن والكنائس لتدارى إثمها.. يلتقى بأصدقائه فى مقهى إيزائيفتش ومقهى ريش بينما كاظم الذى تزوج وردة يعيش مشاعر جديدة، تخلص من سهر وشعر أن وردة أنثاه الجميلة وتذوق شفتيها فى شغف، وأحست لأول مرة بمياه عشق تسرى داخلها.

تأتى الضربة القاضية لتمنحنا إحساساًَ عارماً بالإعجاب بالمؤلف الجميل الثائر الشاعر المتميز؛ فقد تحددت ساعة الصفر لقتل إخناتون فى احتفالات عيد الفصح عند شروق الشمس والصلاة.. بعد خمس دقائق خرج "كى" من الصف وتجاوز الكاهن الأعظم، وبينما يسجد إخناتون طعنه الفتى فى ظهره وقلبه طعنتين.. والتفت الى الكاهن وهو يمسك بالخنجر من يده بطعنه.. فيسقط جثة هامدة.

هكذا مات الفرعون العظيم إخناتون، وعاش الفرعون العظيم سمنغ كارع.. وبكى كبير الكهنة سوات بحرقه وحرارة لكن قلبه كان يرقص فرحاً.

عند دفن إخناتون اختفت الجثة، لم يهتم الكاهن وقال إن قبراً بلا جثة مثل قبر به جثة، وظل السؤال حول إخناتون حائراً؛ فهل صعد إلى السماء أم سرقت جثته.. أما نفر فقد عادت إلى العاصمة القديمة وهى مريضة لا تستطيع الكلام.. زوجها وحبيبها بعيد فى جنوب مصر، وذات صباح جاءت العصافير واندفعت هى الى النيل استجابة لبحر الحنين.. قفزت فيه ولم تخرج، ومات زوجها حزناً عليها بعد شهور.

تمضى الحياة، ويتولى الحكم الأمير الصغير توت غنخ آمون ابن الملكة كيا.. فحكمت نفرتيتى وتى بالوصاية مع الكاهن الأعظم وحور محب،

وقبض على كل من يصلى للإله الواحد، فبلادنا تقتل الأنبياء وتمحو تاريخ النبلاء

أخيراً.. مرت شهرزاد على بيت سهر فسألتها فى شغف.. من هى الروح الثانية يا خالتى شهرزاد، فضحكت وقالت هى بنت جميلة عاشت فى عهد النبى موسى.. اسمها نور.. وغداً نبدأ الحكاية....



بقعة دم على جدار التاريخ
قراءة فى "قهوة سادة"
د. أمجد ريان

ليس مطلوباً من الكاتب أن يقوم بالتنبؤ، ولكن الكثير من أعمال الأدباء لفرط اندماجها بروح الواقع، ولفرط صدقها، تصبح قادرة على التنبؤ بمراحل من مستقبل الوطن، فالكاتب ليس مطالباً بأن يتنبأ بما يمكن أن يحدث للوطن، ولكن المسألة قد تتوقف على اختيار الكاتب لموضوع عمله وشخصياته، وعلى منطق العلاقات التى تطرحها الدراما الروائية فى النص، مما قد يصل دون قصد متعمد إلى شىء من أحداث الغد، وكاتبنا "السيد حافظ" يطرح نصاً يعالج فيه الحس الشعبى الشامى فى المجتمع السورى، وكأنه كان يستشعر ما سيحدث لإخواننا فى سوريا، وبخاصة أن سوريا بلغت اليوم حدًا لا يطاق من العنف والقتل والدمار والمأساة الإنسانية بكافة أشكالها.

الجزء الأول من الرواية عنوانه: "سهر" الروح السابعة"، ثم يضع الكاتب عنوانًا أصغر هو "٥ يونيو ١٩٦٧"، ليذكرنا بهذه النكبة التى جسدها حدث الهزيمة الذى أثر على دول المواجهة تأثيراً عظيماً، وغير مجرى الحياة العربية، بعدما أحدثت النكسة صدمة هائلة للأمة ولملايينها التى لم تصدق ما حدث، وقد كانت هذه الحرب المعاصرة مدعاة لإثارة التساؤل والتأمل والدهشة، فقد انهارت منظومة كاملة من الدفاعات، والمعاهدات العسكرية المشتركة أمام دولة صغيرة الحجم كانوا يسمونها دويلة، دولة ذات طبيعة عدوانية منذ نشأتها، وسر الدهشة هو كيف لم تستعد دول المواجهة للدفاع عن أرض وطنها وكرامة شعبها، بالرغم من الخطب والأناشيد الحماسية الرنانة التى كانت تهدد بإلقاء إسرائيل فى البحر!! وبالرغم من علو صوت شعارات من مثل : (يا أهلا

بالمعارك)، وبعد أن أخذ الإعلام الحكومى يعلن من خلال الإذاعات والصحف عن إسقاط الطائرات الإسرائيلية، ويدلى بالبيانات الثورية، ولكن على الأرض كانت الكارثة التاريخية تتحقق بأسوأ صورها.

ثم ينقلنا الكاتب بعد عنوان "الخامس من يونيو" ليضعنا مباشرة فى الشطر الشامى من وطننا العربى، لذلك نستشعر كما لو كان هذا التاريخ للنكسة قادرًا على جمع الروح العربية فى كافة الأقطار، وكأن التفاصيل المحكية تنتمى لكافة الأقطار العربية معاً. ولا يستطيع العرب أن ينسوا هذه النكسة التى أثرت عليهم جميعًا، بعد أن شن العدو الصهيونى حربًا عدوانيةً غاشمةً استهدفت ثلاثة من الأقطار العربية هى: مصر وسوريا والأردن، أطلق عليها وصف "الحرب الثالثة" لأنها كانت ثالثة الحروب بين العرب وإسرائيل، الأولى فى عام النكبة ١٩٤٨، والثانية فى أثناء العدوان الثلاثى فى عام ١٩٥٦ وقد جاءت الحرب فى اللحظة التى كانت الأمة العربية تعيش فيها أوج مجدها ومدها القومى، ليضرب الصهاينة وبعمق مشروع تحرير فلسطين.

وتبدأ السطور الأولى من الرواية بلحظة درامية ونفسية شديدة الوطأة، فالصبية الجميلة "سهر" ابنة إحدى القرى العربية الشامية، تعيش حياتها كما تعيش كل صبية فى أية قرية عربية، وفى ذات مرة، وعلى حين غرة، تكتشف بقعة دم حمراء فى ثوبها فتخاف وترتعد، فقد فوجئت الطفلة البريئة بالمسألة دون سابق إنذار، فوجئت ببقعة الدماء النازفة من مكان حساس، وهى ككل طفلة لا تمتلك أى سند معرفى، أو حتى مجرد تفسير، وهى متأكدة أنها لم تجرح، وقد تعتقد أن هذا النزف لابد له من سبب خطير، وأحياناً تصاب الطفلة فى المجتمع العربى بالهلع،

أو تصرخ، وأحياناً يجبرها مكان النزف المحاط بالأسرار على أن تدفن مأساتها وتكتم فضولها وتنتظر المجهول، والأطفال بشكل عام يخافون من منظر الدم. وهناك الكثير من الممنوعات والمحظورات والتابوهات تخلقها الأسرة العربية حول البلوغ الجنسى لبناتهم، وهذا بالتأكيد سيدفع البنات نحو صراع نفسى شديد ما بين الخوف والخجل، ويتم انتقال المسالة من جيل إلى جيل، فتستمر الأسرة العربية داخل المأساة نفسها دواليك، وهذه الطفلة ستمارس السلوك نفسه مع طفلتها فى المستقبل.

ولكن عندما جرت "سهر" إلى أمها مهرولة، قابلت الأم هذا الخوف بزغرودة عالية الرنين، فقد بلغت "سهر"، وأصبحت طفلتها ذات الاثنى عشر عامًا أنثى من الإناث اللائى يتفتحن مبكراً، وحالة الدراما الغنية فى هذا المشهد ناتجة عن هذا التضاد بين الخوف والرعدة من ناحية، والفرح والبهجة والزغاريد من ناحية أخرى.

وبلوغ الطفلة فى مجتمعاتنا العربية بشكل عام مسألة حساسة وخطيرة لأن البلوغ عملية ديناميكية مستمرة وليست وظيفة مؤقتة، ولا تزال الدورة الشهرية فى المجتمع العربى من التابوهات المرعبة، وقد اخترعت لها النساء أسماء غريبة، وإشارات تنتمى للريبة؛ ففى مرة تسمى الدورة برمز للمعنى المجهول وهو الحرف الأجنبى "X"، وفى مرة أخرى تسمى بلفظة إنجليزية **Period** بسبب الخجل والرغبة فى المداراة كما لو كانت شيئًا أقرب إلى العيب الذى يدعو إلى الخجل.

والمعنى السياسى ـ وكما هو واضح أمام القارئ ـ مندمج بقوة بهذا العمل، برؤاه الكلية الكبيرة ، وبتفاصيله الدرامية الصغيرة ، وقد شهد العصر الحديث هذه العلاقة القوية بين الإبداع الروائى والأيديولوجيا،

وهى العلاقة التى أثرت الكتابة، وأكد هذا عدد من النقاد التقدميين الذين أعادوا تقدير قيمة الشكل فى العمل الروائى، وحريته فى تصور واقتناص طبيعة مجتمعه الخاص، ولا ننسى فى هذه الطريق كتابات: "تيرى إيجلتون"، و"ماشيرى"، و"لوى التوسير"، وغيرهم، وهم الذين اعتمدوا عناصر هامة استمرت فى الدراسات والنقد الأدبى حتى الآن من مثل: التناص والتاريخ والمجتمع، وتأثر هذه العناصر فى المراحل الحديثة بالمنطق الأيديولوجى.

ثم عرفنا بعد ذلك اتجاهات النقد السوسيولوجى الذى يعالج كافة الأبعاد الاجتماعية والسياسية والأخلاقية فى الرواية، وهى اتجاهات تؤكد تأثير الأدلجة على فنية الرواية وتغذيتها لها، لأن حركة الفكر تحدث بالضرورة تأثيراً قوياً فى البناء الفنى، أو بلغة أخرى الحراك الفكرى يوجد دائمًا حراكًا فنيًا موازيًا يطور التجربة، ويؤكد هويتها السياسية، وكل هذا صار يندرج داخل علم الاجتماع الأدبى على أيدى منظريه البارزين، ومنهم: "لوسيان جولدمان" و"روبيراسكاربيت" و"بيير زيما".

والتوجه الأيديولوجى فى هذه الرواية ـ وكما سبقت الإشارة ـ يبدأ من دلالات العمل الروائى الكلية، وينتهى عند أصغر التفاصيل، وعلى سبيل المثال فالفتاة "سهر" تراقب أبيها وهو يبكى يومى ٨ و٩ يونيو، وهو يرى الزعيم "عبد الناصر" يتنحى، بعد أن قال كلماته التى لن ينساها التاريخ، من خلال بيانه إلى الشعب والأمة بإعلان التنحى عن رئاسة الجمهورية، وقد ألقاه من مبنى الإذاعة والتليفزيون بالقاهرة فى التاسع من شهر يونيو فى عام ١٩٦٧ وقد جاء فيه: [ولقد اتخذت قراراً أريدكم جميعاً أن تساعدونى عليه: لقد قررت أن أتنحى تمامًا ونهائيًا عن أى

منصب رسمى وأى دور سياسى، وأن أعود إلى صفوف الجماهير، أؤدى واجبى معها كأى مواطن آخر] وكان "عبد الناصر" يعبر من خلال هذا عن تحمله المسئولية التاريخية عن الهزيمة، ولم يكن والد "سهر" فقط هو الذى تأثر بهذا التنحى، ولكن حدث رد فعل عنيف على بيان التنحى على المستويين المصرى والعربى، وقامت مظاهرات عارمة فى القاهرة يومى ٩، ١٠ يونيو تطالب باستمرار عبد الناصر فى الحكم، أما مجلس الأمة ومجلس الوزراء فقد رفضا قرار التنحى، فأصدر الرئيس عبد الناصر بيانًا آخر فى يوم ١٠ يونيو، جاء فيه : [إننى سوف أبقى حتى تنتهى الفترة التى نتمكن فيها جميعاً من أن نزيل آثار العدوان] .

وتضعنا هذه الرواية فى حالة من الرومانسية الثورية، وكان المصريون جميعاً ممتلئين بهذه الحالة، ومن المعروف تاريخياً أنه اذا فقد الثائر رومانسيته، تموت الثورة في صدور الرجال؛ فالثورة حالة عشق طوباوية جميلة يتّحد فيها الثائر مع فكرة الثورة بشكل عقلانى وعاطفى معًا، وتحب الثورة دائمًا أن تطلق نفوس الثوار على سجيتها، والثائر يكون مندفعًا لتحقيق هدفه بعقله وبقلبه معًا.

وتعمل هذه الرواية على تقديم جوانب متعددة، بل ومتضادة أحيانًا، فى الوقت نفسه، لكى تؤكد هذه الروح الواقعية الحية، وكأن كل مقطع يقدم شريحة فعلية من الحياة، وأم "سهر" امرأة جميلة كما تقول الرواية، ولكنها منذ البداية، ومثل القاعدة الأعم للنساء العربيات تؤمن بالجانب الغيبى كأحد أساسيات الحياة التى تعيشها.. ولم يكن غريباً إذن أن تذهب بابنتها إلى العرافة "شهرزاد"، وتقول لها: (البنت صارت أنثى)، فتزغرد "شهرزاد" وتنثر عليها بخورًا به "حبهان" و"عين الشيطان"

محروقان فى النار.. وعلى الرغم من تطور الأساليب الطبية المتقدمة تكنولوجيًا والأجهزة العلاجية الحديثة، إلا انه مازال هناك وجود للطب الشعبى وطرائقه العلاجية، ليس بسبب نجاعة الطب الشعبى، أو بسبب فائدته العلاجية الفعلية، ولكن الأمر متعلق بجوانب دينية وثقافية، وبجوانب اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية فى الوقت نفسه. والممارسات الشعبية تكشف دائمًا عن تلك القوى الروحية الكامنة، والتى يمكن أن تتجسد أيضًا فى الغيبيات السردية بين العوام، وفى قصص البطولات والملاحم الشعبية، ويتجسد فى ذلك السلوك الجمعى الذى يرتضيه الناس استجابة لظروفهم الحياتية ومتطلباتهم وحاجاتهم، مما يمكن أن نراه فى الاحتفال بالأولياء وبالموالد، وفى كل العادات الشعبية المرتبطة بدورة حياة الفرد من خلال الممارسات الحياتية المتعلقة بالوجود، منذ الميلاد حتى الزواج، ثم الموت.

وبعد أن تمر الأيام والشهور والسنوات، تكبر "سهر" لتنتقل من مرحلة الصبا إلى مرحلة الشباب المبكر، فقد صارت فى الخامسة عشرة من عمرها، ولأن هذا العمر هو عمر يفيض بالرومانسية، فهى تستيقظ فى فراشها، وتتجه إلى النافذة مباشرة، وتفتحها فتجد عصفوراً يرتعش، فتمسكه وتحتضنه فينتفض نهدها، وتدخل العصفور إلى صدرها ليتدفأ فى مشهد رومانسى خالص تتعمده الرواية لكى تثرى الروح الواقعية التى تريد أن تتضمن كل لحظات حياتنا الفعلية، وحياتنا الفعلية بالضرورة لابد أن تتضمن هذه الأوقات التى تنتعش فيها الرومانسية، لأنها أحد مطالب الإنسان الأساسية، وبخاصة في مرحلة البلوغ والمراهقة.

لقد كبرت "سهر"، وفى كل صباح كانت تطالع وجهها الفاتن بشكل مبهر فى المرآة.. لقد زاد جمالها، حتى لو أن فتنتها وزعت على كل النساء العابرات فسوف يفتتن رجال العالم العابرين.. إنها فتاة نشطة محبة للحياة، تمارس حياتها اليومية بحماسة بالغة، ففى أقل من نصف الساعة بعد استيقاظها وتركها الفراش، تكون قد أنهت كل المهام التى تنتظرها، تكون قد أنهت غسيل وجهها، وإطعام الدجاج والبغل والحصان، وألقت بعض الغلات للعصافير والحمام واليمام، ثم تتجه إلى المدرسة.. ص١٩ .

والرومانتيكية بالطبع جزء لا يتجزأ من صميم حياتنا الفعلية، ليس فى مرحلة المراهقة فقط، بل على امتداد الحياة كلها، وكل إنسان سيجد أن حياته ليست سوى مزيج من لحظات متعددة، أو أبعاد متعددة، والرومانسية الخالصة هى واحدة منها بالتأكيد، والحياة جماع للحظات متباينة وجوانب مختلفة بين البعد الرومانسى، والبعد العملى، والبعد الروحانى، والبعد المادى، وهكذا.. والتنوع فلسفة الحياة التى تعبر عن الانفتاح على كل شىء، والتفاعل مع كل شىء لتحقيق جدلية ذات طبيعة شديدة الخصوصية، ومسألة التنوع تطرح ثراء التفكير، وثراء الأحداث، وتلغى أساليب الفهم البالية التى توحد بين معطيات الوجود توحيدًا تعسفيًا مثاليًا، يفقد الإنسان قدرته على الفهم، ولكن فلسفة التنوع عميقة تتأسس على دعائم إبستمولوجية جديدة، وتنتج معقولية واقعية تتناسب مع ما يدور حولنا فى الحياة اليوم، وترفض الفكر الأحادى المبطن بأشكال مختلفة من القهر، وفى النهاية سيكون هناك فهم جديد للتعامل مع الواقع ومع المعطيات العلمية المعاصرة.

ثم تمعن الرواية فى الحس الرومانتيكى عندما تقدم "سهر" بعدِّها نموذجًا للجمال الساحر الذى يسيطر على كل شىء من حوله ("سهر" اسم يعرفه الليل والبحر والشجر وأحلام الشباب المراهقين والرجال العجائز على أبواب الدكاكين والمحلات فى الجبل فى بلاد الشام ص١٥)

ونلاحظ هنا بقوة ملمحًا رومانتيكيًا أصيلًا ناتجًا عن مزج معطيات الطبيعة: (الليل، البحر، الشجر) بالمعطيات الآدمية: (أحلام الشباب المراهقين والرجال العجائز على أبواب الدكاكين)، والمزج بين الطبيعة والإنسان كان الملمح الأساسى لكل رومانسية عرفها الفكر الجمالى فى كل مكان.

وتستطيع "سهر" أن تسيطر على قلوب الرجال ببساطة ويسر بسبب حسنها وجمالها الفياض، لأن صباها وأنوثتها ورقتها ترسل بإشارات كهرومغناطيسية مفرحة لا تتوقف، إشارات إلى كل الاتجاهات. يقول أحد الأثرياء فى المنطقة التى تسكن بها "سهر": (أقسم بالله أنا على استعداد أن أدفع وزنها ذهبًا ـ ص ١٦) .

ونموذج الأنثى الجميلة ساحرة القلوب معروف فى مجتمعاتنا العربية، فالأنثى تظل تمتلك الجاذبية والجمال والغموض والقوة بهدوئها ووداعتها أحياناً، وبحيويتها وحركتها فى أحيان أخرى. ولكن دائماً يظل للأنثى ذلك السحر الخفى، وذلك الحضور القوى بجاذبيتها وعاطفتها التى تحمل كل هذه القدرة على التأثير.

ولكن العرّافة "شهرزاد" كان لها رأى آخر فى مجال تقييم جمال "سهر"، فقد قالت أنها ستسافر إلى بلاد النفط، وسوف تتزوج من رجل

ثرى، وهناك ستفتح لها المدن ألف نافذة نور لكى تتمرغ فى الذهب، وأبوها صار ينتظر هذا الفارس القادم لترحل معه "سهر" على سفينته، وقالت العرافة أيضاً أن علم السفينة التى ستحمل "سهر" إلى خارج البلاد سيكون شمسًا وقمرًا. ليس هذا فحسب، بل ضربت "شهرزاد" حصارًا على "سهر"، فهى تريد أن تمتلك جمالها، وتفرض عليه وصايتها، وهى لا تريد لرجل أن يقترب منها، وما أن تعلم أن رجلًا من الحى، أو من القرى أو المدن القريبة قد تجرأ وطلب يدها، حتى تهجم عليه، فتقرأ كفيه، وتقول له محذرة:

"لا تقترب من "سهر"، فهى عشيقة القمر، ومن يتزوجها يصاب بالعمى (ص١٩).. وكان الكثيرون يصدقونها ويهربون!

لقد ظل العرافون ـ ومازالوا بنسبة كبيرة ـ جزءًا لا يتجزأ من تكوين مجتمعاتنا العربية. ولا يزال البسطاء والشعبيون والفقراء يحتمون بالعرافات وقارئات الكف والطالع، كما لو كان ذلك يمثل إنقاذاً لهم بسبب ظروفهم الاقتصادية الصعبة، والمسألة ليست وليدة التو واللحظة بل القضية أبعد من ذلك بكثير، وجذورها يمكن أن تعود للعصور السحيقة، حينما كان الناس فى العصر الجاهلى يضربون السهام ويقدمون النذور للآلهة كى تغير ظروفهم وتعدل مسارات حياتهم، بل ويمكننا أن نصل إلى مراحل أبعد فى القدم منذ بداية البشرية.

وقضية الرجوع للعرافين تتصف بها كل شعوب العالم وليست حكرًا على منطقة أو مجتمع بعينه. ولعل العوامل الاقتصادية بالإضافة إلى عوامل أخرى من مثل عجز الطب العصرى عن علاج كثير من الأمراض، وبسبب ارتفاع الأسعار وعدم قدرة الفقراء على الاستفادة منه، قد أوجد

كل ذلك، وغيره، فرصة كبيرة لانتعاش الغيبيات بكل أنواعها، وارتدت المجتمعات العربية إلى ما وراء الحقائق المنظورة، وإلى عالم الجن والقوى الخرافية، حتى صار البسطاء يستسلمون لتأثيراتها، بحثاً عن النجاة فى عالم قاس لا يرحم.

و"شهرزاد" العرافة الحسناء، بيضاء وعيناها زرقاوان، وعلى ذقنها وشم أخضر، وهى نموذج للعرافة المتمكنة من قلوب النساء، ولها مكان رئيسى فى حياتهن.. والثقافة العربية بشكل عام لم تغب عنها القضايا الغيبية طوال التاريخ، وتربط "شهرزاد" بين مجالات تنبؤاتها من ناحية، وبين الجنس وفنون العشق والغرام من ناحية أخرى، وهى خبيرة خبرة موسوعية بالأوضاع وبالأسرار وبالخصوصيات، يلتف حولها النساء ويشتكين ضعف أزواجهن فى الجسد والغرام، وهى تستمع لهن، وتطمئنهن، وتريحهن، وتخبرهن بالعلاج، بل وتتوسع فى قضايا الإنجاب، فتخبرهن كيف ينجبن الذكور دون الإناث. وهى لفرط معارفها تظل تحكى عن أسماء النكاح وأساليبه وأوقاته، فتجذبهن وتذهلهن بثقافتها الحسية، وهى قد ورثت عن أبيها مكتبة كبيرة تحوى كتب الشيخ الإمام "جلال الدين السيوطى"، وكتاب "ابن حزم" طوق الحمامة فى فن النكاح، وغيرها.. وهكذا خلبت "شهرزاد" لب النساء، وشغلتهم كثيراً، فظللن يتحدثن عنها بلا انقطاع، فقلن عنها: قديسة، وقلن: لعوبًا، وقلن: تزوجت من ألف رجل.. وقلن تزوجها جنى جميل، ومنع كل الرجال عنها، فهى عرافة الجن، يمدها عشيقها الجنى بالسر.. وبأسرار كل البشر. ص١٨ وقلن، وقلن، وقلن، والناس دوماً تقول. البشر يحبون إطلاق الأقاويل، بل ويميل الإنسان إلى نقل الإشاعات والأخبار الغامضة،

كما لو كان يعبر بهذا عن حبه لاستقصاء المجهول، **وكشف الأسرار، مستمتعًا بنقل الأخبار الغامضة، ومن هنا سيكون تقبل الشائعات ونشرها، وخصوصًا تلك التى تغطى المناطق التى يجهلها البشر، أو تلك التى يمكن أن تحدث دوياً، لتشبع رغبته فى خلق الدراما.. وبهذا احتلت الشائعة منذ القدم حيزًا مهمًا من أنشطة المجتمعات البشرية. وصارت القضية الآن علمًا يتتبع كيف تنشأ الشائعة وتتغذّى، وما هى أنواعها، وعلاقتها بتطلعات الناس الاجتماعية والإنسانية، وخصوصاً ما يتعلق بأحلامهم واحتياجاتهم ومصيرهم.**

***

ومن جهة أخرى - ومن الباب السياسى الذى تمعن فيه الرواية - يمكن عد "سهر" رمزًا للوحدة المصرية السورية، فقد ولدت فى فبراير من عام ١٩٥٨ يوم ١٢ رجب ١٣٧٧، وهو اليوم الذى تم فيه الاتفاق على الوحدة بين مصر وسوريا، وهى الوحدة التى وصفت بأنها ما يغلبها غلاب، على حد قول أغنية شهيرة أذيعت فى هذا التوقيت بعد الوحدة مباشرة، بعد أن أصبح لمصر وسوريا اسم جديد هو "الجمهورية العربية المتحدة" ليصبح "جمال عبد الناصر" زعيم الدولة الجديدة المكونة من البلدين، وقد أطلق حينها على "شكرى القوتلى" لقب "المواطن العربى الأول"، ورغم أن الرئيس "جمال عبد الناصر" كان يريد اتحادًا لا يقوم على الدمج، ولكن ظروف سوريا، واضطراب الأوضاع فيها بسبب السياسات التسلطية التى كان السوريون يعيشون فيها، جعل الشعب العادى يريد التخلص من هذه السياسات عن طريق الاندماج مع مصر،

وأصبح اسم البلدين "الجمهورية العربية المتحدة"، والقاهرة صارت العاصمة.

وكانت مصر قد خرجت بانتصار سياسى فى عام ١٩٥٦ بعد فشل العدوان الثلاثى عليها، وهنا بدأت مخططات جديدة بهدف تحقيق ما عجز السلاح عن فرضه، وأصبحت منطقة الشرق الأوسط محور صراع سياسى شديد الضراوة بين الغرب وقوى التحرر العربية، على امتداد مرحلة المد التحررى العربى الذى ساندته مصر بكل قواها فى اليمن، وفى الخليج، وفى جنوب شبه الجزيرة العربية. وعلى حد قول "هدى عبد الناصر"، فإنه بالرغم من استمرار قطع العلاقات الدبلوماسية بين مصر وبريطانيا منذ العدوان الثلاثى فى1956 فإن الوثائق البريطانية تحتوى على معلومات مهمة توضح اهتمام بريطانيا، والغرب عمومًا، بتتبع عملية الوحدة بين مصر وسوريا، مما يبين مدى خطورتها على المصالح البريطانية والغربية فى منطقة الشرق الأوسط، وأخطر ما فى هذه الوثائق البريطانية المتعلقة بالوحدة المصرية السورية: التفاصيل التى ذكرت عن مخططات الدول الغربية، لمنع انضمام أى من الدول العربية الأخرى إلى دولة الوحدة.

وإذا تتبعنا وقع أحداث الوحدة بين "مصر" و"سوريا" على أسرة "سهر"، سنجد أن أباها سيفرح فرحًا بالغًا فى لحظات قيام الوحدة، ثم سيتأثر تأثرًا شديدًا أيضًا بعد ذلك، حين يحدث الانفصال، حتى أنه سيبكى مثل الأطفال!! وكان الانفصال قد وقع فى ٢٨ سبتمبر ١٩٦١م، بتدبير عسكرى قام به عدد من ضباط الجيش السورى بدعم بريطانى سرى، فانفصمت عُرى الوحدة، وقوبلت المسألة بالطبع بارتياح بالغ من قبل

بريطانيا والدول الغربية، بعد أن أجهضت واحدة من أهم التجارب السياسية العربية فى العصر الحديث.

ثم تعرفنا الرواية بشخصية "كاظم" وهو معلم "سهر" فى المدرسة، وعاشقها الرومانتيكى المهذب الوسيم، الولهان، لم يتجاوز عامه الثلاثين، يحب كل الصباحات لأنه يرى فيها حبيبته "سهر"، وهو يريد أن يتنفس وجودها فى الفصل، وفى المدرسة، وفى الحى، وفى القرية التى يعيشان فيها، بل وفى الكون كله. وعقل الإنسان العربى يعج بالمعانى الأسطورية عن الحب، حيث المحبوب مرسوم بمفردات من الطبيعة كالقمر والبحر والورد والسماء والشمس والفراشات والطيور والمطر، وهى عبارة عن صور تركز على جمال الحبيب، حتى أن الحبيبين يبذلان مجهودًا كبيرًا فيما بعد لإعادة الحب من السماء إلى الأرض، أو إعادة الحب من المثالية إلى الواقعية.. ومن المعروف فى المجتمع العربى أن الرجل ضعيف عاطفيًا أمام المرأة، يتغير كثيرًا حين يجلس معها، أو يكون محط نظرها، فيبالغ فى مجاملتها، أو يسعى للفت انتباهها، وغالباً ما يعشق الرجل كل امرأة تهتم به، أو تكون قريبة منه مكانيًا، أو علائقيًا.. وتدرك المرأة دائمًا أن الرجل الذى يحبها لا يتوقف عن الاهتمام بها والغيرة عليها وملاحقتها، وتقديمه كل أشكال المودة لها.. كما يظل للجانب الجنسى سطوة خفية، وهكذا يصبح للحب وجهان فى المجتمع العربى: جانب مثالى معلن، وجانب حسى خفى.. ويعيش المحبون والعشاق هذه الازدواجية القدرية التى يضطرون إليها فى ظروف واقعنا.

وتقدم الرواية هذه السطور العاطفية التى تفيض بالرومانتيكية النقية، وهى مشاعر "كاظم" تجاه تلميذته "سهر":

[لا تتركينى بين ظنونى القاتلة.. أنا قلبى عصفور يطرب كل الطيور ولكن اللحن من قلبك أنت وروحك أنت وعطرك أنت.. وغيابك موت بطىء ص٢١] .

وعلى الرغم من إغراءات أبى "كاظم" المستمرة لكى يترك ابنه هذه القرية، ويترك وظيفة التدريس، ويرحل إلى العاصمة حيث جهز له أبوه عروساً جميلة، هى ابنة العم، ولكنه يرفض لأن قلبه قد تعلق بـ "سهر"، ولا يستطيع أن يتركها، فقد غرق فى حبها. وعندما تكون كراستها فى التعبير الإنشائى أمامه يحس أنها توشوش له بحكايا ليلها، ويرى الفراشات والأزهار المرسومة على الكراسة كأنها رسالة حب بلا عنوان، إنه يحبها حبًا عنيفًا يجعله يراجع قضية الحب بين الرجل والمرأة، ويقرأ الكتب التى تشرح قضايا الحب والجنس: يقرأ "كولن ولسون"، و"فرويد"، ويطالع الدراسات العربية والغربية. ويبدو أن "سهر" أيضاً بدأت تميل لمعلمها، وتبادله حبًا بحب، وبخاصة بعد وصايا العرافة "شهرزاد" التى أشعلت قلبها وجسدها بنار الحب، وبدأت تعلمها فنون العشق وتقدم لها الوصايا:

[إن عطرك سيصيب الرجال عبر الهواء بدوار.. وهواء بحر عشقك نار فى روح الرجال.. اجعلى قلوبهم تطير وتصعد حتى سابع سماء.. عشقك سيهزم الرجال.. وهوى قلبك لن يعرف هزيمة. ص٢٧]

وهكذا ظلت توصيها، وتحذرها من الرجال الذئاب من مثل المختار "بسام" زير النساء، وظلت تقدم لها نصائحها الغالية الصادقة، لأنها

أحبتها من قلبها، ولأن جمالها الأخاذ يذكرها بشبابها، وبسحرها الذى كان يشد قلوب الرجال.

وهكذا تعبر القصة الغرامية عن حب عاطفى كبير، يدفع "كاظم" ليس لمراجعة العلاقة بين الرجل والمرأة فقط، بل يراجع قضايا الوجود، والفكر والصراع العربى الإسرائيلى!!، ويتأمل الحكومات العربية وكيف أنها نجحت فى جعل المواطن العربى يكره وطنه، ويبحث عن وطن آخر، فيتذكر قول الإمام "على" رضى الله عنه: [الفقر فى الوطن غربة]، ويتأمل "كاظم" فى النهاية وضعه، بعد أن بعثر أحلامه بالوطن، وسجن نفسه بين الفصول، وبين عقول التلاميذ، وأصبح مثل السجين، وبعد أن صار ضائعاً، ورغم أنه معارض للنظام لكنه لا يستطيع أن يفتح فمه، أو يعبر عن كونه معارضًا، وهذا بالفعل حال المواطن العربى البسيط، المواطن المأزوم الذى تعصف به السلطة، وكأن الرواية تمكنت من أن تتنبأ بما سيحدث فى القطر السورى الشقيق، الذى يتعرض فيه البسطاء اليوم لأبشع أشكال العصف والقتل والتشريد.

<u>المصادر:</u>

السيد حافظ ـ قهوة سادة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ٢٠١٢

أمجد ريان ـ صوت صارخ فى الشوارع (قراءة فى أعمال إدوار الخراط) الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨ .

بسام بركة ـ النص الروائى: المعنى وتوليد المعانى.. الفكر العربي المعاصر العدد ٤٢ تشرين الثاني/كانون الأول ١٩٨٦ .

تيرى إيجلتون ـ النقد والأيديولوجية ـ ترجمة وتحقيق فخرى صالح ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ١٩٩٢

حميد لحمدانى ـ القول الروائى ـ المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر ـ بيروت ـ ٢٠١١.

بنية النص السردى (من منظور النقد الأدبى) المركز الثقافى العربى للطباعة والنشر، بيروت ـ ط٠٣ ـ ٢٠٠٠.

فاروق خورشيد ـ عالم الأدب الشعبى العجيب ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧.

محسن جاسم الموسوى ـ رواية النص، خطاباً نقدياً فى الكتابة العربية المعاصرة ـ ضمن الإبداع الروائى اليوم ـ مؤلف جماعى ـ دار الحوار للنشر والتوزيع سوريا ـ ١٩٩٤ .

مراد عبد الرحمن مبروك ـ آليات السرد فى الرواية العربية المعاصرة ـ الهيئة العامة لقصور الثقافة ـ سلسلة كتابات نقدية (١٠٠) .

هدى جمال عبد الناصر ـ الوحدة بين مصر وسوريا ـ موقع النهى:

http://alnoha.com/mu8alat13.htm



تأملات في سرديات السيد حافظ نموذجاً رواية " قهوة سادة "

بقلم

د. إبراهيم بوخالفة

"قهوة سادة" هي رواية عربية للكاتب المصري المعاصر السيد حافظ. وهو عمل إبداعي يتمتع بفرادة وتميز قلما يجتمعان في عمل واحد، ولأيّ كان من المبدعين الحداثيين أو المابعد حداثيين.

تتوزع الرواية على ثلاثة برامج سردية، وكل برنامج يستبطن ثراء تيميا لافتا، يتعين على الناقد الحصيف إجراء حفريات نقدية بالغة العمق والأصالة من أجل الكشف عنها. ذلك أنّ الروائي قد عمد إلى التكثيف الرمزي بالغ الخصوبة، من خلال الاستعانة بالأسطورة، والتاريخ الحديث والغابر، وبنفس المستويات من العمق.

إنها مقاطع تتعالق في مرحلة أخيرة على مستوى معنى المعنى، وإن كانت على مستوى الشكل الهندسي متداخلة تتناوب التجلي والخفاء. تفككها الظاهري هو تفكيك لمدارك الذات العربية الموزعة بين وجود وهمي طوباوي، يتحقق على المستوى الاستيهامي، ووجود فعلي إشكالي إلى حدّ بعيد. إن تداخل المشاهد الروائية وتشابكها العنكبوتي ذو دلالة عميقة. فالشكل في حدّ ذاته ذو حمولة معنوية مكثفة. والمضمون هو الآخر تعيين جمالي وفني بامتياز.

"إنّ الأعمال الفنيّة لا تدين بأهميّتها إلاّ لمقدرتها على إظهار ما تخفيه الإيديولجيا. (......). والنص الأدبي يظهر فجوات وتناقضات الإيديولوجيا[1] وهل يمكن إغفال حقيقة أن السيد حافظ لا ينطلق من

(1) بيار زيما، النقد الاجتماعي، ترجمة عايدة لطفي، مراجعة أمينة رشيد، سيد البحراوي، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، الط الأولى ١٩٩١. ص ١١٢.

فراغ إيديولوجي وهو يشيد معماره الروائي؟ إن الرواية التي بين أيدينا تتبدى في عمقها ذات حمولة جمالية بقدر ما هي إيديولوجيّة في فترة تاريخية يتعرض فيها العالم العربي والإسلامي لارتجاجات عنيفة، وتحولات شديدة الخطورة بفعل اختلال العلاقات الدوليّة في بشكل غير مسبوق. ونظرا لأن مصر شكلت دوما عمق الوطن العربي، فهي الأكثر تأثرا بمفاعيل العلاقات الدولية سيئة السمعة.

يتضمّن المقطع الأول مشهد كاظم العاشق وسهر المعشوقة، تلك الفتاة العربية التي ترفض أنْ تُفَضَّ بكارتها إلاّ على فراش من ذهب ومال خليجي وفير. إنها أحلام الطبقات الوسطى في الصعود الاجتماعي من أقصر السبل وأكثرها جلبا للمتعة الحسية والشبق الجنسي المتعطش للفعل العنيف. سهر هي صورة عن الفتاة العربية التي انخرطتْ في المجتمع المدرسي الحديث. ومع ذلك، فإنها لا تتخلى عن ثقافتها الأسرية التي تؤهّلها لتكون زوجة تضطلع بأعباء الإنجاب وخدمة رغبات السيد وشهواته. إنها اختزال للمجتمع العربي الريفي الذي لا يزال محافظا على تقسيم العمل بين المرأة والرجل وتقسيم مناطق النفوذ والعلاقات الاجتماعية الأبوية، حيث يهيمن الرجل على علاقات الإنتاج ويحتكر الهيمنة داخل البيت وخارجه. فالمرأة ليس من حقها مناقشة القيم السائدة والثقافة **العالمة**، بل هي مرصودة فقط لرعاية هذه القيم وتمريرها للأجيال اللاحقة، من أجل إعادة إنتاج أنماط سلوكية ثابتة وأشكال وجود اجتماعي لا يطالها التغيير. إنها تفتقر لجهاز مفاهيمي قادر على تشكيل وعي اجتماعي حداثي وثقافة مقاومة لسلطة الرجل المطلقة.

لم تحاول سهر مقاومة رغبات أبيها في تزويجها من رجل خليجي؛ بل تماهتْ معها وانسجمتْ مع بيئتها الثقافيّة والاجتماعية على مستوى الوعي كما على مستوى الوجود العيني. لقد كان ترددها على المدرسة مجرد محطة يُنتَظَرُ فيها الحلم الموعود في الهجرة بعيدا عن المحيط الاجتماعي الرتيب والخانق والمتكلس. إن البيئة التي احتضنتْ سهر هي بيئة محافظة تتجسّد فيها قيم المجتمع الذكوري، المتمسك بسلطة الرجل، والذي يرفض الحداثة من حيث الجوهر. ولئن كانت المدرسة الحديثة في المجتمع العربي هي إحدى وأهم قنوات تحديث العقل العربي وتثوير مجتمعاته ضد أنماط السلوك والتفكير الدغمائية، فإنها في حالة المجتمعات الريفيّة تغدو بنايات لا تحمل في جوهرها من الحداثة إلاّ الطلاء الخارجي. إنها مفرغة من بعدها الإيديولوجي، ولا ترقى إلى مستوى ملامسة الأوعاء وتحريكها باتّجاه التغيير أو التنوير.

وعندما حاولتْ سمر كسر قيود المجتمع المحافظ على قيم العفة بمفهومها المجتمعي التقليدي، قوبِلتْ بكمّ هائل من القمع والردع، حتّى تراجعتْ إلى قواعدها الجنوسيّة الحسيرة. لما حاولتْ التواصل مع كاظم بدعوى أنّها تحبه، وتقاوم من أجله إرثا هائلا من التابوهات، صُدَّتْ بكل سبل القمع الممكنة، من طرف كاظم، أولى ضحايا القيم البالية، ثم من طرف أهلها حراس العقائد.

إننا نملك في هذه الرواية نموذجين للمرأة العربية. نموذجا تقليديا يمثل المرأة في المجتمع الذكوري المحافظ. هذا النموذج محافظ على بناه النمطية وأشكال وجوده وطرائق تفكيره الموروثة، والمحاطة بهالة من القداسة والصّنميّة. ونموذجا آخر أبدى رغبة محمومة في التخلص من

معيقات الحداثة والانفتاح على كل أشكال التحرر من قيود الفكر القبلي والعشائري، بدعوى أن تلك القيم البالية تحرم المرأة من انفتاح الشخصيّة والارتقاء إلى المواقع المشتهاة في المجتمع والأسرة. ومع أن سمر تمكّنتْ من تحقيق هدفها في الاقتران بكاظم، إلاّ أنّ ذلك كان من بوابة التقاليد والأعراف التي تحظى بقداسة الأديان. إنها فاتحة الثورة المحتشمة على الماضي التي خطّتها المرأة العربية في كثير من مراتب الحداثة في المجتمعات العربية.

المقطع الثاني من هذه الرواية يتضمّن سرديّة فتحي رضوان الطالب المصري رئيس اتحاد الطلبة المصريين. إنه يمثّلُ الفئة الاجتماعيّة الأكثر تنويرا وتثويرا في كلّ المجتمعات العربيّة مع مطلع حداثة منتصف القرن العشرين. وبما "أن النظام الكامن للعمل الفني له وظيفة مزدوجة، فهو ينظم وحدة العمل من جانب، ويعبر عن رؤية للعالم، عن وعي جماعة اجتماعية من جانب آخر. إن العمل الفني ليس نتاج مؤلف بوصفه فردا، ولكنه يكشفُ الوعي الجماعي لجماعة أو طبقة"(١). لقد كانت فئة الطلبة في كل مراحل نضالها التاريخي ومقارعتها للأنظمة المستبدّة وجماعات المال والسلطة، الفئة الأكثر وعيا وتفاعلا مع مشكلات عصرها وهموم الوطن، وهي الأكثر تجاوبا مع أوجاع الماضي الغابر والممتدّ، ذلك الماضي الذي لا ينفكّ يتناسل ويتكاثر حتّى ليوشك أن يحول الزمن العربي إلى قطع من الليل المظلم، يفضي بعضها إلى بعض، بدءا من نكسة ٦٧، تلك الحرب التي تركتْ جروحا وكدمات في الذات العربية لا خلاص منها، إلا من خلال صناعة تاريخ ناصع البياض وخال من الهزائم. بيد أنّ

(١) المرجع نفسه، ص ٥٢٥٣.

الواقع الذي تلمع إليه الرواية يعجز عن فك الارتباط مع الماضي الذي حشر العرب في زاوية معتمة، مجردين من أدوات الفعل الحضاري الإيجابي على جميع الأصعدة. وإزاء هذه الحالة المرضيّة تبدو ردود الفعل السلبية كعلامة من علامات الإحباط بالنسبة لفتحي رضوان وشخصيات أخرى من نفس الفئة المثقفة. يخاطبُ فتحي رضوان صاحبه حسن، أحد أعضاء اتحاد الطلبة: «لم أعد أعرف يا علي ماذا سيحدثُ في مصر، ولا في الوطن العربي...حتى الغرب خدعنا، وأمريكا...هل لأننا نستحقّ أن نخدع...أفكر في الرحيل من مصر"[١] إنها طريقة سلبيّة في مقاومة بنية سياسيّة متماسكة ومستعصية على التغيير ورافضة للتغير، من قبل الفئة الاجتماعيّة الأكثر وعيا بأزمة الوضع الحضاري للأمة العربيّة مختزلة في مصر. أحيانا يلجأ فتحي رضوان إلى اللغة المنطوقة للتعبير عن رفض الواقع الراهن ومقارعته. لقد "أكد ميشال بيشو على طابع الكلمات الاجتماعي: يمكن أن يلخّص كل صراع الطبقات أحيانا في الصراع من أجل كلمة، أو ضدّ كلمة أخرى"[٢]. تحمل مثل هذه الشهادة ما مفاده أن الوحدات القاموسية تحيل إلى بصمات المصالح أو حتى النزاعات الاجتماعية. يكسر فتحي رضوان النسق اللغوي الذي يروجه الخطاب الرسمي، ويشوّه الذائقة اللغوية المتعارف عليها، ويلجأ إلى قاموس لغوي شعبي، يكشف عن إدانة قصوى للوضع الإشكالي للبلد، ورفض للخطاب الرسمي الذي يداري تناقضاته ومصالحه المشبوهة من خلال جزالة اللغة وبلاغة التعبير. "مصر مش عايزانا،

(١) السيد حافظ، قهوة سادة، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب' ٢٠١٢ ص٢٦٨٢٦٩.
(٢) الكلمة فى الرواية – ميخائيل باختين .

عاوزاه الحارامية والكذابين والمنافقين واللصوص بيحلبوها. مصر لا تحبّ الشرفاء...معظم الشعب ملوث بفيروس الفهلوة والنصب والكذب"[١].

يمكن معاينة المجتمع، -أيّ مجتمع-، باعتباره مجموعة جماعات متعارضة نسبيا، حيث يمكن أن تتنازع لغاتها "السوسيولكتات"؛ ومن هذا المنظور يمكن أن نهتدي إلى الرابط بين الأدبي والاجتماعي، الذي يتمظهر عبر اللهجات الاجتماعية. إن اللغة التي يلجأ إليها رضوان فتحي ذات بعد إيديولوجي لا يخطئه الإدراك. ولعله من المناسب أن نستنجد بتعريف غريماس للسوسيولكتات التي هي نوع من اللغات التحتية، معروفة بتغيراتها السيميائية التي تتعارض فيما بينها (على صعدها التعبيرية)، وإيحاءاتها الاجتماعية التي تصاحبها (على صعيدها المضموني)، هي تتشكل كمسميات ومصنفات اجتماعية مبطنة للخطابات الاجتماعية.

كانت الفئات الشعبية الدنيا والمتوسطة، أثناء سنوات النكبة، تتماهى مع الخطاب العربي الرسمي، ذلك الخطاب الذي كان يداري الهزيمة النفسيّة والعسكرية بخطاب بالغ النفاق والديماغوجيّة. عمد المسئولون إلى الدعوة إلى النفير العام في عز الأزمة من أجل إعطاء انطباع لدى الرأي العام المحلي والدولي بأنّ الأوضاع تحت السيطرة، وأنّ غضبة العرب هي نذير شؤم على اليهود. وكانت النعوت المحقرة لليهود والتهديدات بأنّهم سيُلقون في البحر، كان من شأن كلّ ذلك أن يمتصّ غضب السواد العام من الناس. ولكن مع مرور الوقت، وتتابع الهزائم مع نفس العدو

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٦٩.

الذي تعاظم تهديده للوجود العربي باطراد سريع الوتيرة، تفطن الجميع بأن الأنظمة الرسميّة تنحاز لخيارات غريبة عن شعوبها. "ترى كم مليون عربي خائن يتعاون مع إسرائيل، ترى كم مصري خائن؟ الخيانة مهنة، الجاسوسيّة مهنة...أكل عيش. كم خائن في تاريخ مصر والعرب"[١]. يصل رضوان إلى عمق أزمة الوعي الشقيّ الذي يكشفُ عن تاريخ طويل من العمالة للأجنبي. إنها الصورة الأكثر رهابية عن الذات العربيّة المفصولة عن واقعها والغريبة عن تاريخها. على حدّ تعبير فيكو، فالإنسان لا يعي إلا التاريخ الذي يصنعه بيديه، وإنّ هذا التاريخ لم يصنعه العربي، وإنما صنعته أيدي غريبة. وكان لزاما على الفئات المثقفة حينئذ أن تشرع في ثورة على العقل العربي الذي لا يزال يتسم بالسلبية في مجال مقاومة كل معوقات النهضة وكل المحبطات النفسيّة والإيديولوجيّة التي تثبط القدرة على تجاوز الذات وصناعة تاريخ جديد، لا مجال فيه للاستعباد والتدجين. وأعتقد أن هذه الرواية للسيد حافظ تندرج في هذا الإطار التنويري.

لقد كانت الفئة المستنيرة الممثلة في فئة الطلبة تدرك الحجم الحقيقي للنظام العربي، وكانت تواجه خطابه بلغة شعبية ساخرة وبأسلوب تهكمي لتداري هي الأخرى عجزها عن فعل المقاومة السياسية لأنظمة خائنة. وتكتفي بما تعتقد أنه مقاومة ثقافية تهدف إلى تنوير العقول وتثوير الشعوب وبناء جدار ثقافي صلب يحمي الذات العربية من التبعية والانكسار بكل أشكاله. وأعتقد أن الرواية هي أقدر الأجناس السرديّة على الاضطلاع بهذه الإرساليّة الحضارية على المدى المتوسط والبعيد.

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٣٥٩.

نحن في عالم صراع الثقافات والتدافع بالمناكب على المصالح الاستعمارية، ولا زلنا نحتلّ مواقع الضحيّة، ولا بوادر للخلاص في المنظور القريب. وفي هذا الإطار تندرجُ هذه الرواية للسيد حافظ، مع درجات عالية من الكثافة الرمزيّة في المشهد الثالث منها، والمتعلق بسردية فرعون وأخناتون والكهنة والشخصيات الرافدة ذات البعد التاريخي عميق الدلالة. ليستْ الرواية ظلاً للواقع، وأي خطاب نظري أو أدبي هو تحريفٌ للواقع على المستوى الدلالي والسردي، تماشيا مع المنظور الجمالي للمبدع. والمقصود من أيّ دراسة لهذا الإبداع هو إظهار هذه التحريفات.

اخناتون هو اسم فرعون حاكم مصر من القدماء، ويتمتع اسمه بدلالة رمزية ذات خصوبة عالية. وهو مخالف في عقيدته للكهنة، وحتّى لزوجته نفرتيني المتعاطفة مع الكهنة. إنه يعبد إلها واحدا، ووفقا لهذه العقيدة، فإنه يعمد إلى تحطيم الأصنام التي يعبدها الكهنة، وهو بذلك يثير حفيظتهم، فيسعون للإطاحة به في عملية اغتيال محكمة التدبير. ويلمع هذا إلى أساليب الأنظمة العربية في التخلص من خصومها السياسيين، في ظل الاستبداد والحكم الفردي. فالحاكم العربي الذي يختلف مع أحد رجاله الكبار في أروقة الحكم سعى إلى التخلص منه عن طريق التصفية الجسديّة.

كان اخناتون متعاطفا مع رعيته من الفلاحين والجنود وعامة الناس. بينما نلفي رجاله، ومتعاونيه الكبار، منجذبين إلى كبار الضباط والشخصيات النافذة في سرايا الحكم وجهاز المخابرات. إنه خلاف المصالح والمواقع السياسية والخيارات الإيديولوجيّة. فالسلطة في

الوطن العربي تحمل بذور فنائها بداخلها، بحكم حجم التناقضات في تركيبتها السياسية والعسكرية.

رمزية سهر:

أول ما يطالعنا في هذه الرواية هو شخصيّة سهر؛ وهي الشخصيّة المحوريّة في الرواية. وقد لجأ الروائي إلى تقنية التكثيف اللغوي مع انطلاقة الفعل السردي.

كانت الجمل المقطعة والقصيرة، والشديدة الاختزال مشحونة بعاطفة عالية الاشتغال على مستوى الوعي الظاهر والباطن لتشكيل الموقف من الحالة الراهنة وغير المألوفة التي ظهرت عليها سهر، وهي حالة البلوغ الجنسي. "خافت... ارتعدتْ... بكتْ... جاءت الأمّ مهرولة... وجدت بقعة دم حمراء في ثوبها... زغردت الأمّ.. لقد بلغتْ سهر... نضجت اليمامة.. الحمامة... الوردة... تفتحت مبكرًا"[1]. هذا التتابع السريع والحثيث للأفعال الماضية، هذا التقطيع العنيف لأوصال الجملة وتحويلها إلى شذرات لغوية مبدّدة، هذا النفس الشعري المتهافت على المعنى، يطارده في القاع الأسفل من عمق اللغة، هذا التركيز الشديد على اللحظة العاطفيّة الصادمة والمشاعر الدراميّة المتناقضة، بين فعل البكاء وفعل الزغردة، بين الخوف والرعشة والهرولة، كل تلك المفارقات تتضافر لتكثّف حالة الانفعال لتهيئتنا وإعدادنا لتلقي تجربة سهر بمستوى من التركيز يرقى إلى مستوى حالتها الدراميّة. اللغة تفتح شهيتنا للمعرفة والوعي بالذّات وبالآخر، ومن أجل هذه الإرساليّة تتوزع الكلمات على بياض الصّفحة وتتراصّ بشكل يفجّر أبعادها ومراميها لتطال كل دركات

(1) المصدر نفسه ص ١٥.

الوجود وكل طبقات النفس المُعتِمة. اللغة هي وعاء العالم وشكله وبعده، بل هي العالم متشكلا في حروف ومتمظهرا في بنيات صوتية متشظية.

وتنضمّ شخصيّة شهرزاد بكل تداعياتها وظلالها في التراث السردي العربي إلى وظيفة إعداد القارئ لتلقي التجربة الوجودية لسهر بمزيد من التركيز الجمالي والعاطفي. "زغردت شهرزاد العجوز، نثرت عليها بخورا به حبهان وعين الشيطان حرقتها في النار"(١). تتحول الزغردة في هذا المقام إلى فعل احتفائي تعظيما لحالة البلوغ الجنسي التي تكتسي طابعا مقدسا في المخيال العربي على المستوى الشعبي. كما تكتسي عملية نثر البخور وحرقها لطرد الشيطان، إجراء وقائيّا يحفظ سهر من كل سوء وأذى. إنها الثقافة الشعبية التي لا تزال تشتغل في اللاوعي الجمعي للمرأة العربية سواء كانت مثقفة أو محدودة التعليم، هذه الثقافة التي تمدّ الإنسان العربي بالقيم الأكثر قداسة وتعظيما. لنذكر أنّ سهر تنتمي إلى المدرسة، وهي بالتالي في عداد البنت المثقفة. وإنّ وضعها ذاك لم يكن من الفعالية بحيث يخلصها من ثقافة السحر والخرافة التي تطبع حياتها وتنمط سلوكها باعتبارها أنثى تتهيأ لحمل رسالة التغيير والتنوير الملقاة على عاتق الفئات الأكثر حظا من التعليم الحديث.

وبالعودة إلى الرواية نلاحظ أن عناصر الطبيعة هي الأخرى تنضمّ إلى شهرزاد العرافة و"العالمة"، للاحتفاء ببلوغ سهر التي تحوّلتْ إلى ايقونة الأنوثة المتفجّرة والجمال الأسطوري الذي يبحث عن أرفع الأثمان في سوق الرجال. فالعصفور يعي شهرزاد وينجذب نحوها ويتعلق بها وينتشي بعطرها ويلازمها طيلة مسيرتها السردية. يدلّ عليها

---

(١) المصدر نفسه ص ١٥.

ويندسّ في ثناياها ويتدفأ بجسدها ويدفئه. والليل والبحر والشجر، والمراهقون والرجال والنساء والعجائز، كل أولئك يعرفون سهر ويرددون فرحها، حتى لقد غدتْ أسطورة وصوتا وجوديا يتصادى مع رغبات الناس المكبوتة والدفينة. الطير مسكون بالحرية والجمال والبراءة، ولكن بالضّعف أيضا وقلّة العقل، وغياب الذّاكرة والوعي. وتلك كلّها من تداعيات الأنوثة المتجسّدة في سهر.

شهرزاد ظلٌّ سهر تتحول إلى نبية وكاهنة وعرافة، تستشرفُ مستقبلها وتحمل لها البشارة والوعد بالترحال، بحثا عن الفحل وعن الذهب والصعود الطبقي. فالمال هو وسيلة الارتقاء من طبقة اجتماعية إلى طبقة أرقى. ونحن نعلم أن الفكر البرجوازي الأوروبي يحدد آليّات الصعود الطبقي بالشرط الثقافي والمادي. ولا يمكن للفرد أن يرتقي إلى طبقة أعلى فقط بالمال. والأمر في الواقع العربي يختلف عن الوضع في المركز. في المخيال العربي، المال هو مصدر التعيين الطبقي، وهو مصدر القوة. أما لدى الغرب، فمصدر القوة هو العلم بالدرجة الأولى. من منظور ميشال فوكو المعرفة والسلطة يتناسلان.

شهرزاد، والعصفور كلاهما عوامل بالمعنى السردي للمصطلح، بالنسبة للشخصيّة المحوريّة. كلاهما يساعد على تطور البرنامج السردي ويدفع بالموقف الدرامي إلى مزيد من الاحتدام في إطار المشهد الروائي الأول الذي تنفتح عليه الرواية. إنها ظلٌّ لسهر، تستشرفُ لها المستقبل وتساعدها على تشكيل موقف من العالم. فلماّ تقدّم لها أحد أثرياء القرية طالبا يدها، تدخلت العرافة وقالت لوالد سهر:"لا..ابنتك ستسافر إلى بلاد النفط...بلاد الذهب، تتزوج من رجل ثريّ، وتفتح لها المدن ألف نافذة

نور..وستتمرغ في الذّهب. الأب ينتظر أن يأتي هذا الفارس القادم الرحالة، لترحل معه سهر على سفينته.. ويكون علمها شمس وقمر، كما قالت العرافة العجوز"(١). نطقت العرافة نبوءتها بكل وثوق، ودون ارتياب، فهي تقرأ من كتاب الغيب، أو أن قوة سحريّة تجلب لها النبوءات من تحت العرش وطيات الغيب. إنها تستعمل حرف السين الدال على التسويف للقريب. وكأن الذي سيحصل يوشك أن يقع: ستسافر... ستتمرغ، وفي الأخير يختفي حرف السين في الفعل الأخير لأنّ النبوءة ستتحل إلى علم يقين من خلال فعل الكينونة. وهي كينونة مشرقة بالشمس نهارا، وبالقمر ليلا (يكون علمها شمس وقمر). "من الواضح أن الفكر الغيبي يعتمد في ممارسته الأسطورة كأداة تعبير وتفسير، والكهانة هي بدون شكّ إحدى ممارسات الفكر الأسطوري الأكثر بداءة واستمرارا"(٢) وتتحول العجوز مع تحقق النبوءة إلى رمز للحكمة ومصدر للمعرفة، ليس لشهرزاد فقط، وإنما لكل نساء المدينة. فهن يأتين ويجلسن "تحت ركبتها يشكين من ضعف الرجال الجنسي وجهلهم في التعامل معهنّ، فقط هي شهرزاد التي تعرف"(٣). لقد جامعت شهرزاد ألف رجل، وحملت عن كل رجل ألف حكاية، وراكمتْ معرفة واسعة بعالم النساء والجنس، وأضحتْ خبيرة وبصيرة بهذا العلم الذي لطالما بقي عالما مغلقا، من التابوهات والممنوعات في المجتمعات الشرقيّة المتخلفة، ذات البنى البتريركيّة العتيقة. لقد اكتملت رمزية شهرزاد

---

(١) المصدر نفسه ص ١٧.

(٢) د خليل أحمد خليل، مضمون الأسطورة في الفكر العربي، دار الطليعة، بيروت، ط الثالثة بدون تاريخ. ص ٧٧.

(٣) المصدر نفسه ص ١٧.

بالعدد "ألف" المشار إليه في الصفحة السابعة عشر من الرواية: بعض النسوة قلن إنها هي التي عرفت ألف رجل" وحملت عنهم ألف حكاية. إنها تعرفُ للنكاح مائة اسم. فتجلس النساء أمامها في ذهول. ويشير العدد مائة هنا إلى أثر سرديّ في التراث العربي لا يقلّ أهميّة عن "ألف ليلة وليلة". وبطلة هذه الليالي هي شهرزاد التي أنقذتْ نفسها من الموت بالحكي، لتخلص مئات النساء من القتل. شهرزاد في هذه الرواية تخلص حياة سهر من الشقاوة والاحتباس في المكان الواحد حيث الأغلال والقهر، لتدفع بها إلى بلاد الخليج المكان الحاضن لكثير من الجاليات العربية، باعتباره موطنا للإثراء والرفاه في المخيال العربي. كما تخلص كثيرا من نساء بلدتها من القهر الجنسي والكبت من خلال تعليمهن أساليب الممارسات الجنسيّة الأكثر جلبا للمتعة. لقد راكمت معرفة واسعة بعالم النساء والجنس، وكسرتْ تابوهات اجتماعية شديدة التحريم حول الجنس ومسمياته وأوضاع النكاح، أسماء الأعضاء التناسليّة لكثير من الحيوانات كالكلب والحصان والتيس والديك والبعير. إنها تملك كتب السيوطي و"طوق الحمامة" لابن حزم الأندلسي، وهو كتاب في فن النكاح بكل وضعياته. شهرزاد بؤرة تجتمع حولها الخرافة والسحر والشعوذة والجنس والنبوءة. إنها مرجعيّة شعبيّة للنساء وللرجال. ليست مجرد مربية ترافق سهر، ولا هي مجرد عرافة تنبئ عن مكنونات المستقبل. إنها مصدر علم واختراق للممنوع، وبوح بالمسكوت عنه. إنها استحضار لنصوص غائبة في التراث العربي والإسلامي والشرقي عموما. وهي نصوص من شأنها أن تتفاعل مع بنية سوسيوثقافيّة راهنة وهشّة، هي بصدد التخلخل والتفكك التدريجي، كما تتهاوى أعمدة الخيمة

التي رحل عنها أصحابها وتركوها طعما للسنين. هكذا يهجر المجتمع العربي جزءا غير يسير من طقوس حياته ومعتقداته التي لم تعد منسجمة مع معطيات الحداثة الثقافية والاجتماعية الوافدة من المركز، لينخرط في أنماط وجود اجتماعي حديثة. إن ما تختزله شهرزاد باعتبارها شخصية رافدة في الرواية، هو قدر هائل من الأسطرة والبدائية والخرافية التي تسم مجتمعات الشرق القديمة والحديثة نسبيا. إنها رمزٌ للمرأة التقليديّة التي تمتزج فيها الخرافة بالعقل والحقيقة بالوهم والخيال.

"شهرزاد على ذقنها وشم أخضرٌ. هي بيضاء... عيناها زرقاوان.. قالوا من جمالها تزوجها جني جميلٌ ومنع كل الرجال عنها أو الاقتراب منها"(١). هكذا يتعاطى العقل العربي مع الظواهر الاجتماعية التي لا تنسجم مع شهوانيته ومزاجه. وهكذا ينظر للمرأة نظرة شبقيّة. إنها موضوع شهوة ليس فقط بالنسبة لعالم الإنس وإنما هي كذلك بالنسبة لعالم الجنّ أيضا. وذلك من تجليات الخرافة والأسطورة والسحر في الثقافة العربية التقليديّة. "وقالوا عنها عرافة الجنّ...يمدّها عشيقها الجني بالسر...وأسرار كلّ البشر"(٢). يخطر بالبال في هذا السياق مقولة العبقرية الشعرية لدى عرب الجاهلية، التي يؤولها هؤلاء الشعراء أن كائنات جنية تمد الشعراء بفنون القول البليغة بمكان في مكة يسمى واد عبقر. وهكذا تحيلنا شعريّة العرب إلى الخرافة والسحر، وهو موقف

---

(١) المصدر نفسه ص ١٨.
(٢) المصدر نفسه ص ١٨.

يعبر عن عجز الوعي النقدي لدى العرب عن إدراك أسرار بلاغتهم إدراكا علميا.

نعود الآن إلى الوظيفة السردية لشهرزاد. إنها وظيفة متعددة الأدوار، تمتدّ إلى كل نساء القرية ورجالها، ولا تتوقف عند سهر. ومن أوجهها، أنها وظيفة تعليميّة. فهي "تعلم ما قاله الشيخ السيوطي أن يدعك الرجل حلمتي ثدي الأنثى؛ فإن حلمتها تهيجها هياجا شديدا وانقطاع اللبن عن الثدي دليل أن بين الثدي والرحم اتصالا...النساء تسرع إليها لتعرف سرّ الجماع، والرجال يحاولون الحصول على نصيحة منها مقابل سلة تفاح أو زيتون أو بعض الليرات...لأنها الوحيدة التي تحفظ نصائح السيوطي"[١].

تحتكر شهرزاد الثقافة الجنسية في ذاكرتها. وهي ثقافة تتعطش إليها الطبقات الشعبية من المجتمع العربي، لحالة الكبت التي تعيشها وحالة الانسداد في الحصول على ما يحرك الطاقة الجنسية من عقالها ويجعلها تمارس طقوسها وفق ما تمليه الطبيعة الإنسانية السليمة. وهي بالإضافة إلى ذلك تحافظ على البنية الأسطورية للثقافة الشعبية. "فعندما تعلم شهرزاد أن رجلا من الحي أو القرى أو المدن القريبة تجرّأ وطلب يد سهر، أو اقترب منها، تهجم عليه فتقرأ له كفيه وتقول محذّرة "لا تقترب من سهر، إنها لعشيقة القمر، من يتزوجها يصابُ بالعمى"[٢]. وكثيرا ما يبادر الناس إلى تصديقها، فينسحبون من السباق، وقليلا ما يرتابون دون أن يتجرّأوا على المغالبة. إن وظيفة شهرزاد في محيطها أشبه

---

(١) المصدر نفسه ص ١٩.
(٢) المصدر نفسه ص ١٩.

بوظيفة رجل الدين الذي يحظى بهالة من التقديس والتوقير. إنها بمثابة الشخصية العامة ذات الرمزيّة المرجعية. وأهم دور اجتماعي تضطلع به هو المحافظة على البنية الأسطوريّة للثقافة العربيّة، وللمجتمع التقليدي، حيثُ تتقاطع مصالحها الطبقيّة مع مصالح رجال الدين وأصحاب المال والسلطة. نحاول الآن أن نستقرئ بعض المقاطع السرديّة لتحديد ملامح الصورة التي طورها الرجل العربي عن المرأة والوظيفة الاجتماعية المرصودة لها، وعلاقتها بموضوع الكرامة والشرف والقيم بشكل عامّ. وقد تبيّن في كثير من المواقف السرديّة أنّ المرأة في المخيال العربي، وإن كانت موضوع رغبة جنسيّة محمومة، إلاّ أنّها موضوع شرف الرجل ومحلّ تقديسه. وكثيرا ما ترقى قداستها إلى قداسة الوطن. وانتهاك عذريتها هو بمثابة انتهاك حرمة الوطن.

يفاخر والد سهر بمقاومته للاستعمار الفرنسي وقتله لكثير من الجنود المحتلين، الذين اغتصبوا كثيرا من نساء المسلمين. وهو يباهي بانتصاره على الجنود الفرنسيين الذين هاجموا قريته، فأسرع بتهريب زوجته للجبل حتى لا يطالها الهمجيّون، وأقام بها هناك في مأمن. "هرب بها ذات يوم في جوف ليل كافر بالبشر. اغتصب فيه الأعداء الفرنسيون نساء القرية، وهرب هو بسلمى"(١). وبقيت هذه الحادثة مصدر فخار واعتزاز له ولزوجته وحظي بفضلها بمهابة اجتماعية لم تتوفر لغيره من أصحاب الريف. ولذلك بقي محتفظا ببندقيّته باعتبارها رمزا لرجولته، وأداته التي يحمي بها شرفه وأهله ومصالحه. إن إنقاذ الحريم هو المعادل الموضوعي لإنقاذ الوطن، وذلك مظهر من مظاهر الانتصار

(١) المصدر نفسه ص ٨١.

عليه، ومن تجليات الرجولة في زمن الردّة، ومن علامات الفحولة والنخوة العربيّة التي توشك أن تغادر موطنها خارج المكان.

شداد هو أحد وجهاء القرية وأثريائها الذين يحظون بالمهابة. وقع بصره ذات يوم على سهر، وبهره حسنها، وعزم على اتخاذها زوجة مهما كلفه ذلك. فاستعان بأحد شركائه المدعو مخطار، وأغراه بأنه سيكافئه بسيارة فرنسية إذا هو تزوج من سهر. وترافق الاثنان إلى بيت سالم، الذي رحب بهما بتحفّظ. دخلا عليه بكثير من الهدايا والأموال وعرض عليه شداد الشراكة التجاريّة، في مقابل تزويجه من سهر. بيد أن سالم رفض بدعوى أن سهر لا تزال صغيرة وأن لها أختا لم تتزوج بعدُ، وهو أمر ترفضه التقاليد العربيّة، خوفا من أن تكون الكبرى مجلبة للعار لبيت أبيها إن تأخر زواجها. رأى سالم أن الرجل جاء ليساومه على شرفه بالمال، فاغتاظ وهبّ واقفا، شاهرا بندقيّته في وجه ضيفيه إن هما لم ينسحبا بما جاءا به من عروض. "لم يندهش سالم، نظر نظرة المحارب البطل في عينيه، ولم يهتزّ له رمشٌ، ولا وتر في قلبه أو عزف خياله على لحن المال"[١].

يحصل انطباعٌ من خلال هذه السردية أن سالم وهو يهدد ضيفيه اللذين جاءا يقايضانه الشرف بالمال بأنه في ساحة قتال يدافع عن الوطن ويحاربُ عدوا في ساحة المعركة. ولذلك يستنجد ببندقيته المعلقة على جدار البيت. تمتزج الغيرة على الحريم بالغيرة على الوطن، ومن هنا قداسة المرأة في المخيال العربي، باعتبارها اختبارا لفحولته ورجولته، كما أن الغيرة على الوطن والاستعداد للتضحية من أجله هو اختبار

---

(١) المصدر نفسه ص ١١٥.

للكرامة واحترام الذات. يستند سالم في رفضه لتزويج سهر من شداد، أن هذا الأخير كبير السنّ ولا يناسب ابنته التي لا تزال صغيرة. ولها أخت أكبر منها لم تتزوج بعد. إضافة إلى أنّ العرافة قد بشرته بأنّ سهر ستتزوج من رجل من رجال الخليج، وستتمرّغ في فراش من ذهب، وهو في انتظار تحقق النبوءة. إن قيم المجتمع التي يقاتل من أجلها سالم من خلال تصدّيه للرجلين اللّذين جاءا يتوسلان الزواج من ابنته لا تنفصل عن الرغبة في المال. الوطن والمرأة والمال، هو الثالوث المقدّس لدى العربي، ولا يمكن التفكير في ذلك الثالوث إلاّ بكامل عناصره.

في مشهد حواري، تظهر شهرزاد وهي مقبلة على سهر ومستبشرة لتقول لها: "القمر..القمر..أنت صديقة القمر. لا يعرف هؤلاء الفلاحون قدرك ولن يفهموا أبدا سرّ عطرك يا سهر"(١). في هذا العمل التخييلي، وفي غيره أحيانا كثيرة، يبدو الريف أو الجبل على حد تعبير كاظم وشهرزاد رمزا للثقافة التقليدية والمحافظة، كما تبدو المدينة حاضرة للحداثة الغربية والمعاصرة. ذلك أنّ الغرب أثناء استعماره للشرق العربي تمكن من تدمير البنى الثقافية التقليدية التي لا تتناسب مع رؤيته للعالم ومع مشاريعه لأوربة العالم، وأرسى مكانها بنى ثقافيّة هجينة، لا شرقيّة ولا غربيّة، من أجل إعاقة تحديث العقل العربي. و"إنّ البلاد التي عبَرتْ عليها مرّة أنفاس الغرب، المثقلة بالفكر العلمي، والتي تركت عليها هذه الأنفاس في عبورها علامة قادرة على البقاء لا يمكن أن تعود

---

(١) المصدر نفسه ص ١٥١.

كما كانت من قبل"[1] مهما حاول المحافظون استرجاع صورة الذات التاريخيّة.

يمكن اعتبار القمر –تلك الاستعارة التي تستحضرها شهرزاد كلما التقت سهر-رمزا للتعالي والفخار، والمجد الذي لا يُنالُ إلاّ لمستحقّيه. وتغدو سهر بموجب ذلك أكثر من فتاة عاشقة ومعشوقة؛ إنها كناية عن مصر التي تتجاذبها قوى متعددة وهويّات متنوعة ومتعارضة. إنّ كل الذين توسّلوا الزواج من سهر، ومن بينهم كاظم، إنما أرادوا لها أن تبقى حبيسة الجبل، رمز الأسلاف ورمز السكون والثبات.

يتمتّع الجبل في المخيال العربي بقداسة كبيرة. "إنّ الأماكن المقدّسة هي في أعلى مرتفعات العالم"[2]. وفي القرآن الكريم يقسم الله تعالى بجبل طور؛ "والتين والزيتون وطور سينين" (سورة التين). وفي سورة أخرى نقرأ قوله تعالى "وجعلنا الجبال أوتادا". فالجبل آية عظيمة من آيات الله. على المستوى الجيولوجي يحكم الجبل توازن الكوكب، فلا يطغى الماء على اليابسة، وعلى مستوى الرواية يغدو الجبل دالاً قيميا وثقافيا. وفي تاريخ الغزوات الإسلاميّة يتمتع جبل أحد برمزيّة بالغة. إنه رمز التضحية وفداء العقيدة والثبات على المبدأ. وهو في هذه الرواية رمز لتقاليد الشرف العربي والأصالة والتصدّي لزحف الحداثة الغربيّة البغيضة. فهو السدّ الأخضر الذي يمنع زحف قيم الغرب المدمرة لسكينة الشرق.

---

(1) سعيد إدوارد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، دار الآداب بيروتلبنان. ص ٢٣.
(2) د. خليل أحمد خليل، مرجع مذكور، ص ٥٦.

تسعى سهر إلى الإفلات من سجن الجبل والالتحاق بالخليج، رمز المال والقوة والحداثة العربية. إنها تسعى للتخلص من ضيق الريف وصرامة العادات والتقاليد العتيقة إلى فضاء العالم الخارجي بكل إغراءاته. ويتحوّل تبعا لهذه القراءة العصفور الذي يظللها إلى دال من دواليل الحريّة والجمال والطبيعة الإنسانيّة المنفتحة على العالم، والمحبّة للحياة.

من الأهميّة بمكان الآن تحليل سرديّة شخصيّة روائيّة أخرى لا تقلّ أهميّة عن شخصيّة سهر في مدلولها العام الذي منه تتشكّل رؤية العالم للسيد حافظ. وردة هي تلميذة تدرس في نفس الفصل الذي تدرس فيه سهر فهي إحدى تلميذات الأستاذ كاظم. إنها متعلّقة به، وتسعى لصرفه عن سهر بكلّ ما أوتيتْ من أنوثة وشبقيّة. تفاجئه ذات مساء وهو في بينته، وتقتحم عليه خلوته، وتدعوه لمضاجعتها؛ ولكنه يقاوم رغبتها ويصدّها عن مسعاها تحت ضغط الخوف من صرامة التهديد الاجتماعي الذي تمثله ثقافة الجبل لمثل هذه الممارسات المتحررة من قيد الأعباء الأخلاقيّة. إنّ المهابة التي تتمتع بها القوانين الاجتماعية المتعلقة بالعلاقة بين الرجل والمرأة، هي من القوّة والرسوخ في ذهنيّة كاظم وكل شباب الريف، بحيث أن مجرّد التفكير في اختراقها هو بمثابة انتهاك لأنساق ثقافية تضرب بجذورها في أعماق الماضي السحيق للعرب والمسلمين. ولذلك صرف كاظم وردة بكل عنف وتجاهل مشاعرها ورفض التعامل معها خارج جدران قاعات الدرس. بيد أنها لم تيأس من كسر التابوهات والممنوعات، وعزمت على فك كل العقد المحيطة بالفعل الجنسي هذا الوحش الملتهب الذي يعيق تفتح الشخصية وانطلاق الإرادة

وتحقيق الذّات. ظلّت تلاحقه بكل السبل، وأشعرتْ أباها بأنها تعاني من ضعف في اللغة العربيّة وتحتاج إلى دروس خصوصيّة تحت إشراف الأستاذ كاظم، ويُدفَعُ كاظم لقبول هذا العرض تحت ضغط إدارة المدرسة. وهناك تحاول وردة بكلّ ما أوتيتْ من جرأة جرّه إلى رغباتها، متلاعبة بكلّ الأعراف الاجتماعيّة التي تكبل وعيه وتعيق الاستجابة لنداء الغرائز. وعندما يمرض كاظمويُنقَلُ إلى مستشفى دمشق، تسافر وردة إلى هناك بدعوى قضاء حاجيات منزلية وتزوره في المستشفى. ويُنْقَل الخبر إلى مسامع والدها، فينتقل إلى دمشق، ويقابل والد كاظم ويدعوه إلى تصحيح الخطأ من خلال قبول كاظم الزواج من وردة، أو أن شداد سيعمد إلى سلسلة من العمليات الانتقاميّة من أجل إنقاذ شرف عائلته، وفق ما تقتضيه السنن الاجتماعية التي يفوق ثقلها ثقل الأديان السماويّة. فإذا كان الله عزّ وجلّ يغفر الخطيئة بمجرّد الإقلاع عنها، فإن العربي لن يغفر أن يُنتَهَكَ شرف عائلته مطلقا.

لقد كانت عمليّات القتل بدافع الانتقام للشرف في الشرق العربي، أعلى معدلات الجرائم. وهذا يدل دلالة قاطعة على أنّ الشرف العائلي في الشرق يمكنه أن يحرك جيوشا أو قبائل في عمليّات احتراب بينيّة لا نهاية لها. إنّ الغيرة على الحريم في المخيال العربي ترقى إلى مستوى الغيرة على الأوطان، وأحيانا تتجاوزها في عنفها وعنفوانها. ولهذا كثيرا ما يمتزج حبّ المرأة مع حبّ الأرض في الشعر الحداثي.

المحمول الإيديولوجي:

تنفتح سردية فتحي رضوان خليل على زمن مسترجع، "فلاش باك"، يعود بنا إلى طفولته لما كان تلميذا، وأحلام أبيه تسعى إلى أن تصنع

منه تاجرا. فنراه في مشهد طفولي، وهو المراهق الذي بدأت عيونه تنفتح على مشاهد العذارى. ثم لا يلبث أن يمر بنا إلى مرحلة الشباب المتحمّس للدّفاع عن بلده في غمرة الأحداث التي هزّتْ مصر والعالم العربي. إنها بداية الصراع العربي الإسرائيلي، ذلك الذي عرّى الأنظمة العربيّة الهشّة وكشف للرأي العام المحلي والعالمي فساد البنية السياسيّة للعرب، وعمق تناقضاتها التي لا تصمد في وجه أيّ تحدّ خارجي. إنه الصراع الذي حوّل مصر وكثير من الدول العربية إلى لعبة في أيدي الدول الكبرى.

إنها الفترة التي أحدثتْ صدمات شديدة العنف في الوعي القومي العربي، وطرحتْ كمّا هائلا من الأسئلة المحيّرة حول علاقة المثقف العربي بالسلطة، وعلاقته بالمجتمع الذي أنتجه وبطبقته التي تردّد إزاءها كثيرا. تلك هي أهمّ التيمات التي أخصبها هذا المشهد الروائي المتعلق بشخصيّة رضوان، بطريقة حواريّة شديدة الرمزيّة وكثيفة الدلالة لحدّ الإدهاش.

ثمّة علاقة ما بين سرديّة سهر من خلال علاقتها بكاظم، وبين السردية الثانية المتعلقة بالمحمول الإيديولوجي لشخصيّة رضوان الذي يستبطن إلى حدّ ما الخلفيّة السياسيّة للروائي السيد حافظ.

إن تجربة العشق التي غمرتْ المعلم كاظم، والتي آلت إلى طريق مسدود أنتجت وعيا شقيّا بكلّ أشكال الوجود، فيما يشبه تيار الوعي الذي أبدعه ويليام جيمس، حيث تختلط الأزمنة والأمكنة، وتتداخل الأبعاد، وتصطدم الرغبات المكبوتة. إن تقنية تيار الوعي أو المونولوج الداخلي يسمح بالاطلاع "على عالم الشخصية الداخلي؛ وهو تكنيك نابعٌ فيما يرى إيريك أورباخ من تمثيل الكاتب لما يُعدّ قبل كل شيء من إفرازات الوعي

المضطرب المتقلب لدى النفس الإنسانيّة"[1]. يعيش كاظم حالة تمزق نفسي بين رغبات متناقضة، غير قابلة للتفاوض، وحالة صراع بين واقع إشكالي، لا يحقق الرضى النفسي، وبين رغبات أثيرة وملحاحة، لا تنسجم مع الشرط الاجتماعي والأخلاقي. وإنّ عجزه عن تخطي إكراهات الواقع جعله ينكفئ على نفسه، ويحيل تواصله مع المجتمع الخارجي إلى مستواه الأدنى

نقرأ في مطلع سرديّة كاظم المعلم الذي كان يحلم بأن يصبح رجلا سياسيّا يحمل العالم على كفيه، فإذا به وسط مجتمع عدائيّ بكل فئاته وطبقاته من حاكمين ومحكومين، "مجتمع يفرز جهلا وتخلفا...الكراهيّة تنتشر..الحقد...التدني الفكري"[2]، يرفض آخره رفضا قاطعا ويسعى إلى قتله وإنكار حقه في الاختلاف. وجد كاظم تبعا لذلك نفسه "خارج المكان"، مثل المنفيين والمهمشين، يجد نفسه يهوديّا دون وطن، يحلم بالعودة كما يحلم يهود العالم بفردوس موهوم. يتفجّر الوعي الشقيّ لكاظم فيما يشبه الذات المنهزمة والتي تلقي بظلال هزيمتها على العالم كله.

"الحكومات العربية نجحت في جعل المواطن العربي يكره وطنه وأرضه ويبحثُ عن وطن آخر له...وطن آخر..في أوروبا وأمريكا، وأنت يا كاظم واحد منهم"[3]. إنّ الأزمة العاطفيّة التي يعيشها كاظم قد أيقظتْ فيه كل مكبوتاته السياسيّة والاجتماعيّة والتاريخيّة. ومن هنا فإنّ غريزة الجنس

---

(1) إبراهيم خليل، بنية النص الروائي، منشورات الاختلاف، الجزائر. ط الأولى ٢٠١٠. ص ١٧٧١٧٨.
(2) قهوة سادة، ص ٢٩.
(3) المصدر نفسه ص ٩.

ستتحول إلى طاقة حيويّة تحرّك كلّ أشكال التفكّر والتّأمل في العالم الخارجي، محاولة بذلك إيجاد متنفّس لها خارج موضوعها المشتهى والمقموع، والذي أحاطه المجتمع بكل أشكال التحريم والتشنيع والتقبيح. فكان الموقف الراهن من الوضع السياسي في مصر موصولا بتاريخ طويل من القمع والقهر والعنف. "إن تحويل أعداد هائلة من الناس إلى آخر وتأسيسهم متخلفين ودونيين اعتمد على ما يُسمّى عند الجان محمد مجازا مانويا ينتج فيه تضادّا خطابيا ثنائيا عنيدا بين الأعراق"[1]، والطبقات الاجتماعية شديدة التفاوت في درجات العيش. لم تكن الحكومات العربية منذ أن كان لها وجود إلا أحقابا من القمع. و"كل القرون التي مرّتْ على الشرقيين(....) انقضت في ظل الطغيان، ظل الحكم المطلق. (...). فقد خلف فاتحٌ فاتحا، وتلتْ سيطرةٌ سيطرة"[2]. كان مسعى الحكومات العربيّة في كل أطوارها العمل على تأبيد حكمها وقهرها لشعوبها. ولقد اصطنعتْ لنفسها كوكبة من المثقفين والخبراء السياسيين للتكفل بإيجاد المسوغات الأخلاقيّة والتاريخيّة للاستمرار في السلطة في كل الحالات. إنها بذلك "تمثل تركيبا دونيّا للطبيعة البشريّة"[3].

إنّ التشكيل الروائي الذي يعكس إشكاليّة طبقة من الطبقات أو مجتمع بأكمله في حالة فردية-ولتكن حالة كاظم في الرواية التي بين أيدينا-لهو الذي يعكسُ العالم بشكل واقعيّ. فتطابق الفردي والعام من أهمّ مقولات

(1) آنيا لومبا، نظريّة الاستعمار وما بعد الاستعمار، ترجمة باسل المسالمة، دار التكوين للتأليف والنشر والترجمة، دمشق، ط الأولى ٢٠١٣. ص ٦٩.
(2) إدوارد سعيد، الاستشراق، ص ٦٧٦٨.
(3) المرجع نفسه، ص ١٠١.

الجماليّة اللوكاتشيّة. "تتّسم الرواية الحديثة (....) بالانشقاق بين الإنسان والعالم...بالاستلاب..الرواية هذه الملحمة البرجوازية الحديثة تظهر الفجوة بين الفرد والعالم، وتفترض واقعا قد أصبح نثريّا"[١] وإشكاليّا إلى حدّ لا يقبل التفاوض. يعجز كاظم عن التوافق مع معطيات واقعه الريفي، ويرفض تقبل القيم التي أنتجتْ وعيه الشقيّ كما يرفض رضوان تقبل الوضع السياسي لمصر ويرفض إيديولوجيا النظام العربي الذي لا يحسن إلا إنتاج خطابات تدجين الحقائق وتزوير التاريخ وتكميم الأفواه.

وأخناتون هو الآخر لا يتقبّل واقع الشعب الذي يحكمه ويوشك أن يتمرد عليه. إن العمل الروائي يعج بالمتناقضات والمفارقات والصراع على المواقع والتزاحم بالمناكب على المصالح، كل ذلك في عالم حواري، متعدد الأصوات عالم مُهَجَّنٌ إلى حدّ الغرابة والعجائبيّة، يعتمل التاريخ والأسطورة في رحمه ويتضافران من أجل صناعة الدلالة وتشكيل المعنى البليغ.

يسرد فتحي رضوان تجربته مع أهمّ الأحداث الذي شحنتْ القرن العشرين في لغة نوعيّة أفرج عنها التداعي الحر للأفكار والانطباعات المشحونة بكثير من المرارة والسخرية والإحباط، وهي المشاعر التي غدتْ إيقاعا عامّا لخطاب المثقف العربي في أحقاب الردّة المتلاحقة.

تقدّم رضوان بدافع حبّه لوطنه وغيرته على مقدساته التي تُنتَهكُ من قبل "جيش من الضفادع" إلى الجهات المعنيّة من أجل حمل السلاح؛ فأعطوه هو والشباب المرافق له بنادق قديمة تعود إلى عهد الملك فؤاد.

---

(١) بيار زيما، النقد الاجتماعي، ص ١٤٤.

وهي من بقايا الجيش الإنجليزي...ثقيلة جدّا، بطيئة وغير عمليّة. وهي الأسلحة التي سيواجهون بها العدو بعتاده الجديد والمتطوّر. ولم تلبث السلطات أن سحبتْ منهم تلك البنادق بدعوى أنّ الجيش هو الذي سيتولّى الدفاع عن الوطن، في انتظار أن يتدرّب المتطوعون في المعسكرات المعدّة لهم. لقد أُعطوا هذه الأسلحة فقط من أجل امتصاص الغضب والشعور بالإحباط، ومداراة الرّأي العام المحلّي، والإيهام بأنّ الوضع رهن السيطرة، وأنّ الشّعوب العربيّة تأوي إلى زعماء ذوي بأس شديد. ولكن سرعان ما بدأت الحقائق تتعرّى وتنكشف للشاب رضوان الذي بدا له أنّ حبّ الوطن خطيئة ووهم يسكن المثقف العربي. وتمرّ في مخيلته أحداثُ القرن العشرين الأشدّ مأساويّة، وتتداعى في شريط بانورامي شديد التركيز، وبلغة شديدة الانتقائيّة، كثيفة الدلالة على الخلفيّة الإيديولوجيّة للمثقفين العرب الذين ينظرون إلى الأوضاع بمنظار رجل الشارع العادي، ولكن بعقل متمرد على هذا الماضي الذي يسكن الوجدان العربي من دون أن تظهر عليه علامات التحول. لقد توقف العقل العربي وتحجر وتكلس، فهو ذو طبيعة جوهرانية غير قابلة للتجاوز، لأن إرادة التغيير لا تزال طفوليّة وغير ناضجة، تتعامل مع التاريخ بكثر من السطحيّة والانطباعيّة الساذجة.

"الملك حسن خان عبد الناصر، والأسد، وأبلغ إسرائيل بكلّ مواعيد الحرب وساعة الصفر. وكتبت غولدا مايير رئيسة وزراء إسرائيل في مذكراتها نفس الكلام..الجيش السوري خلع سراويله وترك الجولان"[١].

---

(١) قهوة سادة، ص ٤٤.

إنّ خلع السروال لغة سوقيّة تدلّ على تدني مستوى الحوار بين المثقف والسلطة، وتدل أحيانا على غياب هذا الحوار. إن فعل خلع السروال هو فعل رمزيّ يومئ إلى التخلي عن الرجولة والكرامة والشرف. فإذا كان السروال يستر عورات الرجال، فإن الحكام العرب قد تخلّوا عنه ولم يروا بأسا في ذلك. فالشرف والكرامة، وعزّة النفس والغيرة على المقدّسات، والمصالح الحيويّة للشعوب، أضحت لدى حكام القرن العشرين دالاّ بدون مدلول مادامت عروشهم محفوظة ومصالحهم مصونة. أما الشعوب فهي قطعانٌ يسهل التعامل معها وإسكاتها بأدوات منوّعة وصادمة. كما أنّ مسألة الهيمنة عليها هي مسألة وقت وجيز. إنّها "الجمع بين الإكراه والقبول (....). وقد حاجج غرامشي أنّ الطبقات الحاكمة تحقق السيطرة ليس بالقوّة والإكراه فقط، بل عن طريق خلق رعايا يستسلمون بإرادتهم في كونهم محكومين"[1]. هؤلاء الرعايا هم الذين يملأن الشوارع للمطالبة بتأبيد بقاء حكامهم وجلاديهم في السلطة بدعوى أنّهم الأقوى والأجدر بالقيادة. وهؤلاء هم الذين صدّقوا النظام العربي الرسمي الذي سلمهم بنادق لمقارعة اليهود الغزاة، ثم سحبها منهم، بدعوى أن الجيوش الرسميّة ستتولى الدفاع عن القاهرة واسترجاع الأراضي المحتلّة. وهم الذين يصدقونهم اليوم في وطنيّتهم العالية جدا ويعيدون انتخابهم في كل المواعيد رغم الهزائم رغم القهر والجوع والبطالة. فكل ذلك قدرٌ لا بدّ منه.

الجيش المصري خلع سراويله، والجيش الأردني خلع سراويله، وكذلك فعل جيش إسرائيل السري أمام النازيّة، والجيش الألماني خلع سراويله

---

(1) آنيا لومبا، مرجع مذكور، ص ٤٢.

أمام الجيش الأمريكي والجيش الأمريكي أمام الفيتنام، والفيتنام خلع سراويله أمام المدّ الرأسمالي العالمي. التاريخ الحديث مختَزَلٌ في خلع السراويل. فالكل منهزم أمام الكل. لا أحد منتصرٌ في عصر غياب الإنسان ذي البعد الكوني، وفي ظل غياب الفلسفات الإنسانيّة التي يحاول الغرب عولمتها بيُمْناه، بينما يسراه تعمل على تعفين الوضع العربي وتشييئ العرب وتوهينه مقاومتهم لعدوهم.

تحولت السراويل إلى راية استسلام الضعفاء للأقوياء أمام عجلة التاريخ العمياء التي تتدحرج على مرأى من الشعوب دون أن يملكوا القدرة على إيقافها، وهي تدوس أجسادهم وتطمر أحلامهم، وتطمس أوعاءهم، فلا يرون إلا طلاءها الخارجي الخادع وشكلها الفاتن.

يصل رضوان إلى لحظة الامتلاء، لحظة إدراك الحقيقة الكبرى التي يعمي عليها الإعلام العربي إلى اليوم. "إسرائيل حقيقة وليستْ وهما كما قالوا؛ هزمت ثلاثة جيوش عربيّة في ستّ ساعات: مصر وسوريا والأردن !!!"[١]. هل كان مثقفو تلك الحقبة يتلقون الحقائق ويدركونها في أوانها؟ لا شيء في التاريخ الحديث يوحي بذلك. فالعالم في النصف الثاني من القرن العشرين قسمة بين كتلة شرقيّة بزعامة الشيوعيّة العالميّة، وكتلة غربيّة بزعامة الرّأسماليّة العالميّة والتي تطورتْ إلى امبرياليّة عالمية تبتلع كل الشعوب الطفيليّة، ومن بينها شعوب الشرق العربي. فالخطابات التي كانت تعلو ولا يُعلى عليها هي خطابات القادة الذين تصدّروا واجهة تلك الأحداث، وهي خطابات النفاق السياسي وتزوير الحقائق وطمس معالم التاريخ. ومع اندلاع الحرب ضد العراق

---

(١) قهوة سادة، ص ٤٥.

في العشريّة الأخيرة من القرن الماضي، تلك الشعرة التي قسمتْ ظهر البعير، ازدادتْ أنظمة العرب عراء وتعريّا، وازداد وجهها قبحا، وخسرتْ مزيدا من الأراضي ومزيدا من المواقع والمحافل، وغدا صوتها واهنا وضعيفا، وتجرّأتْ بعض شعوبها على التمرّد والمواجهة والمغالبة. بيد أنّ شعوبا لا تستطيعُ تنظيف شوارعها من الزبالة... ولا حتى صناعة كبريت صالح للتصدير، لهي أعجز من تغيير الحالة الراهنة باتجاه الثورة على الاستبداد والفساد السياسي.

"العربي لا يفلح إلا في مضاجعة النساء"(١). إنها مقولة استشراقيّة تحيلنا على مقولات مؤسسة الاستشراق الكلاسيكيّة، هذه المقولات التي تحمل بذور فنائها في جوهرها. فلطالما رمز الفعل الجنسي إلى عملية الاختراق والامتلاك والاستعمار، وليست هذه حال العرب اليوم. إنها حالة الحكومات الغربية التي جثمتْ على كاهل الأمّة العربية أحقابا مديدة، وهي اليوم تجثم على العقل العربي بشكل محكم وأبدي. "ترمز الأجساد الأنثويّة إلى الأرض المفتوحة"(٢) . ومن هنا فقد وُظِّفَ جسد المرأة الشرقيّة للدلالة على الأرض العربيّة المستباحة. ووُسم الرجل العربي بالهائج جنسيّا وبالشبقي والعنيف، وبالتالي يجب تخليص المرأة الشرقية منه، من خلال تخليص الأرض العربية من الذين لا يستحقونها.

"العربي ضعيفٌ في فراش الجنس،(........) ومستواه متردّ وهمجي مثل الكلاب"(٣). وإنّ ضعفه في الفراش يعكس ضعفه في ميدان القتال

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٥.
(٢) آنيا لومبا، مرجع مذكور، ص ١٥٨.
(٣) قهوة سادة، ص ٤٦.

ومقارعة الآخر العدوّ الذي يغتصب منه خيرات بلده على مرأى مسمع منه، من خلال مساندة أنظمة رجعيّة وعميلة.

يحمل رضوان فتحي هموم وطن كبير وهموم أمة، وأحيانا يتفجّر وعيه الشقيّ تعبيرا عن هموم إنسانيّة تكشفُ عنها أحقاب تاريخيّة بالغة العنف. وأحيانا كثيرة يجرفه تيار الوعي وتتساقط منه همومه في لحظة اختراق بُعْدَيْ الزمان والمكان، فتختلط الأمكنة والتواريخ لتشكيل فضاء للمتناقضات والكوابيس. وتدفعه نكسة ٦٧ إلى سلسلة من التداعيات الحرّة تقدّم صورة قاتمة عن تاريخ القرن العشرين، والحداثة الغربيّة وما أنتجته من خيبات وأزمات أخلاقيّة شديدة السوء. فالإسرائيليون قتلوا "آلاف الأسرى من الجيش المصري في سيناء بلا رحمة.

قتل وحرق هتلر آلاف اليهود في المحرقة.

قتل الأمريكان آلاف الآلاف في هيروشيما بقنبلة ذريّة.

قتل الفدائيون الفلسطينيون مئات اليهود.

قتل اليهود مئات وآلاف الفلسطينيين"(١).

هستيريا من العنف والعنف المضاد في مجتمعات يسودها منطق القوّة. وهو وضعٌ يؤرّقُ الطالب رضوان، ويؤرّق المثقّف العربي بشكل عامّ، لأنه يترك انطباعا بأنّ العالم مؤسس على مبدأ المتناقضات، وأنّ البنية الضديّة فيه هي تشكيل جوهراني يتعذّر تجاوزها وإحلال التوافق بين مكونات الطبيعة والمجتمعات في علاقاتها بمحيطها الداخلي وجوارها الخارجي.

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٥٤٦.

يركب رضوان الترام ويستسلم لخياله وتداعياته ليتأمل في التقسيمات الطبقية المتوحشة في المجتمع المصري الحديث. "ترام الرمل غير ترام البلد...ركاب ترام البلد نجارون..حدادون..بائعو أوراق الخطّ ورق اليانصيب...عشوائيون...بقايا المجتمع. الفقراء بعضهم لا يحمل شهادة الميلاد، وبعضهم لا يحمل هويته، لا يحلمون إلا برغيف الخبز، ولا يعرفون وزيرا.. ولا يعلمون من يحكم البلاد"[1]. إنّ مثل هذه الفئات المعذّبة تشكل الأغلبيّة في المجتمع المصري. الفقراء لا يحملون إلاّ هم الرغيف وملأ البطون الجائعة. لا يهمهم من يحكم البلد، ولا من يدعو لانتخابات. أوجاع الحكام وصراعاتهم ودعاويهم وأحزابهم لا تهمّهم. لقد أغناهم الفقر والبؤس عن هذه الانشغالات. فعالمهم متميّزٌ، وفضاؤهم معزول عن فضاء الفئات الحاكمة وحلفائها من أصحاب المال والنفوذ. فيهم النجارون والحدادون والوراقون والمهمشون الذين لا يحملون هويّة ولا شهادة ميلاد؛ لأن هويتهم مبتورة عن الوطن، ومصالحهم غير مصالح حكام البلد. إن أحزانهم وأوجاعهم لا تشكل أي عبء أخلاقيّ على الساسة. إنهم يتألمون بمعزل عن العالم الخارجي. ولا أحد ينتبه لأنينهم. يتجرعون بؤسهم في غفلة من الناس. "إنهم ينبعون من الأرض، يعرقون ويعانون الجوع لبضع سنوات، ثم يغوصون عائدين إلى أكوام المقابر التي لا أسماء لها، دون أن يلحظ أحدٌ أنّهم ذهبوا. حتّى القبور نفسها سرعان ما تنحلّ رجوعا للتراب"[2] أمّا الآخرون، الأقليّة المستنيرة من أصحاب المال والسلطة فـ"ملابسهم ذات رائحة جميلة

---

(1) المصدر نفسه ص ٤٨٤٩.

(2) سعيد إدوارد، الاستشراق، ص ٢٥٧.

تشعرك بأنّك في إحدى مدن أوروبا..لهم وقار أبله.. ولهم حضور جميلٌ بنساء جميلات[1]

ولا تزال السلطة القائمة في بلاد الشرق تنتج خطابا ثقافيّا يؤبد الحدود الفاصلة بين الطبقات الاجتماعية، ويخلق مبررات أخلاقيّة وتاريخيّة لبقاء السادة في مواقعهم وخلق حالة رضا وخنوع لدى المستضعفين. وتقع مسؤوليّة مقاومة رغبة السلطة على عاتق المثقفين من الطبقات الوسطى بفضل موقعهم التفاوضي الذي يؤهلهم لدور الوسيط النزيه بين "السادة" و"العبيد".

صورة قاتمة يرسمها لنا رضوان عن مجتمعه الطبقي، تدفع به إلى التفكر في مآسي الشرق وآلامه وتخلفه. فقد بدا وأنّ الاستبداد السياسي طبيعة جوهريّة في الشرقيين. إنه مكون أساسي من مكوّنات ثقافة الشرق وسلوك طبيعي يسم حياتهم الفرديّة والجماعيّة. بيد أنّ هذه التصنيفات ذات التعيين الجوهراني تدفع إلى استحضار الأحكام العنصراويّة للمستشرقين الأسوأ سمعة في تاريخ الاستشراق الغربي الحديث. فمقولة أفلاطون أنّ الناس "مهيّئين أن يكونوا عبيدا لأن الطبيعة تميل للتفرقة بين الأعلى والأدنى موجودة في جميع الأشياء؛ نجد بعض الناس بطبيعتهم سادة وبعضهم بطبيعتهم عبيد"[2]. الطبيعة، تلك القوة الميتافيزيقية العمياء هي التي تصنف البشر إلى سادة وعبيد وهي التي توزع بينهم الفضائل والرذائل على أساس أعراقهم وتشكيلاتهم الثقافيّة التي تتخلّق، وهي في حالة تطور متلاحق، أو في

---

(1) الرواية ص ٤٩.
(2) المصدر نفسه ص ٧٨٧٩.

حالة سكون قاتل. انطلاقا من هذا المنظور الغيبي، نجد أنه لا السادة ولا العبيد اختاروا موقعهم الطبقي، وعلى الكل أن يتهيئوا للاضطلاع بما هيّأتهم له الطبيعة العمياء التي وضعتْ حدودا ابستيمولوجية وأونطولوجيّة بين السادة والعبيد. هذه الحدود من شأنها أن تؤبّد الصورة النمطيّة للمتطور/الهمجي، والراقي/البدائي، والفوقي/الدوني، وسليم التفكير/شاذّ التفكير. ويقع كل ما سبق داخل ثنائيّة كبرى تضع الذّات في مقابل الآخر، ضمن المجتمع الواحد الذي يتنفّس ثقافة واحدة، هي الثقافة الطبقيّة التي أنتجتها ولا تزال تنتجها قيمٌ سياسيّة عنصريّة. "إنّ بناء الهويّة يتطلب بناء ما يتعارض معها، وبناء الآخرين، وهم في الحقيقة بناءٌ دائم للتفسير وإعادة التفسير المستمرين للاختلافات التي تميزهم"[1] عن بعضهم البعض. فللسادة فضاؤهم الاجتماعي، ووسائلهم للتنقل، وطرائق تزجيتهم للوقت ونمط لباسهم وعاداتهم الغذائيّة، وللعبيد سبل كفاحهم للعيش، ولغتهم للتخاطب فيما بينهم. وأحاديثهم تتميز عن أحاديث الآخرين وهزلهم وجدهم ليس كغيرهم. فضاؤهم الاجتماعي مُسَيَّجٌ، يخضع لحدود ومحاذير لا يخطئها الإدراك.

ينتقل بنا رضوان في تداعياته الحرة إلى صورة أخرى هي أقرب إلى الرسوم الكاريكاتوريّة التي نحتتها مدونات المستشرقين الغربيين عن الاستبداد الشرقي باعتبارها مكونا أساسيا من مكونات الحياة الشرقية. ثمّ إنه يجلي استيهاماته من خلال موقف حلمي شديد الرهابيّة. يستنطق رضوان التاريخ من خلال كابوس عايشه في لحظة نوم، إذْ ظهر أمامه

(1) شيلي واليا، إدوارد سعيد وكتابة التاريخ، ترجمة أحمد خريس وناصر أبو الهيجاء، أزمنة النشر والتوزيع، الط العربية الأولى ٢٠٠٧. ص ٥٦.

السلطان سليم وعلى ثيابه آثار دم الفقراء والمساكين ودم "المماليك الأبرياء والنساء والرجال والأطفال. دم الفلاحين الطيبين في هذه الأرض..دم الإنسان الضعيف..هكذا يباح للأقوياء قتل الضعفاء..يا عصورا فوضويّة..يا مهزلة البشر..يا عصورا بربرية"[1]. بهذه التقنية العجائبيّة يستنطق رضوان تاريخ الشرق الملوّث بدماء المعذّبين في الأرض في ظلّ الاستبداد الشرقي. وسرعان ما يتفجّر وعيه بمعاناة النّاس في كل بقاع الأرض، حيثُ تزهقُ أرواح أطفال، وحيث تُغتال الأمومة وتنتهك كرامة الإنسان بكل أبعاده. "دوى في الحال صراخ آلاف القنابل..صراخ طفل يموت تحت أنقاض منزل يستغيث بانه الصراخ..لا يعرف الكلمات ..يستغيث بأنه جريحٌ بينما أمّه قد سقطتْ بلا أنفاس مشوهة، عليها تراكم التراب والحجارة"[2]. صورة تمثيليّة رهابيّة تختزل وحشيّة الحداثة الغربيّة ومفارقاتها العجيبة. ففي الوقت الذي كان فلاسفة الغرب يؤسسون لمذاهبهم الإنسانويّة والطوباويّة كانت الحكومات الغربية تبيد الشعوب كما تباد الأعشاب الطفيليّة. دمار في أوروبا، دمار في الفيتنام، دمار في مستعمرات الغرب في عصر الكولونياليّات، دمار وخراب حيثما مرّ الغرب وألقى بأنفاسه السامّة، تاركا وراء ظهره خلفيّته المسيحيّة وإنسانويّته التي لا تتجاوز السطح، واضعا تحت أقدامه آخريّة أغياره. "إن هذه الإنسانويّة الغربيّة الضيّقة الأفق، والناتجة عن خليط غير موفق للمسيحيّة (وحدة الجنس البشري)، وللديكارتيّة (الإنسان في قمّة الطبيعة) هي المسؤولة عن كل المصائب

---

(1) قهوة سادة، ص ٥٩.
(2) المصدر نفسه ص ٦٢.

التي حلتْ بالعالم منذ مائة وخمسين عاما. كل المآسي التي عشناها مع الاستعمار في البداية، ثمّ مع الفاشيّة، وأخيرا مع معسكرات الإبادة، لا تندرج ضمن معارضة أو معاكسة للإنسانويّة المزعومة، بالشكل الذي تمارسه بها منذ عدّة قرون، وإنما قد أقول ضمن امتدادها الطبيعي تقريبا"[١]. إنّ مآسي مصر، ومآسي العالم العربي كلّه، لا يمكن التفكير فيها بمعزل عن المصائر التاريخية للامبرياليّة الغربية وعقابيلها التي لا تخطئ أهدافها. وإن فتحي رضوان عندما يفكّر في مأساة بلده ووحشيّة الوضع الطبقي الذي تعيشه مصر، إنما يفعل ذلك في إطار تفكير جدلي بين الداخل والخارج. فالامبرياليّة التي لا تغيب عنها أي زاوية من زوايا الكرة الأرضيّة تترك بصماتها على أكثر التفاصيل خفاء ودقّة في الحياة اليوميّة لرجل الشارع الذي يفد على عالمنا بصمت ويغادره بصمت، ودون سابق إنذار.

---

(١) تزيفيطان تودوروف، نحن والآخرون، ترجمة ربى حمود، دار المدى، دمشق. ط الأولى ٢٠١٠.ص ٨٦.

خاتمة:

في نهاية هذا المقال، الذي أقرّ أنه لم يسيطر بالشكل المشتهى على تيمات الرواية ذات الخصوبة العالية بسبب تعقيداتها الجمالية والموضوعاتيّة، أرى أنه من الضروري تركيز نتائج البحث المتوصَّل إليها بشكل موجز ودقيق التحديد. فإذا كانت الرواية لا تصفُ الواقع إلاّ من منظور إيديولوجي شديد التخفّي في طبقات اللغة السفلى، فإنه بالإمكان الحديث عن عالم روائي هو ملتقى لكمّ هائل من المتناقضات والرغبات والصراعات الاجتماعية والفكريّة، بين فئات مجتمعيّة ذات مصالح طبقيّة متعارضة. إن الواقع الإنساني يُبنى ويفكّك بشكل مستمرّ. وإنّ أي شيء شبيه أو بناء شبيه بالماهية الثابتة يظل دائما محلّ تشكيك ونقض.

في المجتمعات البشريّة توجد قوى تعمل في الوقت نفسه في اتجاهين متعارضين. قوى تنمو نحو الحفاظ على الخصائص الذاتيّة وتعزيزها، وحمايتها من الذوبان، وقوى تعمل على الالتقاء مع الآخر المختلف، والتفاعل معه، وذلك يسمح لعمليّة التغيير بالحلول التدريجي محلّ الثبات. فتفقد العناصر الثقافيّة القديمة قداستها وتشهد المجتمعات والثقافات نقلات عميقة أو سطحية في بناها، بحسب درجة التحول ومستواه.

إن فتحي رضوان ومن خلال موقعه الطبقي، ووعيه الحداثي والثوري يسعى إلى نقض خطاب السلطة السياسية التبريري، وتفكيك أساطيره وحيله للالتفاف على مصالح الشعب المغيبة. إنه يكشف من خلال نقد إيديولوجيا السلطة الكم الهائل من التزوير الذي يتعرض له تاريخ مصر

الحديث، ومن ثم تاريخ العرب الذي أُختُزلَ في سلسلة من الهزائم والخيبات المتلاحقة، بدءا من نكبة ٦٧، ومرورا بحرب الخليج الثانية ولحاقا بالعلاقات السرية والعلنية بالكيان الإسرائيلي، وما تبعها مما سُمّي زورا بالربيع العربي.

من ناحية أخرى، وبخصوص صورة المرأة في الرواية، ورغم أنّ لغة السيد حافظ تميل إلى الرومنسيّة المكثفة، فيمكن رصد اتجاهين أساسيين ومتعارضين لتمثيل موضوعة الجنوسة العربيّة. فالجبل بكل رمزيّته وثقله الدلالي لم يتمكن من إيقاف مساعي اجتماعية محمومة ولكن خفيّة لتغيير أوضاع المرأة والموقف منها. إنها لم تعد صامتة، ومستكينة، في انتظار تمثيلها من طرف آخرها، بل أصبحت تملك جهازا مفاهيميا يمكنها من النطق برغباتها والتصريح بغرائزها، واكتساب معركتها من أجل شروط وجود أفضل من الماضي. تلك هي إرساليّة ناهد حجازي وفيفيان ووردة التي تجرّأت على ثقافة جماعتها، وخاضتْ معركتها بذكائها الأنثوي وكسبتْها في نهاية المطاف. ولقد كانت شهرزاد بثقلها التاريخي ورمزيّتها الحكائية تمثل صورة المرأة في التراث الشعبي، حيث تختلط الأسطورة بالحقيقة والواقع بالوهم، وحيث تحظى العادات والتقاليد بقداسة الأديان.

سيرة علمية

الاسم واللقب : بوخالفة إبراهيم

١ - متحصل على درجة الماجستير في الأدب العربي في النقد الثقافي

٢ - متحصل على الدكتوراه في نفس التخصص في جامعة الجزائر

٣ - أستاذ الأدب المقارن والنقد الثقافي بالمركز الجامعي بتيبازة

المؤلفات :

صناعة الشرق، دار الفكر العربي /الجزائر

أطياف الاستشراق / رؤيا للنشر والتوزيع / القاهرة

سلطة الآخر/ نور للنشر والتوزيع / ألمانيا

انحطاط العالم – رؤيا للنشر والتوزيع

تمثيل العالم – رؤيا للنشر والتوزيع

مملكة السرد – رؤيا للنشر والتوزيع

له كتابان في النقد الثقافي :

١ - صورة العثمانيين في روايات أمين معلوف.

٢ - الآخرية في الرواية الفرونكفونية.

العديد من المقالات المنشورة في مجلات وطنية ودولية

العديد من الملتقيات والندوات الوطنية



الموتيف في رواية " قهوة سادة "

أ. دينا نبيل

توطئة:

في محاولة لتصنيف الحكايات الشعبية العالمية، قام عالم الفلكلور الأمريكي ستيث طومسون بوضع "معجم الموتيفات في الأدب الشعبي" عام ١٩٣٢، مؤثثاً بذلك مصطلح "الموتيف" لأول مرة والذي صار فيما بعد أساس نظرية فلاديمير بروب في دراسته وظائف بُنى الحكاية العجائبية. ولم يتوقف مصطلح الموتيف عند حدود الحكايا الشعبية والأساطير، وإنما تجاوز كونه (أصغر وحدة جزئية في الحكاية الشعبية [...] لتصبح منهجاً متكاملاً لفهم كثير من الظواهر الثقافية والفنيّة)[١]؛ فصار جزءًا من الفنون التشكيلية والموسيقى إلى جانب الدراما والقص.

والموتيف كما يعرّفه د. سليمان العطّار، هو (موقف نمطيّ يتكرر منتزع من الواقع على يد الخيال، وله ملامح محددة لها قدر كبير من الثبات بعد انتزاعه من موضعه في سياق عدد غير محدد من الأعمال الأدبية الشعبية والفردية ثم تجريده، ثم يصنف في مجموعات يطلق على كل منها إطاراً موتيفياً)[٢]، ومثال ذلك الفتاة التي تغادر المكان مخلفة فردة حذائها، فيمكن أن يتغير تشكيل وحدة التعرف على الفتاة ليصبح منديلاً في حكاية أخرى، ومثال آخر الشخص الذي يعود بعد غياب ولا يتعرف عليه أحد إلا من علامة في جسده، وقد تتغير تلك الوحدة وتصير خاتمًا مثلاً أو قرطًا، فبالرغم من اختلاف تشكيل الموتيف إلا أنّ ملامح الموقف ذاته تبقى نمطيّة.

وقد يحوي العمل الأدبي الواحد أكثر من موتيفة، فتبدو الموتيفات كتمفصلات وتعشيقات تفرز ظواهر وتقنيات تؤثر في البنية السردية،

ومن ناحية أخرى تسهم في تحفيز الموضوعة الرئيسة التي يدور حولها العمل الأدبي.

ورواية "قهوة سادة" للأديب السيد حافظ الصادرة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب لعام ٢٠١٢، رواية ملحمية ليست الأولى للكاتب المسرحي الكبير، الذي أضافت تجربته المسرحية حسّاً فريدًا في كتابته الروائية، فـ(كاتب المسرح ليس إلا سياسيًا مبدعًا، يسيطر على ما حوله من واقع مفتت سيطرة الوعي المضيء، فيسعى للملمة شمل الفتات المتناثر خالقاً منها صورة متناسقة ذات نظام في عالمه)[٣]. والرواية تنقسم إلى جزئين: "حكاية سهر والعشق والقمر" والتي تمثل الواقع المعيش بين مصر وسوريا بعد حلّ الوحدة بينهما عام ١٩٥٨، والجزء الثاني: "حكاية نفر وإخناتون والنيل" والتي هي حكاية داخل حكاية، يتنقل فيها القارئ بين مصر الفرعونية ومصر الحديثة والشام، وهي محاولة لسبر أغوار الشخصية المصرية في واقعتين تاريخيتين فاصلتين من تاريخ مصر: هزيمة ٦٧ وثورة إخناتون لتوحيد الآلهة، بوصف الرواية الشكل (الملحمي المرن القادر على تصوير وتحليل وتجسيد بانوراما الحياة المصرية في كليتها الاجتماعية والسياسية والأخلاقية في سباق التطورات والتحولات السياسية والاقتصادية)[٤]، ثم يجمع الكاتب تلك المشاهد المتوالية - الأشبه بالمشاهد المسرحية التي تنبثق من بعضها وتتنقل عبر الزمان والمكان - في توليفة واحدة مما أضاف إلى ثرائها وعمقها.

استعان الكاتب في لحم هذا التقطيع بتعشيقات موتيفية استعارها من الحكايا الشعبية في التراث العربي والأساطير المصرية القديمة

والسومرية والإغريقية مما أعطى العمل عالمية أشمل، إلى جانب توظيف الرؤى الصوفية والتوثيقات التاريخية والصحفية، للتركيز على موضوعة وحداوية العالم وانبثاقه من ذات واحدة ألا وهي الروح .

المحاور:

١ـ مأتم الجسد (الفناء)
٢ـ البناء والهدم
٣ـ الثورة
٤ـ البحث عن الذات والخلاص

مأتم الجسد (الفناء):

يأتي العنوان الموضوعاتي "قهوة سادة" معتمدًا على مضمون الرواية عن طريق (المجاز المرسل والكناية المتعلقة بموضوع لا يتموقع الحديث فيه كثيراً)[٥]، فاستعان الكاتب بالوحدة الدلالية ـ القهوة السادة – التي ترسل للمتلقي منذ مصافحته عتبة النص الأولى إيحاءً بالموت وما يصاحبه من مأتم يسترعي انتباه القارئ لتعقب الجسد الفاني في النص. وهذا الارتباط بين القهوة السادة والمأتم من الموروث الشعبي العربي، لذا فيؤكد الكاتب في "صدر الرواية" على موضوعة فناء الجسد وما يرافقه من غرائز جبليّة: "أنسى أنّ النساء جسد من لحم ودم وأتذكر أنهن عطر له روح /٩"، فيجذب معه المتلقي نحو التسامي عن مطالب الجسد الدنيوية. وقد قام الكاتب بتخليق موتيفة جديدة من وحدة شُرب "القهوة السادة" وربطها بالموت أو القتل من ناحية، والنشوة الروحانية من ناحية أخرى، ويظل الكاتب يرسلها على دفعات مقدماً معها ارتقاءات إنسانية تبدأ من الجسد وشهواته منتهية إلى الروح.

ففي أول تقدُمة لموتيف القهوة السادة يربطه الكاتب بشهوة النكاح، "تنصح [شهرزاد] بعض النساء بعمل فنجان قهوة على الريحة قبل الجماع بنصف ساعة/١٧"، ثم يستعين به الكاتب لإظهار شهوة من نوع آخر وهي السلطة وفساد الحكام، يقول البطل - فتحي رضوان: "دعا ابن عباد القاضي [...] كل حكام الإمارات في الأندلس [...] للغداء ثم الاستحمام في الحمام الجديد الفاخر.. وشرب القهوة السادة هناك.. وأثناء الاستحمام أغلق عليهم الباب بالطوب والخشب وجعلها مقبرة جماعية/ ٧٧"، فهذا دليل على تفشّي الدكتاتورية واستغلال المكر والدهاء وتحليل القتل للانفراد بالسلطة – أكثر الشهوات إغراءً للإنسان - ثم يربطها بتوثيق تاريخي لمواقف مشابهة في أزمان مختلفة: محمد علي، وجمال عبد الناصر، وصدام حسين؛ لأنها أكثر المشاكل التي عصفت بالأمة العربية.

كما استخدم الكاتب الموتيف بإيحائه الحسي – المذاق الُمر– كناية عن استنكار الأوضاع في الوطن، يقول فتحي: "هل خدعت الشباب بحبها؟ وأنها أم الدنيا وأنا لست أولهم؟ [...] أنا قلت لهم إن لبن ثديها نقي تقي ثم وجدت اللبن في ثدي مصر هو دم رائحته قذرة ممزوجة بطعم القهوة المرة/ ٨٩"، فهذه ثورة ضد الجسد المصري الهجين الذي يتسيّده الخدم والرعاع محبو التملق والنفاق، وتعلو فيه رؤوس فساد لا تنظر إلا إرضاء نزواتها.

وفي تمفصلٍ فارق في الرواية تبدأ الروح بالانفصال والعلو عن الجسد الضائع، يقول فتحي: "آه في البرد أحتاج إلى قهوة سادة.. وإلى حضن أنثى [...] ينسيني أنثى ليس لها مكان إلا في جنة عشقي/ ١٠٦"، فتلك

الموتيفة وما يصحبها من ملامح جديدة كانقطاع الكهرباء في الشقة ومرافقته زميلته الجديدة ماجدة، التي تجسد في سمراوتها مقومات الشهوة، وشعور البطل بالضياع والتخبّط في الظلام، توحي بظلمة دونية الجسد ومتطلباته، لتبدأ بعدها مرحلة الارتقاء الروحي والتصوّف.

تتمظهر الرؤية الصوفية بجلاء في الرواية، كون (الصوفية في العصر الحديث دخلت ساحة الإبداع الأدبي بوصفها أحد العناصر المهمة في التيارات الحديثة وخاصة السريالية)[٦]، فتسلّم بفناء الجسد - أحد مقامات الصوفية - متخذة من "القهوة السادة" وسيلة للتنبيه الروحاني، يقول فتحي: "القهوة قبلات للروح كي تنهض [...] أكره أن روحي تغفل وعقلي يتوقف عن التأمل/ ٢٦٦"، فالقهوة لصيقة بمجالس الذكر الصوفية، لأنها تعطي فسحة للتأمل إلى حدّ يصل أحياناً إلى الهلوسة، "هذا هو فنجان القهوة أمامي قد برد.. وزهرة على المائدة ذابلة [..] أيتها المدينة التي تدعى القاهرة.. تعالي من وسخ الشوارع [...] تعالي ولو مرة واحدة لتشربي معي القهوة وأنتِ طاهرة/ ٣٥٩".

إنّ الجسد في نهاية الرواية يذوي تدريجياً حتى يصل إلى الفناء وعندها تتطهر النفس من جميع الأدران وتتمكن من الرؤية بصورة سليمة؛ وهذه الرؤية (مزيج من استعداد فطري ومؤهلات اكتسابية بعد رياضة وإجهاد وسياسة للنفس)[٧]؛ فقد عانى البطل واقعاً مؤلماً إثر انهيار كثير من المسلمات عن حاضر الوطن، "فتحي رضوان كان نموذجاً لملايين الشباب العربي والمصري الضائع الذي تطير أحلامهم في السماء كل صباح وترحل في المساء مع السفن المهاجرة إلى أميركا والغرب/١٨٥".

وتتداخل الرؤية الصوفية لموضوعة فناء الجسد مع موتيفة البحث عن الخلود بعد الفناء في أسطورة كلكامش السومرية، فحين وصلت رحلة كلكامش إلى نهاية مطافها، بدت له حقيقة الوجود الإنساني الآيل إلى الفناء الجسدي، فبدأ التفكير في الخلود الأخلاقي من خلال الصنيع الطيب. ومن ثمّ تتضح الرؤية الصوفية عبر الموتيفة كون التصوف (حاجة إنسانية ونفسية للخلاص والسمو والصفاء الروحي الذي لا بد وأن تسعى إليه النفس البشرية)[٨]، بل وتظل الروح تتنقل عبر الأجساد الفانية بغية الخلود، وبإسقاط تلك الرؤية على واقع البلد المرير الذي أودت شهوات أصحابه من حكام ومحكومين به فصار وردة ذابلة، يقول فتحي:"الوطن يذبل ويموت كالزهور ثم يحيا بعد أن نلقي فيه ببذور عشق جديدة/ ٣٥" فيدعو الكاتب على لسان البطل أبناء الوطن للتطهر من الشهوات والانبعاث الروحي من جديد.

وبسبب ارتباط القهوة بالتصوف فقد أضيفت لها إحدى لوازم الصوفية وهى ادعاء علم الغيب والكشف عن المستقبل بقراءة فنجان القهوة الذي لم تكن تجيده في الرواية سوى "شهرزاد العرّافة"، إلا أنّ الكاتب استخدم تلك الموتيفة بشكلٍ مغايرٍ، فرغم تنبؤ شهرزاد لمستقبل "سهر" بخروجها من الجبل والشام لتتزوج في الخليج إلا أنّ موتيفة القهوة السادة لم تكن لتلك النبوءة وإنما لكشف واستجلاء روح "سهر" الماضية: "مالت شهرزاد [...] وأخذت تصبّ القهوة، قالت: بلغني يا أميرة سهر أن الجميلة نفر عاشت في قصر الفرعون إخناتون/٣١٠"، وهي محاولة للبحث في الروح الإنسانية الأصلية، الذات الصافية التي لا تتغير عبر العصور ولا الأماكن.

وتبعاً للرؤية الصوفية والأسطورة الفرعونية فإن الأرواح تتناسخ وتحل في أجساد الآخرين؛ ومن ثمّ تظهر علاقة اسمي "كاظم" مع "باكا" واشتراكهما في الفونيمة "كا" والتي تعرف في اللغة الهيروغليفية بكونها (مظهراً من مظاهر الطاقة الحيوية كقوة خلاقة وكقوة تحفظ الحياة)[٩] يعني الروح، وتلك الرؤية جعلت الكاتب يتحكم في عجلة الزمان فيعيدها من الحاضر إلى الماضي ثم إلى الحاضر مجدداً بحلول وأجوبة أصيلة لواقع معاصر محيّر.

البناء والهدم :

تركز الرواية على موضوعة دورة الحياة وتكرار أحداثها حد الثبات، فتلتقي موتيفة القهوة السادة وفناء الجسد بموضوعة الثبات التاريخي، إذ (التاريخ حلقات من عصور تتكرر، فالزمن ليس تقدماً إلى الأمام بل هو عود على بدء)[١٠]. إن موضوعة العجلة الزمنية المفرغة إحدى إحالات موتيفة البناء والهدم المنبثقة من موتيفة الغزل والنقض في ملحمة الأوديسة الإغريقية، ففي الليل تنقض "بنيلوبي" ما تغزله في النهار في انتظار زوجها "أوديسيوس" وهكذا دواليك، ومثل تلك الدائرية حاصلة في الرواية، فنجد مثال ذلك ما ذكره الراوي على لسان فتحي رضوان، أنّ الحزب الوطني الذي أسسه مصطفى كامل، أعيد بناؤه على يد السادات بعد تداعيه وسُمّي بالحزب الوطني الديمقراطي ليرأسه رئيس مصر، وهو ذاته الذي حُطّم في ٢٠١١ على يد الثوّار، "وتم تغيير اسمه إلى الحزب الوطني الجديد بعد تولّي طلعت السادات رئاسته [...] حتى تم حل الحزب نهائياً بقرار من المحكمة الإدارية /٢٠١ ". إنها لُعبة تغيير أسماء وشعارات فحسب وليس تغييراً حقيقياً يتدخل فيه

الإنسان بقوة ليرغم تلك العجلة على التوقف عن هزليتها..
يقول فتحي: "كان لابد ولزاماً علينا بعد النكسة مباشرة أن يتغير المناخ الثقافي في مصر [...] كان لابد أن تتغير الكلمة وتنبع من أعماق الشعب وليس من أعماق الزيف [...] تغييرا جذريا ولكن للأسف لم تتغير سوى شعارات أو تغيير بعض الأفراد وتعيين مرتزقة جدد/ ٢٩٧" فإن الرضوخ والتسليم للواقع يقيّد الإنسان في عجلة الزمن وتجعله يرسف تحت نيرها دون توقف، ومن المفارقات أنّ هذه العقلية من الموروثات الفرعونية، يقول "بتاح حُتب"- أحد حكماء الفراعنة: (نحن أمام من هو فوقك [...] حتى يستمر بيتك مفتوحاً ويستمر رزقك ومرتبك جارياً ولا تعصه، فإن عصيان من بيده السلطة شر مستطير)[١١] فالنفس المصرية لديها إيثار الاستسلام للواقع بدائرية حركته على تحمل صعوبة التغيير.
بينما تظهر الحالة الفريدة للبناء الحقيقي فيما أراده إسخناتون من تغيير العبادة في مصر لتوحيد شتات العقل والوجدان المصري بين آلهة دونية في سبيل النظر إلى السماء وعبادة آتون "الشمس".. "كان إخناتون أول قائد فعلي في التاريخ لم يهتم برأي الشعب في العبادة، ووقف ضد الرأي العام [...] ومن سوء حظ إخناتون أن يفرض عقيدته في بلد لم يكن فيه رجل يستطيع نسيان الماضي غير إخناتون نفسه/٣٣٣"، فبينما هو ينقض ما قبله بتحطيمه تماثيل الآلهة القديمة في الليل، ليحكم غزله ببناء المعابد الجديدة لآتون، وتراتيله وأناشيده لتمجيد الإله الجديد ودعوته الرعية لاتباعه في مبادئه ثم إنشاء أكثر من مدينة تحمل الاسم ذاته "أخيتاتون" أي مدينة آتون، إلا أن غزله كان ينقض يوماً بعد يوم

من زوجته "نفرتيتي" وقائد الجيش "حور محب" والكهنة المتآمرين على قتله.. "وقد أعاد الكاهن الأعظم باسم توت عنخ آمون [ابن إخناتون] عبادة الآلهة القدامى [...] إن سقوط إخناتون كان يعتبر في نظر أعدائه المنتصرين إعادة للنظام الخلقي القديم [...] كان مذهب إخناتون كشهاب لامع وسط ظلام دامس فجذب النظر وترك بعض الأثر/ ٣٩٢"، وهكذا نُقِض الغزل لتعود الأمور إلى ما كانت عليه. وإن كانت تلك الأحداث منذ آلاف السنين، فإن إسقاطها على حاضر مصر بعد ثورة يناير ٢٠١١ ينقل وعي الكاتب وقلقه على مستقبل البناء الآخذ في التصاعد بعد الثورة وخشية الأيدي الخفية من اللعب بالبناء فيعود النظام السابق كما كان.

وتتجسد موضوعة دورة الحياة قرب نهاية الرواية في آخر مشهد لفتحي رضوان مع دودة القزّ – الرمز الموتيفي للغزل والنقض- لتجسيد الفكرة في بساطتها؛ فالدودة تغزل شرنقتها بالحرير الثمين وتظل خاملة حتى تصير فراشة، يقول فتحي: "فراشة دودة القز ربما هي روح أنثى.. ربما هي أنثاي المسحورة/ ٣٨١" ، إلا أنّ عمرها قصير، لأن القاهرة "مدينة لا تحب المواهب الكبيرة ولا المبدعين الكبار.. الحسد يفتك بعقلها/ ٣٨٣"، وبالرغم من عنصر النقض بموت الفراشة المحتوم إلا أنها خلّفت غزلاً حريرياً ثميناً وبيضاً يعود مجدداً لإكمال دورة الحياة، وبإسقاط هذه الرموز على الواقع، تتبين بارقة الأمل لدى الكاتب بظهور أجيال جديدة تشبه دودة القز، تغزل النفع والخير، وتنسى نفسها في سبيل مصلحة الوطن.

الثورة:

انطلاقاً من علاقة الأدب بالسياسة، تظهر الملامح السياسية في رواية "قهوة سادة" في تبنيها قضايا الثورة على الاستبداد والأوضاع السلوكية بوجه عام وبث الوعي بحقيقة الأزمة العربية. ونتيجة للهزائم المتكررة في تاريخنا العربي، فقد جنح الأدباء إلى استجلاب شخصيات تاريخية وتراثية وأسطورية، إذ (كان من الطبيعي أيضاً أن تتلازم أسئلة التراث والمعاصرة [...] مع أسئلة الهزيمة التي أنتجت معاً حراكاً ثقافياً عربياً عنيَ بالعودة إلى الجذور لاستلهام التراث بأشكاله كافة)[١٢]، وهو بالضبط ما قام به السيد حافظ في الرواية معتمداً على موتيفات متنوعة.

لجأ الكاتب إلى موتيفات تراثية وأسطورية تجسّد الواقع العربي على الصعيد السياسي وما يعصف به من استبداد من قبل الأقوياء، وموضوعة الثورة في مقابل الاحتكار والاستبداد تتماس مع موتيفة أسطورة "بروميثيوس" الذي تمرّد على احتكار الآلهة للنار، فـ (يرفض الاستسلام ويأبى الخضوع والانسياق ويحلم بالانتصار على الرغم من العذاب الشديد)[١٣]، وإنّ رفض الاحتكار والانفراد بمقومات السلطة من الأسس الأولى للثورة، يقول فتحي: "الطغاة كلما نهبوا طمعوا، كلما دمروا وهدموا، كلما موّناهم وخدمناهم زادوا جرأة واستقووا وزادوا إقبالا على الفناء والدمار. فإن أمسكنا عن تموينهم ورجعنا عن طاعتهم صاروا بلا حرب ولا ضرب/ ٢٣٧"

ومن ثمّ تتضح علاقة الموتيفة بالثورة ضد مظاهر الاستبداد والاحتكار مع تحمل تبعات الوقوف في وجه من بأيديهم السلطة، فمصير الثوّار في الغالب إما العذاب والسجن مثل "كاظم" عند اتهامه بالشيوعية أو القتل

كما يقول فتحي عن الأمير فخر الدين الشامي المستنير: " يا ويلك يا فتى هكذا يموت الثوار بلا صوت / ٦٠"، أو مصيرهم في طيات النسيان ولا يبقى منهم سوى تذكار، يقول سالم والد سهر: "كان الماضي حياً.. كفاح ونضال وتحرير [...] الآن الأمور ليست هكذا أعطوا كلاً منا نيشاناً ووساماً وشهادة تقدير[...] ولا شيء حصل.. الجنرالات حصلوا على كل شيء المناصب وأراضي ومال.. وأصبحت المقاومة في خبر كان/ ١٥٣" ، فهذا ما يحذّر منه الكاتب ومن مصير الثورة، لاسيما وأنّ الرواية كتبت بعد ثورة يناير ٢٠١١، فهو يتكلم بلسان البصير للأمور كي لا تؤول الثورة وحال الثوار إلى مثل من كان قبلهم.

وعلى الصعيد المجتمعي، تتبدّى الثورة على أوضاع المجتمع من خلال موتيفة العمل من أجل اللاعمل المنبثقة من أسطورة "سيزيف" - رمز العبثية -الذي تحدى الآلهة وقَبِلَ العقاب الأزلي بحمل الصخرة إلى قمة الجبل لتسقط إلى السفح فيعود ليحملها من جديد، و(ترمز أسطورة سيزيف باختصار إلى مجانية العمل الإنساني وضياع الجهد)[١٤]، ويترتب على ذلك وجود من يعمل ويكدح في مقابل من يقبض ثمن هذا العمل دون عناء، لذا فـ (طبقات المعنى الكامنة تحت رمز هذه الموتيفة ستمثل صراع الإنسان الطبقي)[١٥].

ويبدو عبر هذه الموتيفة المجتمع مصغّراً بطبقاته: أسرة "سهر" الشامية البسيطة ذات الكبرياء، فبالرغم من الفقر إلا أنّ "الأب كان سياسياً يحارب العدو الفرنسي المحتل/ ٨١"، والتاجر "شداد" الذي يمثّل الرأسمالية البورجوازية، "شداد تاجر فاجر يشتري ويبيع كل شيء.. شداد يشتري النساء كما يشتري الفاكهة.. النساء عند شداد مثل

التفاح والتفاح أنواع حسب الطعم والمكان/٨٦" ، فينظر إلى "سهر" كونها صفقة تجارية يدفع من أجل الفوز بها بأي طريقة حتى وإن وصل الأمر إلى الرشوة والخطف، وهذا البَون بين الطبقتين يفرز طبقة دنيئة من البشر تتخلى عن المبادئ وتستغل فاقة الآخرين، مثل مختار القرية "بسام" الذي تبدو فيه موتيفة زير النساء، تقول شهرزاد: "بسام القصير المكير الذي لا يتوارى أبداً عن فعل أي فاحشة في السر وخاصة مع النساء والمطلقات، واللائي يسافر أزواجهن إلى العمل بالخارج بحجة أنه يرعى النساء المكسورات الجناح/١٠١"، بل ويضحي بأمانيه - الزواج من "سهر" - في سبيل أمانِ أكبر "التاجر شداد وعده أن يعطيه أوتوموبيل فرنسي هدية للزواج/ ١١٣"، ومن ثمّ تظهر الهوة الكبيرة بين والد "سهر" الذي يحارب المحتل الفرنسي، وبين بسام وشداد اللذين يتاجران مع المحتل في سبيل إرضاء رغباتهما..

ومن خلال هذا الصراع يتبين لدى المتلقي العلاقة بين "سهر" والوطن كون (العالم المرجو تخليصه هو المرموز إليه بالمرأة)[١٦]، إذ الجميع يطمع في الوصول إليها بطرق شريفة وغير شريفة ويحاولون شراءها إلا أنّ والدها الثوريّ القديم يرفض كل ذلك بحس ثوري بسيط، ومن ثمّ تتضح أصناف البشر أمام الوطن وتناحر الطبقات إما بالحفاظ عليه أو التفريط فيه والتهاون في حقوقه من أجل المصلحة الخاصة.

كما عمد الكاتب إلى استخدام موتيفات تراثية عربية وتوظيفها مع موضوعة الثورة بطريقة حداثية، ولعل أكثرها وضوحاً هي شخصية "شهرزاد" التي تتناص جزئياً مع "زرقاء اليمامة"، ومن ناحية أخرى مع موتيفة "شهرزاد ألف ليلة وليلة". فتلتقي مع زرقاء اليمامة لا في

زرقة العينين فحسب وإنما في بُعد النظر، فإن كانت زرقاء اليمامة حادة الإبصار، فشهرزاد حادة البصيرة، فهي أول من تنبأ لسهر بمستقبلها: "اسمعي يا بنت سالم.. أنت لن يتزوجك ولا واحد من الفلاحين.. سيأتي من يأخذك إلى الخارج صاحب علم وفهم.. ويسافر بك إلى بلاد الذهب/ ١٥١".

وتلتقي مع موتيفة شهرزاد ألف ليلة وليلة إذ يقدّم الكاتب شهرزاد بشخصيتها في الرواية أقرب إلى الأسطورة "شهرزاد تعرف قصة لسان امرأة مسمّاة بالألفية جامعها ألف رجل/ ١٧"؛ فهي التي تحفظ الحكايات وكتب جلال الدين السيوطي وابن حزم وطوق الحمامة، وتفسّر الأحلام وتنصح النساء بنصائح المعاشرة ويتناقل الناس عنها الأخبار: "قالوا عن جمالها تزوجها جنّي جميل.. ومنع كل الرجال عنها أو الاقتراب منها/ ١٨" وهذا من منطلق الحكي الشعبي أنّ (تصور الزواج بين الإنس والجن وأحياناً تصور الحب بينهما بصورة سعادة واكتساب القوى ومعرفة المستقبل)[١٧]، وهذا سبب امتيازها عن بقيّة النسوة.

وهي إلى جانب ذلك تمثّل أحد عناصر الثورة ضد الأوضاع المجتمعية الخاطئة؛ فإلى جانب شربها مشروب "المتي" الذي كان يشربه جيفارا – الثوري اللاتيني المعروف، كانت تقف أمام قوى الرأسمالية التي يمثّلها التاجر شداد - الذي بدوره يمثّل موتيفة عقدة شهريار –

"فهو لا يمانع أن يتزوج أي أنثى [...] شداد لا يتوانى عن شراء أسرة العروس أبوها وأمها وأخوها وأختها.. وعندما يتم الطلاق يترك لها بعض المال ومصاريف العيال [...] لا يعرف أسماء العيال ولا عددهم [...] وإذا تزوجت امرأة قطع عن أولاده منها أي زاد أو زوّاد أو مال..

عقاباً لها لأن أي امرأة تتزوج شداد يجب ألا تتزوج بعده/ ٨٧"
فإن كان شهريار يقتل النساء قتلاً حقيقياً، فإن شداد يقتلهن معنوياً وحسيّاً معاً ويقتل معهن أبناءهن، فكل عام يتزوج من امرأة جميلة ويتركها ويرحل، فكانت شهرزاد "قهوة سادة" من أوضحت للأهالي وكشفت سره وألاعيبه على الفلاحين الفقراء لاسيما "سهر" - رمز الوطن في النص - تقول شهرزاد: "الحمد لله كشفت سره لأهل القرية.. حتى أنهم سيمتنعون عن بيع التفاح والزيتون له/ ١٥٢"
وهذا أساس الثورة الذي تكلّم عنه فتحي رضوان من إمداد الضعفاء للأقوياء في طغيانهم وبغيهم، فكان الامتناع والمقاطعة خير عقاب لهم.
البحث عن الذات والخلاص:
إن موضوعة البحث عن الوطن لا تقتصر على الغياب الحقيقي عن الوطن الذي ولد وعاش به المرء، وإنما قد يكون البحث مجازيّاً فتكون الغيبة روحية أو غيبة الإنسان عن ذاته حتى يعثر عليها في الأخير. وباستقراء شخصية البطل – فتحي رضوان - نلاحظ أنّه يعيش حالة من القلق الوجودي، فـ (يواجه الفرد بمسئوليته، ويدعوه لإدراك وجوده الأصيل)[١٨]، وتساوره الشكوك ولا يفتر عن طرح الأسئلة حول العالم الذي يعيش فيه لتمييز حقيقته عن زيفه حتى فيما يتعلّق بأكبر الحقائق في حياته – الوطن - "كان يبحث عن سؤال لماذا سميت مصر أم الدنيا؟ مع أن كل حياتها وتاريخها العسكري محتشد بالهزائم المنكرة/١٨٢" وغيرها كثير عن العروبة والازدواجية وأصل فلسطين هل هي عربية أم يهودية!، حتى يصل به الحد إلى الاغتراب الوجودي وهو (اغتراب عن وجود الإنسان ذاته، وإحساس المرء بأنه في العالم لا في بيته)[١٩]

يقول فتحي: "سمعت دقات قلب الوطن تلازم دقات قلبي.. وجدتني مواطنا بلا وطن.. وجدتني مشروع كاتب في وطن أميّ.. ومثقفًا وسط أدعياء.. وطيبا وسط أشرار/ ٣٥" ومن ثمّ فيفتقد الشعور بالانتماء ويفكّر في السفر، وتتماس تلك الموضوعة مع موتيفة التنقل والأسفار في حكاية السندباد البحري وبحثه عن الكنوز والترحال؛ (فالسندباد من حيث هذه الدوافع وغيرها رمز لقلق الإنسان وطموحه اللامتناهي إلى الحرية والانسلاخ من القيود، والرغبة في الكشف عن المجهول والغامض بالمغامرة وركوب الخطر وتخطى الصعاب، وتجاوز المكرور السائد)[٢٠]، فشخصية فتحي دائمة التنقل والسؤال للكشف عن حقيقة المسلمات، لذا فاستعان الكاتب بالتوثيق الصحفي والتاريخي لإظهار صدق وديمومة بحث البطل عن زيف الحقائق التي يسلم بها الناس بلا تفكير، فأدرج الكاتب اقتباسات من الصحف الرسمية ومذكرات الزعيم محمد فريد وخطابًا لجمال عبد الناصر وغيرها من كتب السيوطي وابن كثير.

وبالرغم من حداثة هذه التقنية إلا أنّ الكاتب أحسن في إدماجها بشخصية البطل ومقارنتها بأحداث مشابهة، وكان تنقل فتحي الجسدي كذلك بانتقاله من الإسكندرية إلى القاهرة ثم التفكير في السفر للكويت بغية حرية التعبير، وكذا التنقل بين الوظائف من خطيب باتحاد الطلاب إلى مصحح لغوي ثم مراسل للأدباء، فكل هذه التنقلات بما فيها التنقل بين النساء اللاتي أحببهن – ناهد وفيفيان وماجدة – باختلاف دياناتهن وجنسياتهن تؤكد رغبته الجامحة في البحث عن ذاته ووطنه الذي ضاع بضياع ذاته.

وإن كانت حالة الشك الوجودية مسيطرة على البطل، فهو (يحاول خلالها أن يجد طريقاً للخلاص من سجن العالم الذي أُلقي فيه دون إرادته)[٢١]، يقول فتحي: "أعلن أنا فتحي رضوان خليل حتى لو هزمتنا إسرائيل والعالم كله والأمريكان.. لن أهزم أبدا أبدا.. أنا روح وصمود هذا الشعب العنيد العبيط [...] ومن روحه أستضيء.. وأبعث في الكلمات وردة الحياة/ ٤٦"، ففتحي الخطيب الذي يحرك الطلاب ومشاعرهم، أشبه بالمخلص، ومن هنا تتلاقى شخصيته مع موتيفة المخلص الذي يضحي بذاته في سبيل الآخرين ووصول الآخرين إلى الحقّ، فبالرغم من امتلاك فتحي أدوات تجعله يتحكم بالجماهير – الكتابة والخطابة – إلا أنّه لمحيضحِ بمبادئه ولم يسلك طرقاً ملتوية أو سهلة ككثير من أصدقائه.

وقد عمد الكاتب إلى موتيفة المخلّص بسبب الإحباط العاصف بالذات العربيةفاستنهض (شخصية المخلّص بوصفها رمزاً أسطوريّاً معبّراً عن تطلّعات الجماعة المقهورة وأحلامها، والباحثة عن قوّة تبعثها من رمادها، وتستعيد لها إمكاناتها المضيَّعة)[٢٢].

وطبقاً للرؤية الصوفية في الرواية، فإن وسيلة الخلاص هي التخلّص من دنس الشهوات الدونية بالتحرر من ربقة الجسد للانطلاق في فضاءات الروح وكذلك (العودة إلى رحم الطبيعة، أو إلى قيم البداءة الأولى، لتحرير الإنسان من بطش القوى السالبة)[٢٣]، بل والاتحاد مع سائر العصور والحضارات السالفة، يقول فتحي: "من تلك المنطلقات يدخل في أحرفي العصر اليوناني والروماني والفرعوني يصيرون وحدة واحدة وفضاء بلا خريطة من تلك المنطلقات أشعر أني مجرد نقطة

بيضاء وخطوط حمراء وصحراء مزروعة بياسمين شفتيكِ/٣٦٠"، وقد أعان الكاتب في تلك النظرة الشمولية كون الإسكندرية هي المسرح الرئيس للأحداث وهي مدينة (كوزموبوليتانية يتعايش فيها الجميع بكل حب وود وسلام منذ الأزمنة القديمة)[٢٤]، فالأجانب من جميع الأجناس والملل يعاشرون المصريين يقاسمونهم الألم والهم المشترك فيه الجميع كونهم ينتمون إلى المكان ذاته.

وتتمظهر موتيفة المخلّص في أكثر مظاهرها جلاءً مع إخناتون بوصفه الإنسان الوحيد في الرواية الذي استطاع تحقيق الصفاء الروحاني، والتجرّد من الاستبداد السلطوي والجسدي والأكثر استنارة وحرصاً على شعبه، فكان جزاؤه الخيانة والقتل، يقول إخناتون: "الكهنة سبب بلاء هذه البلاد باسم الآلهة يلعبون بعقول الشعب الساذج البسيط. أنا جعلت الآلهة إلها واحدا [...] أنا أجادلهم بالتي هي أحسن ولم أقتل أو أحاكم أحدا يعبد إلها غير آتون/٢٤٤" ومن ثمّ يسمو بأناشيده وخلقه عن الدنايا، فجاء مشهد قتله أثناء الصلاة واختفاء جثّته ليذكرنا بالمسيح وصعوده إلى السماء، فإن فَني جسد إخناتون المخلّص فإن روحه لا تزال موجودة وطبقاً للرؤية الصوفية التي تتلاقى هنا مع موتيفة المخلّص فإنها ستتنزل من جديد.

وبإسقاط تلك الأحداث ورموز هذه الموتيفة على حاضرنا تتضح رؤية الكاتب وأمله في ظهور تلك الروح من جديد، ومن ثمّ تتماهى تلك الموتيفة مع رؤية الكاتب التي ذكرها في "الإهداء"، يقول: "أكتب هذه الرواية بحثاً عن روح مصر المتخاذلة سبعة آلاف عام، وبحثا عن روح مصر أخرى للإنسان فيها معنى وقيمة وحضارة حقيقية فعلا وقولا.

خاتمة:

"قهوة سادة" رواية ملحمية دسمة تتزاحم بها الرؤى الصوفية والوجودية الفلسفية مع النظرة الواقعية التوثيقية للأحداث مما يضع المتلقي في مواجهة قوية مع ماضيه وحاضره وزمانه ومكانه وذاته والعالم بأكمله. وبالرغم من طغيان المسحة المسرحية على شكل الرواية إلا أنها كانت شديدة الترابط والتناغم بين المشاهد فيما بينها، وساعد على ذلك الموتيفات المتنوعة التي استخدمها الكاتب، وقد كان لتنوعها الأثر الكبير في أسطرة الكثير من جوانبها وشخوصها بل والنزوع إلى عالميتها فلا تكون قاصرة على شعب دون غيره، بل وكأنها اختزال كامل للحضارة الإنسانية بأسرها وهو مكمن إبداعها.

الإحالات :

١- الموتيف في الأدب الشعبي والفردي "نحو منهجية جديدة": د. سليمان العطّار، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة، ط١، ٢٠١٢: ص ٩
٢- المصدر ذاته: ص ٢٩
٣- المصدر ذاته: ص ٢١١
٤- أوراق نقدية في الأدب: عبد الرحمن أبو عوف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٦ ص ١٧٠
٥- عتبات (جيرار جينيت من النص إلى المناص) عبد الحق بلعابد، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف الجزائر، ط١، ٢٠٠٨ ص ٧٩
٦- الواقعية السحرية في أدب نجيب محفوظ رواية "ليالي ألف ليلة": حامد أبو حامد، مجلة إبداع مجلة فصلية للأدب والفن، العدد ٩، شتاء ٢٠٠٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة : ص ١٠٨
٧- بنية السرد القصصي الصوفي(المكونات والوظائف والتقنيات): د. ناهضة ستار، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٣: ص ٢١
٨- المصدر ذاته: ص ٢٣
٩- معجم الحضارة المصرية القديمة: جورج بوزنر، سيرج سونرون، جان يويوت، أ. أ. س. إدواردز، ف. ل. ليونيه، جان دوريس، ترجمة: أمين سلامة، مراجعة: د. سيد توفيق، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٩٩٦: ص ٢٧٩
١٠- قال الراوي، تأملات في فن الرواية: أحمد عبدالمعطي حجازي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧: ص٥١
١١- آثار حضارة الفراعنة في حياتنا الحالية: محرم كمال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧: ص ١٩
١٢- النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة: د. نضال الصالح، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ٢٠٠١: ص

٧٣
١٣- أثر التراث الشعبي في القصيدة العربية المعاصرة (قراءة في المكونات والأصول) دراسة: د. كاملي بلحاج ، اتحاد الكتاب العرب، دمشق ، ٢٠٠٤: ص ٨٥
١٤- المصدر ذاته : ص ٨٧
١٥- الموتيف في الأدب الشعبي والفردي: ص ٦٧
١٦- المصدر ذاته: ص ٧٢
١٧- فنون الأدب الشعبي: أحمد رشدي صالح، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧: ص١٤٠
١٨- المحاكاة السردية للقلق الوجودي في رواية "عزازيل": د. حجاج أبو جبر، مجلة الرواية قضايا وآفاق، العدد ٦، سنة ٢٠١١ الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة: ص ٣٥٧
١٩- المصدر ذاته : ص ٣٥٨
٢٠- أثر التراث الشعبي في القصيدة العربية المعاصرة: ص ٩٢
٢١- المحاكاة السردية للقلق الوجودي في رواية "عزازيل": ص ٣٥٨
٢٢- النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة: ص ٧٣
٢٣- المصدر ذاته: ص ١٤٥
٢٤- رواية الإسكندرية في الربع الأخير من القرن الماضي: أ. شوقي بدر يوسف، مؤتمر اليوم الأدبي الواحد، تطور الرواية السكندرية في الربع الأخير من القرن العشرين، ٢٠١٠، الهيئة العامة لقصور الثقافة، الإسكندرية: ص١٥١



قراءة في رواية "قهوة سادة"

أ. عواطف الزين

مشاهد مسرحية يمتزج فيها التاريخ بالواقع، بسير العشاق.. رواية "قهوة سادة" للسيد حافظ هي نمط مستحدث لفن الرواية العربية الذي بدأ يخلق أنماطه المختلفة البعيدة عن التقليد للغرب وعن "التقليدية" السائدة لهذا الفن السردي في عالمنا العربي منذ حوالي نصف قرن من الزمن.. في "قهوة سادة" نقرأ حكاية سهر والعشق والقمر.. عنوان رومانسي لمشاهد واقعية مكتوبة بعناية ودقة يمتزج فيها النضوج الأنثوي لسهر بوقائع مؤلمة مثل تنحي الزعيم الخالد عبد الناصر حيث نتعرف على واقع سهر وأسرتها، ومن ثم على كاظم معلم اللغة العربية في مدرستها لنكتشف أنه يعشقها بصمت، كما كثير من الأحداث التي تتداعى بصورة فيها من التلقائية والصدق تشعرك بأن الراوي هنا هو "حكواتي زمانه" ينتقل بك كقارىء من مشهد إلى آخر بيسر وسهولة، لكنها ليست السهولة المقدور عليها بقدر ما هي تطويع للغة وللمضمون وللمشهد بكل تفاصيله..

الانطباع الأول الذي كونته من خلال قراءاتي لهذه الرواية هو أنها عبارة عن مشاهد مسرحية تاريخية ملحمية ممزوجة بسير عشاق ليسوا من الخيال وإنما من الواقع.. وتلك الواقعية أكسبت الرواية مسؤولية تقديم العرض الروائي إذا صح التعبير، على شكل مشاهد مغرقة في الشفافية والصدق.. ليس بالضرورة أن تبنى الأحداث على خيال الكاتب، وإنما أن يوظف الخيال لخدمة الواقع من دون أن يؤثر ذلك في بنية الرواية.. ينتقل بك الكاتب من حالة عشق وحبيبة إلى حالة عشق وطن رغمًا عن مآسيه وكراكيب وحرتفات خياله.. هناك قدرة فائقة على التأثير والغوص في غمار ذلك الواقع التاريخي لسيرة الأوطان والأشخاص، وهما

الركيزتان الأساسيتان للرواية من ألفها إلى يائها.. لست هنا في صدد عرض تفاصيل الرواية كمضمون وكبنية فنية وكلغة آسرة حتى في أدق تعابيرها ودلالاتها ومفرداتها؛ فالمشهد الروائي يحيط بكل ما تقع عليه الأحداث على خشبة الزمان والمكان.. ومن خلال عناوين تلك المشاهد يمكننا تلمس جو الرواية العام.. البداية مع حكاية سهر والعشق والقمر.. شعب كالعبيد "العروبة وهم أم حقيقة؟ هل يعود بك الفجر؟ الوطن ليس وردة.. أنت رعشة في الدم ..حكاية إخناتون.. لمن أكتب.. المساء والقمر في طيبة.. وتحكي شهرزاد "الشام".. أخجل أن أقول أنا مصري.. إخناتون قبل الضربة القاضية.. وعناوين أخرى كثيرة موزعة على ٣٩٣ صفحة من المتعة الروائية يجسدها السيد حافظ عبر قهوته السادة أي المرة التي تشبه الزمن المر.. أي زمن الرواية وزمن الواقع..

في ص ٤٤ نقرأ: "حب الوطن أكبر خطيئة لأنه كائن هلامي يسكننا ونسكنه رغمًا عنا.. لو علمنا أن الله يرث الأرض وما عليها لعشقنا الله فقط "

في ذات الصفحة:

"هزمت سوريا معنا واحتل الإسرائيليون الجولان والضفة الغربية من الأردن.. قال الأستاذ هيكل أن الملك حسين خان عبد الناصر والأسد، وأبلغ إسرائيل بموعد الحرب وساعة الصفر.. وكتبت جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل في مذكراتها نفس الكلام.. الجيش السوري خلع سراويله وترك الجولان، والجيش المصري خلع سراويله وترك سيناء وغزة والعريش، والجيش الأردني خلع سراويله وترك الضفة.. والجيش الإسرائيلي السري خلع سراويله أمام هتلر وحرق هتلر اليهود في

المحرقة.. والجيش الألماني خلع سراويله أمام الجيش الأمريكي والإنجليزي في الحرب العالمية الثانية.. والجيش الأمريكي خلع سراويله أمام الجيش الفيتنامي تحت قيادة هوشي منه في حرب فيتنام.. والجيش الفيتنامي خلع سراويله بعد الحرب وقرر التمتع بالقمار والملابس والاستيراد والتصدير وممارسة البغاء.. يا صديقي إنها حرب السراويل.. العالم والبشر حقراء يشربون دم بعضهم صبحًا ومساءً.. إسرائيل حقيقة وليست كما قالوا، هزمت ثلاثة جيوش عربية في ٦ ساعات مصر وسوريا والأردن"

وفي مكان آخر من الصفحة أو المشهد نقرأ: "منذ نشأة القاهرة في العهد الفاطمي وهي متسخة كما قال الجبرتي وحتى الآن.. إحنا شعب غلبان.. كيف نحارب ونحن لا نستطيع تنظيف شوارعنا من الزبالة ولا حتى صناعة كبريت صالح للتصدير؟"

هذا جزء من مشهد عربي واقعي يتسم بالسخرية والتهكم وهو يعكس حالة العرب المتردية ويعكس هزائم جيوشها في الحروب ويعري مجتمعاتها.. ويذكر في ص ٤٥ أن المرة الوحيدة التي نجح فيها جيش مصر بكرباج محمد علي الذي دربهم على القتال.. وضعوا في أذن الفلاح المصري اليمنى بصلة واليسرى قطعة قطن حتى يعرف اليمين من اليسار.

ولشهرزاد أيضا حكاياتها في هذه الرواية التي تشربنا القهوة السادة، بينما تمتعنا بكل تفاصيلها العميقة والشفافة في آن واحد، من وجهة نظر الكاتب السيد حافظ، الذي يقدم تصورًا لروايته من خلال رده على بعض ما تجمع لديَّ من أسئلة حول الرواية وحول عنوانها الملفت.. ماذا يقد

الراوي هنا؟ هل للاسم من دلالة معينة تخدم الهدف الرئيسي منها؟ وكيف يترجم هذا الاسم ترجمة واقعية من خلال رسم ملامح عامة لزمان الرواية وأمكنتها المختلفة أو لنقل عصورها المختلفة.. إذ ليس بالضرورة أن تكون حاضرًا يستشف المستقبل أو محملًا بذكريات الأمس البعيد وعبق زهوره الوارفة حبًا وعشقًا ودفئًا.. فقط هي مزيج من هذا وذاك..

يقول السيد حافظ: شهرزاد إحدى بطلات الرواية هي امرأة سورية من الجبل تحب القهوة فأحببناها معها اندماجا وتقديرا وتوحدا، والقهوة عند الصوفيين هي تنبيه للعقل والروح للذكر فإنك تذكر الله وأنت بكامل الوعي والتفكير، والقهوة والشاي عندي مدد الروح للكتابة وعند الجنس في العشق القهوة وهكذا.

ما وظيفة قصص الحب مع ذلك الخيط الشفاف من الجنس في بعض المشاهد؟ وإلى أي مدى تتأثر رواياتك بالمشهد المسرحي الذي تجيد صياغته ككاتب مسرحي متميز وله مؤلفات مسرحية عديدة؟

أعتقد أنى متأثر بالشعر والمسرح والسيناريوهات التي قدمتها للشاشة، متأثر أنها تجربة القلم وخبرة العشق فلا مناص أن تجدي العشق والمسرح والسيناريو.. أن أخذ الرواية إلى فضائي الحياتى والكتابي

رواية قهوة سادة أيضا تعكس مرارات واقعنا المتأزم من خلال إسقاطات الماضي على الحاضر وتدور في فلك الأحدث كأنها تحمل قنديلًا للدلالة على مكامن الخلل الإنساني لأي مجتمع من المجتمعات؛ فعلاقات الحب أو العشق لا تحمل دائمًا دلالة سلام للنفس أو المشاعر قد تكون نابعة

من حالات هروب من ذلك الواقع، وقد تحمل أيضًا الأمل في الخلاص من الظلم أو الكراهية أو الحقد أو التعصب ومعايشة الحقيقة وتقبلها.. يسعى الكاتب من خلال روايته إلى وضع النقاط على الحروف بوضوح حتى لا يختلط الحابل بالنابل ويفسر التاريخ على غير محمله.. من ناحية ثانية ليس بالضرورة أن يكون الكاتب هو الذي يحسب ويقيم ويعيد صياغة الوقائع إذا يكفي أن يدلنا عليها، وألا يفقد الكاتب معنى كتابته وهدفها.. في رأيي لا توجد كتابة خارج تأثيرات الواقع سلبًا أو إيجابًا ولا يمكن فصل التاريخ عن الحاضر عن المستقبل.. هذا تماما ما يظهر في هذه الرواية العميقة التأثر بالتاريخ الإنساني أولا قبل تأثرها بوقائعها على الأرض..

قهوة السيد حافظ السادة أو المرة هي قهوة ممتعة بعد أن طوع مرارتها بفنية ومهارة.



قراءة لرواية "قهوة سادة" للمبدع السيد حافظ

رؤية: أ. فهمى إبراهيم

حين تجلس على طاولة المتعة الثقافية تقرأ رواية "قهوة سادة" للمبدع السيد حافظ، فإنك تـُسحر برائحة التحويجات الصوفية الرائعة في رواية شديدة التميز في أشخاصها وأحداثها زمانًا ومكانًا، وفي أجوائها المشبعة بعبق تاريخ يغذي الروح ويهب الحلمَ فضاءً لا نهائي ويمنح العقلَ قدرةَ التحليق.. بجناحين من تأمل للواقع واستشراف لما يتوقع.

تحويجات صوفية تضيف لذائقة الفكر طعمًا ممتعًا بنكهة الرؤيا الكاشفة، والإبداع الاستثنائي. "قهوة سادة" فنجان تحويجات تبوح للجسد بأسرار الروح، حتى تتخلص من كل ما يحاصرها من ذنوب وآثام، تقص عليك حكايات أسطورية الملامح عبقرية القسمات.

تحويجات صوفية.. تنبهك بأساطير فراعنتها وأبطالها، وطقوس كهنة معابدها.. تقرأ عليك طلاسم سر التوحيد.. وحكايات التوحد.. وتقمص الروح للجسد.. وتسمح لك بدخول عالمها الصوفي، المحاط بعبق أساطير تسترجع الماضي، لتضيف للحاضر سحرًا أسطوري الملامح، حبًا لتراب الأوطان وعشقًا للبطولة والتضحية، من خلال تصاعد إيقاعها الرشيق وتطلق عليك بخور ملوك جن تحويجاتها المنقوعة بالعشق والمطحونة برحي التاريخ والمعجونة بالدهشة.. وخلاصة متعة المعرفة. تنبه فيك الوعي بعشق خرافي الطلعة سحري القسمات.. خلطة تحويجات سحرية المذاق عطرية التأثير تتمرد على واقع تنبهك إلى تغييره أو تصنع لك حلمًا كنت تحتاج إلي تفسيره.. تنبه فيك الروح والعقل وتتجاوز بك أسوار الممكن، ربما تصل بك إلى رؤية المستحيل.. إبداع حقيقي لكاتب متميز، استطاع أن يوظف أبطال ملحمته شخصيات تتكامل سلوكيتها مع الحدث تؤثر فيه وتتأثر به.

تتطور دراما الأحداث في أسلوب شعري يتميز به الكاتب، مع التطور الدرامي السلس لشخصيات الرواية، وطقوس سلوكياتها اليومية بارتكاب الحدث أو التأثر به، وارتباطها بساحات انفجاراته، وأجواء الصراع الناشئ مع هذه الشخصيات، ليأتيك حامل الربابة، ملك السحر والعطر بربابته الشجية، يلقي عليك تعاويذه وطقوسه، واضعا في فنجان قهوتك السادة، تحويجاته الصوفية الرائعة، يعطر جو الحدث ويلقي عليك حكمة تفسيره، أو يجعلك هائمًا في تيه اندهاشك، بعد أن أدخلك فيه وجعلك شريكًا وأنت لا ناقة لك ولا جمل.

ومنذ الرشفة الأولي تجد نفسك غارقًا في استمتاعك الخفي، باحثًا عن سر هذا الاستمتاع، الذي يأسرك بتحويجات أسلوبه الشعري الراقي، وتعدد شخصياته وتقارب خطوط مغناطيسيتها التي تكون لك مجالًا من السحر والعطر والمسك وتصعد بك آفاقًا صوفية المواسم والأمكنة وتلقيك في محطات تطهير الروح بعد أن يمنحها سبع فرص لتطهيرها حتى تأتي يوم الحساب لتأخذ حسابها بيمينها.

***

لقد استعاض الكاتب بإضافة تحويجاته الرائعة بديلًا موضوعيًا عن سكر القهوةالتي تجعل من مرارتها مذاقًا يفوق مذاق السكر طعمًا وحلاوة وواقعًا وخيالًا حتى لا تخطئ الروح وتتحول إلي طبيعة حيوانية تفعل ما يروق لها من آثام وترتكب ما يدنسها من ذنوب.

هذه الرواية الرائعة تقع في حوالي ٤٠٠ صفحة مقُسمة إلى جزأين: الأول حكاية سهر والعشق والقمر، والثاني: حكاية نفر وإخناتون والنيل

عتبة أولي: إهداء

منذ بدايتها، ومن أول الإهداء تشعر بلوعة الكاتب في إهدائه إلي حفيدته وابنه، ويلقي إليك بإحدى تحويجاته.. تغريدته الصوفية الأولى التي هي بطعم البن المر ولكنها بنكهة وعطر الروح. {يا أيها العابرون علي ذكري طفولتي ألقوا عليها الورد والابتسام.. أنسى أن النساء جسد من لحم ودم وأتذكر أنهن عطر له روح } ص٩

عتبة ثانية

{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا } صدق الله العظيم - سورة الإسراء الآية (٨٥)

إن هذا الجزء ما هو إلا تعبير عن وجع الوطن الذي وقف أبناؤه يوم ٢٥ يناير يحملون أرواحهم علي أكفهم ضراعة للقاء وطن ضاع منذ سبعة آلاف عام تحت أقدام الطغاة وبين سحب الظلم والتخاذل بحثًا عن روح مصر أخرى فيها معني وقيمة وحضارة حقيقية فعلا وقولا.

عتبة ثالثة

ببقعة دم علي قميص نوم "سهر" رمزًا للبلوغ وتحقيقًا للنبوءة.. البنت صارت أنثى.. تبدأ الشخصيات نموها مع نمو الحدث في توازٍ لا يحمل نفورًا ولا تضادًا؛ فالشخصيات موظفة توظيفًا دراميًا لخدمة تسلسل الأحداث في نعومة وسلاسة وانسيابية مرحة.. تحمل خفة الدم المصرية، وتجهمات بعض أحداثها.. تصنع لك مفارقة صارخة تثير شغفك وتستثير شجون النفس أحيانا بملامح أشخاصها وتركيبة شخصياتهم وكأنهم يتحدثون أو يتعاملون معك ليأخذوك من عالمك دون أن تدري ويضعونك في ساحات عالمهم مسحورًا في نوبة متعة لها طعم القهوة السادة التي

أضافت إليه تحويجات الكاتب السحرية الرائعة عطرًا من البهجة والسحر.

***

عتبات شخصيات الرواية

" سهر"

"سهر" الروح السابعة: الروح الممتدة الوارفة التي تمد غطاء سحرها على كل ما ومن حولها الكل أجمع علي أنها لا تضع عطرًا، بل هي رائحة من السماء في جسدها.. هي شخصية تسحب غطاء سحرها على بقية الشخصيات التي تدور في فلكها الأحداث والأشخاص.

"سهر" هي السحر الخفى: { "سهر" اسم يعرفه الليل والبحر والشجر وأحلام الشباب والرجال والعجائز على أبواب الدكاكين والمحلات في الجبل في بلاد الشام"} ص ١٥

التطور الدرامي لشخصية "سهر" باليوم والشهر والسنة تتابع ينمو مع نمو الشخصية سنًا وعمرًا ومكانًا مما يسهل لك صعودك مع الحدث واستمتاعك برشفات فنجان قهوته السادة.. بتحويجاتها الصوفية الرائعة فما بين اكتشافك رمزية بلوغها - مرحلة الأنوثة - ونمو خط شخصيتها مع أحداث الرواية محطات تجمع الناس وتفرقهم.. فيهم من يصعد ومن ينزل.

"سهر" رمز العشق وجماله.. عشقها كل أشخاص الرواية رجال ونساء.. ولها مع كل شخصية حكاية عشق جديدة "سهر" التي ترفرف

روحها.. تحوم حول سواحل العالم.. وتريد أن تنطلق فوق السحب والبحار.. تريد أن تكون كل يوم في بلد.. ترى أن الحرية تمتد وتمتد إلى ما لا نهاية.. "سهر" قطر ندى يأخذك بين محطاته المتنوعة يسقيك فنجان قهوة سادة جعله الكاتب بتحاويجه وتحابيشه وسحر وعطر شخصياته لا يحتاج لشيء من السكر لأنه أحلى منه.

"سهر" هي الشخصية الرائعة الشفافة تتميز بالإباء واحترام الذات يعشقها كل من يقع في مجال مغناطيسيتها يعشقها الآباء والأبناء.. عشقها المختار ولما أراد أن يستميلها بثمن بخس بالنسبة له قصور وضيعات وعزٍ وجاه. {"نظرت له نظرة احتقار وبصقت على الأرض ومشت"} ص١٠٢وكذلك أرادها ابن المختار زوجة له كما أرادها المختار كان عشقها إباء وعفة حتى "عم فالح " البستاني في مدرستها يهتم لأول مرة بالزهور..{"لأنه يريد أن يهدي "سهر" وردة كل صباح.. البنات تغار منها رغم أنهن جميلات مثلها"}

"سهر" تضحك مع زميلاتها وروحها المرحة مثل الصباحات الربيعية ولأن العشق ابتلاء كما كان أبو سهر يؤمن بذلك حتى الطيور حينما علمت بقصة عشق عصفور الكناري الشقي الذي أسموه عصفور"سهر" رمز الروح المتقمصة. {"جاءت العصافير والطيور فوق سطح بيتها.. جاءت لها وعندما تسير في الطريق تكون العصافير سربا يطير فوقها" } ص٨١

"سهر" هي الطبيعة كلها عندما كانت تنام كان العصفور الشقي ينام بين نهديها في حضنها. {"والعصافير التي في أوكارها علي الشجر المقابل لبيت سهر تحسد العصفور اللا منتمي.. العاشق لأنثى من البشر علي

استحمامه كل ليلة بعطرها.."} ص١٠١

عصفور سهر له رمزية ساحرة المتعة.. طوال رحلتك مع أحداث شخصية "سهر" وتطور الشخصية دراميًا يتفق مع تطورها زمنيًا ومكانيًا وأحداثًا وبالأرقام أيضا بتميز وسلاسة ونعومة وارتقاء يجعلك تشعر أنك قد صاحبتها ماضيًا وحاضرًا متعاطفًا معها ومستمتعًا بها متمنيًا أن تكون قريبًا منها، أو ملازمًا لها، أو منغمسًا فيها.. وقد لاحظت أن الكاتب كما يستخدم التاريخ الميلادي يؤرخ بالتاريخ الهجري ليؤكد انتماءه لعروبته كأنك أمام مؤرخ عربي يلقي محاضرة أعدها بدقة واحتراف محدَّدَة التأريخ والمعالم ولكنها متعددة الرؤى.. وقد ركز الكاتب علي السحر الخفي في هذه الشخصية بالرغم من أنها ليست الشخصية المحورية الأولى ولكن هذا يدل على أن كل شخصية بعالمها الخاص وبمدارها المنفرد تشع بأجوائها السحرية وتتماس عند نقطة التقاء أو تتقاطع في مساحة وارفة تجمع لك من حقولها سنابل متعة ساحرة وأعشابًا نادرة يضعها الكاتب في تحويجات قهوته السادة.

إن شخصيات السيد حافظ جميعها شخصيات محورية نجوم قائمة بذاتها، تدور كل شخصية في فلكها وتدور كلها مجتمعة في مجرة واحدة هي قهوة سادة التي تتكون من كل هذه النجوم والكواكب والأقمار.

***

"شهر زاد"

"شهرزاد" العرَّافة التي أحبت "سهر" لأنها تذكرها بشبابها وجمالها ولأنها تنبأت لها بسفرها إلي بلاد النفط وأنها ستتزوج من ثري وتفتح لها المدن ألف نافذة نور والتي كانت تهجم على أي رجل يطلب يد

"سهر" "سهر" لتقرأ له كفه محذرة إياه بأن "سهر" عشيقة القمر ومن يتزوجها يصاب بالعمى، وكان الكثير يصدقونها ويهربون.."شهرزاد" عرَّافة الجن التي يمدها عشيقها الجني بالسر وبأسرار كل البشر؛ فتعرف للنكاح مائة اسم، وخبيرة بأوضاع إثارة المتعة وكيفية عمل فنجان القهوة قبل الجماع بنصف ساعة حتى تنجب المرأة ذكرًا.. "شهرزاد" شخصية مميزة بخصوصيتها وظفها الكاتب لخدمة شخصيات الرواية دراميًا فهي اسم على مسمي يحمل معه الأساطير والحكايات الممتعة المسلية التي تعرف مدينة العلو والإيضاح في أسرار الليل وتحكي لك بلسان امرأة جامعها ألف رجل فحكت عن كل رجل منهم.. وكأن الكاتب كان يتمني أن يكون واحدًا منهم حتى تحكي عنه "شهرزاد" لكن للأسف ما كان قد ولد بعد.

"شهرزاد" التي أنهت الجزء الأول من الرواية لتبوح بسر عطر العرق الطبيعي لـ "سهر" قائلة لها {"إن روحك هي التي تعطر جسدك يا صغيرتي الأرواح تتناسخ وهناك تقمص الأرواح"} و"سهر" قد تقمصتها روح فتاة اسمها نفر وأن {"هذا ليس عصفورا.. بل قلب عاشق هائم بعشقك يا سهر.. المريد يسير والمراد يطير وللعشق حكايات نعجز عن فهمها.. الله هو رب القلوب"} ص ٢٣٩

"شهرزاد" التي ستحكي حكاية نفر مع إخناتون في الجزء الثاني من الرواية، ثرية الأفكار والتدابير تشدك إلى سحر عالمها لتضيف لمسة العطر وهمسة السحر وتمتعك بحكايات بديلًا عن شخصية الراوي مما عمق أبعاد الشخصيات بنبوءاتها وبخورها وعبق حكاياتها.. "شهرزاد" تحويجة أضافها الكاتب باحتراف وبراعة."شهرزاد" هي العرَّافة التي

أنهت الجزء الأول من رواية قهوة سادة لتقول لـ" سهر" أنت تتقمصك روح فتاة اسمها نفر ومن هي نفر؟ كان يا ما كان في سالف العصر والأوان في العصر الفرعوني، وهنا يتركنا الكاتب المبدع السيد حافظ مشدوهين يرتعش الشوق فينا رغبة ورهبة لمعرفة حكاية نفر في الجزء الثاني من الرواية.

***

"كاظم "

صاحب العشق الخفي أو العاشق الهارب.. هذه الشخصية عدة دوائر متقاطعة تتفاعل مع أحداث الرواية: الوسامة، العشق الخفي، سجين المهنة دائمًا يحاول الهروب لكنه متردد. "كاظم" معلم اللغة العربية في مدرسه "سهر" المواطن العربي المعارض للنظام الذي لا يستطيع أن يفتح فمه إلا عند طبيب الأسنان، والذي كان يحلم بأن يكون سياسيًا فصار معلمًا لنتمتع بالمفارقة الرائعة في ازدواجية هذه الشخصية بين المعلم والسياسي.

** "كاظم" أشقر وسيم ذو ثلاثين عامًا

*** سجين بين فصول الطلاب وعقول التلاميذ وبرغم ثقافته وقراءته لـ "فرويد"، و"كولن ولسون": الجنس هو أحد أقوي الرغبات التي يجربها الإنسان.. يغلق "كاظم" الكتب وينام يحلم بالجنس والباء والنساء و"سهر".. هنا تتجلي ملامح شخصية العاشق الذي كما يدور في فلك عشقه الخاص يدور أيضا في فلك الشخصية المحورية "سهر".

"كاظم" الذي حلم أن يعيش في مصر وتكون سهر معه

"كاظم" يعشق سهر في صمت وينسى نفسه وقد كتب على الماء وريش

الطيور والحجر.. "حبك قدر".. والذي يغلب عليه صدق حبه في حركاته وسكناته ويدفعه لاختراع الأسباب والحجج من واقع عمله ومحيطه الخاص الذي سهل له عملية التواصل مع أهل من يحب.. وقد أبدع الكاتب بأسلوبه الشعري في تصوير عالم شخصيته بمفرداتها وخصوصيتها وأجوائها ووصفها في مراحل الحب المختلفة مما ساعد محيط هذه الشخصية المركبة أن يتفاعل مع مستويات شخصيته.. داخليًا وخارجيًا بجو خبير وكأنه هو كاظم نفسه الذي أحب طالبته "سهر" الجميلة وبالرغم من أنه معلمًا للغة العربية ألا أن عشقه أنساه بعض حروفها فنسي نفسه.

آه يا "سهر".. ثلاثة حروف نسيتها حين عرفتك "ألف نون ألف"

كاظم العاشق {"الذي يهوي "سهر" يقف أمامها أحيانا وينظر نظرة ربما تمتد عمرًا أو زمنًا أو ما لا نهاية.. كل الأزمنة باطلة، لأن زمن العشق الدقيقة فيه بألف عام مما تعدون.. ويبحر في عينيها إلي حدود اللا مرئي"} ص٨٣

كاظم الولهان: يعيش حالة الوجد تجاه سهر {"يشرح الحصة وعيناه في عينيها.. والبنات يثرن ضجيجًا وصخبًا وحقدًا وحسدًا ولهوًا وعبثًا، خاصة "وردة" ابنة المختار بسام"} ص ١٠٠_الذي كان {"في البيت يدور ويدور مسجونًا بالعشق مسجونًا بالعطر"} ص١١٢

ويتجلي صراع شخصيته السلبية مع الإيجابية عندما: {"حدثه أبوه في الهاتف وعرض عليه مجموعة أسماء من البنات للزواج لكي يختار واحدة منهن"} ص ١١٢ لأنه لا يفكر إلا في سهر.. العكس والتضاد والصراع الخفي بين الشخصيات وبعضها البعض يتجلى في شخصية

"كاظم" الذي تنتابه الهواجس ويتجلى الصراع الداخلي لشخصيته المذعورة بهواجسها في مونولوج داخلي رائع حينما أطل من شرفته ذات يوم ورأى أبا سهر وهو يحمل بندقيته فاعتقد أن أباها قادم إليه ليقتله (صفحة ١٧٩ ، ١٨٠) وأنه سيصبح صورة وخبرًا في صفحة الحوادث بدلًا من صفحة السياسة والوزارة وحزب جديد غير حزب البعث.. مفارقة رائعة تثير الضحك أكثر مما تثير الشفقة..

"كاظم" الذي لم يلمس امرأة في حياته حتى تزوج من وردة برغم حبه لسهر.

"كاظم" بشخصيته المترددة عكس "وردة" بشخصيتها المقتحمة الواثقة التي تفعل ما تريد حين اقتحمت علي "كاظم" عالمه وهو هيمان بحب "سهر" واستخدمت أسلحة الأنثى الجبارة لتفترس حصاره وتوقعه في براثن أنوثتها المتوحشة.

"وردة"

"وردة" من أجمل بنات الجبل ابنة المختار "بسام" وأخت "راغب" وزميلة "سهر" في الفصل وفي المدرسة وبرغم زمالتها لـ "سهر" إلا أنها لا تحبها ولكنها تحب خالتها "جمال" الجميلة رمزًا للتحضر والرقي التي تسكن في دمشق ولها بيت في الجبل.. تفهم الحياة دون تعقيد.. تحب السفر والرحلات.. تحب الرقص.. لذلك هي المثل الأعلى لوردة يخاف أن يقترب منها الشباب لأن أباها المختار مع أنها إحدى أشهر الجميلات..

وكأن الكاتب أراد أن ينبهنا بأن الجاه أو الجمال أحيانًا ما يكون نقمة أو سبب في ابتعاد الرجال حتى وإن كانوا مناسبين.. وتتجلي المفارقة أيضا

بين سمات شخصية وردة وأمها فأمها تزوجها المختار "بسام" رغما عن أنف أبيها لم تعرف الحب.. تسمع عنه من النساء فقط ويحمرُّ وجهها خجلًا عند الحديث عنه فهو بالنسبة لها من المحرمات، وعندما تشاهد في التليفزيون فيلما أو مشهدًا عاطفيًا.. تشعر بغياب عقلها وجمود قلبها.. وأنها خطفت إلى سيبيريا وجمدت هناك.

***

"سلمى أم سهر" الأنثى الجميلة..

من الطبيعي أن تكون الشخصية غير المؤثرة في الأحداث، ولكنها مؤثرة بأمومتها فهي غير طاغية وغير مؤثرة كابنتها لكنها تمثل روح الأمومة بكل أبعادها "سلمى أم سهر" تدور في فلك العرافة "شهرزاد" والتي اقتصر دورها علي أنها أم سهر.. وعلي إطلاق البخور في البيت لمنع الحاسدين لـ"سهر".. ويتجلى التوازي للشخصيتين بين شخصية "سهر" وأمها في توازي اتفاق، من حسن الجمال والخلق والروح الطيبة ومن التأثر بالعرافة "شهرزاد" وتأثير العرافة على الأم وابنتها "سهر"

***

"سالم" أبو "سهر"

شخصية المحارب الثابت الجأش الذي لا يبيع ابنته بقفص فاكهة الذي رفض إلا أن يحارب للدفاع عن وطنه والذي كان دائمًا عندما يجلس، يجلس ممددًا ساقه التي عليها نيشان الشرف من الحرب وهو إصابته في قدمه اليمني والذي كان يشرب "المتى" مشروب أهل الجبل خلطة أعشاب، والذي كان يشربه جيفارا.. الكاتب هنا يركز علي مشروبات

الأبطال كما هو الحال مع مشروب قهوته الصوفية المحوجة بكل حكايات أبطاله وأساطير شخصياته الأولين.

"سالم" {"الأب الذي يحمل من الحرب إصابة في قدمه اليمني.. ويقول أنها سوف تكون تأشيرة دخوله للجنة يوم الحساب، وسوف يدخله الله الجنة مع الشهداء والصديقين والعاشقين، لأنه يؤمن بأن العشق ابتلاء، وأنه أحب سلمي أم "سهر" ودفع الثمن غاليًا هرب بها ذات يوم في جوف ليل كافر بالبشر.. اغتصب فيه الأعداء الفرنسيون نساء القرية.. وهرب هو بسلمي"} ص٨١

"سالم" أبو "سهر" هدوء المقاتل وتصرف الأبطال قوي الشخصية والذي كان يجلس في مضيفة البيت عندما جاءه المختار "بسام" والتاجر "شداد" ليخطبا "سهر" ورفض أن يبيع عقله وقلبه وشرفه بقفص، وتصرف بهدوء مقاتل وبطل فاز علي فرنسا ولم يهزمه البرد ولا الجبل فاتجه إلى الحائط وسحب بندقيته وصوبها نحوهما فخرجا مهرولين خوفا من البندقية وأغلق الباب وراءهما.. مفارقة بين ثبات شخصية المحارب الواثقة وشخصيتي المختار والتاجر الماكرة المستغلة

"سالم" أبو "سهر" الأب الحنون الذي عندما شعر أن ابنته غير سعيدة قال لها: {"الحب قدر.. والزواج قدر.. فى كل بقعة ارض يحاصرنا قدرنا.. على كل بقعة ارض نطأها يوجد لنا قدر ورزق.. لو رفضت العريس سأرفضه"} ص٢٨٤

هناك قلة ولدت لتكون سعيدة، أما الباقون جميعًا يمضون حياتهم في سعى للبحث عنها...

***

"سامي" العاطل المتطلع للسفر{"أخو "سهر" الذي يجلس علي المقهى التي تطل على الجبل.. يشرب الشاي والشيشة.. ويحلم بأن يذهب إلى أمريكا ويرتدي قبعة.. ويركب سيارة أمريكي ويتزوج من حسناء أمريكية"} ض١٩٣

سامي طويل عريض المنكبين يحلم بالطيران حول العالم والذي حلم ذات مرة بأن يتزوج "وردة" ابنة المختار لكنه لا يحب الريف والذي أكسبته التجربة أن غياب الرجال عن النساء في السفر مدة طويلة يدفعهم للبحث عن رجل ما.. أي رجل وأن الشهوة تفضُّ بكارة الفضيلة دون رحمة.. وأن رحمة السماء التي تخص بعض البشر أحيانا تكون العفة والعفاف.

"سوسن" أخت سهر الفتاة الجميلة التي كانت تشعر بالغيرة من أختها سهر لكثرة خطابها

"المختار بسام" المسئول المستغل: {"المختار بسام القصير المكير الذي لا يتوارى أبدًا عن فعل أي فاحشة في السر وخاصة النساء الأرامل والمطلقات.. واللائي سافر أزواجهن إلى العمل بالخارج بحجة انه يرعى النساء المكسورات الجناح"} ص١٠١ والذي حاول تسهيل الزواج للتاجر شداد مقابل أوتوموبيل فرنسي هدية الزواج وذهب معه إلى بيت سهر ولكن أبو سهر سحب عليهم بندقيته ولقنهم درسًا فروا من أمامه كالفئران المذعورة وكانت ليلة سوداء عليهما.

ومن مفارقات ليلة الطرد.

تتمثل في قمة المفارقة المضحكة حينما صاح المختار

{"آه أيها القدر من أين أتيت لي بـ "سهر"؟.. فلم يتحمل ليلتها حتى أصابع زوجته أم راغب علي كتفه العاري كأنها أشواك جبلية فصرخ

فيها:

- جسدي لا يتحمل.. نامي وما تتحركي يا امرأة"} ص ١٣٣

وبينما نامت سهر في فراشها في أحضان العصفور بلا قلق.. أيضا كان "شداد" في الفراش حتى الصباح في قلق.

التاجر شداد: رمز الجشع رجل ثري وتاجر.. يتزوج كل عام من امرأة جميلة ويتركها ويرحل {"أربعون عاما.. طويل عريض له شارب كثيف ويرتدي معطفًا وغطاء رأس عربي"} ص ١١٤ وصوته أجش.. أكبر تاجر يشتري من القرية الزيتون والتفاح ولديه معصرة للزيتون وعنده وعنده.. الذي حاول أن يستخدم ماله وثروته للزواج من "سهر" عندما كان عمرها حينئذ ١٧ سنه.

***

الخاطبة ميثاء: وكالة الأنباء المتحركة الخاطبة العجوز الحيزبون، وهي تميز شخصية الجبل بعلاقاته الاجتماعية في الزواج والتي كانت تعرف كيف تتصرف لتحصل على عنوان كاظم في الشام لتأخذ وردة معها لزيارته في المشفى لتسهيل زواج وردة من كاظم والتي جاءت بمنقذ عريسا لـ "سهر" من أجل أن يخلو الجو لوردة لتنفرد باقتحام كاظم، والتي ما إن علمت وردة بخطوبة سهر حتى انطلقا إلي بيت كاظم الذي تتجلى مظاهر شخصيته المترددة حينما وجدهما أمامه حتى أصيب رعبًا ثم أبلغاه خبر خطبة سهر فأردياه قتيل العشق واللوم لعدم تقدمه لخطبة سهر..

وتأتي المفارقة الرائعة بين الحزن والارتياح وتأثير خطوبة سهر بشخصيتها الطاغية على القرية؛ فعندما علم الشباب والرجال بخطبتها

انطفأ شرر لهيب العشق وحزنوا وعندما علمت الفتيات والنساء بخطبتها تنهدت قلوبهن ارتياحًا من الغيرة..

شخصية الميثاء المستغلة المنتقمة والتي كان جزاء انتقامها أن أمرها المختار أن تترك البلد واشترى منها البيت..

مروّج الإشاعات أبو الريش.. الرجل الداهية الأعرج وعصاه وحماره الذي يحب نقل الكلام والإشاعات، والذي استغلته الميثاء لتنتقم من وردة التى لم تساعدها فى محنتها وهى ابنة المختار الثرى لعدم مساعدتهم في علاج أخو الميثاء فهو يعيش آكلًا شاربًا من هذه الوظيفة.. وظيفة نقل الحكايات والإشاعات.. والذي نال جزاءه حين وشي بزيارة وردة لكاظم في المشفى في الشام بأن قام راغب أخو وردة بربطه على شجرة وضربه بالكرباج.

"منقذ" العريس

منقذ العريس الجديد لسهر الذي يرتدي أحلي الثياب ويعمل في الإمارات، وهو مثقف ومتعلم ويحصل على راتب كبير، ويمتلك سيارة وله شقة جميلة ورصيد في البنك.. وهنا يسلط الكاتب من مصابيحه الكاشفة دائرة المقارنة بين من تقدم لخطبة سهر بين المختار والتاجر والعريس الجديد منقذ، ثم يظهر لك بشخصية سهر في هذه اللحظة وما يعتريها من قلق.. هي وأختها سوسن التي كانت تنظر من ثقب مفتاح الباب لتخبر سهر بالأحداث، وسهر في متاهة لا تعرفها

***

نأتي إلي الفخامة في الرواية ليقدم لنا الكاتب شخصية ثرية عاشقة متعددة الأبعاد والأعماق ممتعة بحضورها وقوة تأثيرها علي بقية

شخصيات الرواية

فتحي رضوان.. الإنسان.. حلم تحرير الأمة من التخلف، وثورة المطر، الذي ولد في نفس اليوم الذي استشهد فيه في فلسطين البطل أحمد عبد العزيز قائد قوات مصر في حرب ١٩٤٨ الأحد ٢٣ أغسطس ١٩٤٨ وأشعر أن لهذا التاريخ دلالته عند الكاتب بدوائر شخصيته المتميزة الخارجية والداخلية والنفسية: مصري الملامح، عربي التفكير متناقض الشخصية، وإن كان تناقضه إيجابي فهو لا يحب الرياضيات والمواد العلمية لكنه يملك رغبة دفينة في أن يفهم سر الذرة.. يكره النحو لكنه يحلم أن يلتحق بقسم الحضارة والآثار.. بسيط الحال يحلم أن يجوب العالم، كل العالم.. عالمي الإحساس بالجمال.. دائرة هذه الشخصية أكبر دوائر الرواية إذ تضم معها العديد من الدوائر لتكون مجرة قائمة بذاتها.. هنا يأخذك الكاتب إلى مسرحه، ويقوم بدور المخرج المسرحي حيث يثبت دائرة الضوء على البطل فتحي رضوان، وبعدسة الزوم المكبرة يقرب لك مراحل نمو الشخصية دائرة فدائرة، وكلما اقتربت منه دائرة زاد حجم شخصية فتحي رضوان، وزاد بريقها وسطوعها ويزداد انبهارك بها، وإعجابك بها رغم ما بها من تناقض يبرز المفارقة ويوضحها بإبداع سردي يحمل لك قطوفًا من معلومات عامة جاءت في سياق الأحداث في أماكنها وتواريخها بأرقامها وتفاصيلها ويصعد بك دراميًا في أحداثه المتلاحقة ليسلط على هذه الشخصية بقعة الضوء الكبيرة الكاشفة لتجد شخصية "فتحي رضوان" الملحمية بطل الفتوحات والأساطير كان نبتة صغيرة زرعتها بيدك وتابعتها يومًا بيوم، وحدثًا بحدث حتى صارت زهرة مكتملة تشع العطر والسحر وتملأ أرجاء المكان

حركة وأحداثًا..

فتحي رضوان نموذج لملايين الشباب العربي والمصري الضائع التي تطير أحلامهم في السماء كل صباح وترحل في المساء مع السفن المهاجرة إلى أمريكا والغرب ضحية الزمان والمكان؛ فحين يسلط دائرة بداية البلوغ ليشعرك بفزع فتحي رضوان عند بلوغه وهو يجري نحو جده {"صاح بفزع جدي ظهرت شعرتان عند قضيبي ضحك الجد وقال لقد بلغت وكبرت صرت رجلا"}ص٣٤

التوازي بين الشخصيات :

بقعة دم على قميص نوم "سه".. الفزع البنت صارت انثي.. الفرح والشعرتان عند فتحي رضوان.. الفزع الصبي صار رجلًا.. الضحك رمزية بقعة الدم للبلوغ عند سهر ورمزية الشعرتين عند فتحي رضوان، وبعد اكشاف البلوغ بست سنوات يكتشف هزيمة ٦٧؛ فعندما تبلغ الأشياء نضجها يمكن اكتشاف الحقيقة وهنا تظهر الشخصية الكاشفة من دوائر شخصيته..

يثبت الكاتب مايسترو المسرح دائرة الضوء على شخصية "فتحي رضوان" ويدخل لك بدوائر الشخصيات الأخرى التي تدور في محيط دائرة "فتحي رضوان" حتى يتم التماس أو التقاطع أو التداخل ويبدأ بشخصية "رغيدة" {"رغيدة ١٨ سنة بيضاء عيناها زرقاوان.. شعرها أشقر.. متفتحة الأنوثة"} ص ٣٢ زوجها "محمد الطويل" يكبرها بـ ١٧ سنة موظف يجهل العشق والنساء.

وتظل تتضخم شخصية فتحي رضوان كلما تقاطعت وتداخلت فيها دوائرها المحيطة بها ليكتشف في نفسه لحظات الإشراق عندما اكتشف

أن الوجع ليس له هوية وليس له ميناء واكتشف أن حب الوطن والكتابة عناءً حين خرج مع جموع الشعب على رأس مظاهرة في ميدان المنشية محمولًا فوق الأعناق والجماهير تهتف..

وبتنامي الشخصية نجد أن صيغة السرد تحولت إلى سيرة ذاتية يحكيها لنا الكاتب بكل مواقفها الممتعة وطرائفها ومفارقاتها المضحكة حتى البكاء في أسلوب سلس ممتع، وكأنك تستمع إلى جد يحكي لك قصه حياته فصلا بفصل وموقفا بموقف.

فتحي رضوان الذي يعرف أن نعمة الفهم والثقافة نقمة وعذاب {"إن الثقافة عذاب ولكنني أرغب في تغيير هذا البلد إلى بلد آخر حتى لو تخلصنا من ٥٠ مليون زي الصين أو روسيا لازم نتخلص من العشوائيين والسفهاء والبلطجية والعبيد.. عاوز مصر دوله مثالية زى اليابان زى ألمانيا"} ص ٧٩

فتحي رضوان الذي يمثل الثائر المثقف الذي لا يستسلم الذي مهما خسر معاركه يقوم ويقاوم من جديد ومن قصيدة للأبنودي لم تقتحم السرد بل خدمت الشخصية في تطورها الدرامي

"الله يجازيك يا عم عبد الناصر   الليل مليل والألم عاصر
لسه اللي بيبيع أمته كسبان   وكل يوم أطلع انا الخاسر

فتحي رضوان الضائع بين الثورى والكاتب..! الذي يعتقد نفسه مخلص العالم من الفقر والجهل والمرض والذي هزه موت جيفارا.. وقهره هذا الإحساس بالثورة والثورة المضادة وموت بابلوا نيرودا.. وحيرة أبي ذر الغفارى الثائر حتى الموت.. كأن الثوار روحهم تجرى فى دمه حتى لا يكاد يعرف نفسه من هو؟.. ضاع بين الثوري والكاتب لا يستطيع أن

يكون الاثنين لأنه يعتقد أن السياسة في تماس مع الدعارة، والسياسيين يحصلون على مناصب وشقق فاخرة وأموال.. الأدباء فقراء إلا من ولد ثريًا منهم.. فاختار الأدب لأنه يجد نفسه في الكتابة وهو أيضا يكتب لكي يحرر نفسه من القلق ويحلم بجائزة نوبل وإن تأخرت؛ فكثير ممن نالوها كان يعتبرهم كتاباً ضعافً ا عملًا برأي برنارد شو الكاتب الإنجليزي عن جائزة نوبل.

فتحي رضوان العاشق قاموس من العشق والغرام منذ بلغ ١٧ عاما إلى أن تجاوز الستينيات عندما كان رئيس اتحاد الطلبة.

***

عتبة عشيقات فتحي رضوان

ناهد حجازي أجمل بنات الإسكندرية.. وابنة ضابط جيش.. والذي أحيل للتقاعد.. بعد أن كتب لعبد الناصر رسالة ينتقد فيها الجيش، زميلة فتحي رضوان في الكلية التي أحبها بجنون

ناهد مثل الصباح توقظ القلب والعين والأذن بجمالها الهادئ الفاتن.. المسحورة بكلام فتحي رضوان والتي لا تعرف كيف تنفك من حصاره لها، حتى وهو بعيد عنها.. ناهد لوحة رسمها فنان من الطبقة البرجوازية العليا.. ناهد مثل ملح البحر وبلح الشام.. لا تستغنى عنهما فى المذاق والحياة.. شتاء الإسكندرية بلا ناهد يعنى غياب المطر والحنين.. كل من يرى ناهد من الأصحاب يقول أنها أنثى المستحيل.. كانت ترى فتحي رضوان زعيمًا ضل الطريق للأدب، وأديبًا ضل طريقه للجماهير؛ فحكايات عشقه وحبه لا تنقطع.

فيفيان عشقها فتحي رضوان.. مسيحية مصرية الأب.. أمها لبنانية

شقراء.. أنثى لا تتكرر إلا بصعوبة في الحياة والتي كان يمارس معها الحب الخفيف في محطة ترام رشدي بالإسكندرية، والذي لقن أخو خطيبها المصارع لفتحي رضوان رئيس اتحاد الطلبة الثوري الكلمنجي الذي يدعو إلي التغيير درسًا غاب فيه عن الوعي ليفيق وله خدان متورمان، وقميص ملئ بالدم.. وفضيحة بجلاجل والتي كادت أن تسبب صراع طائفي في مصر.

ماجدة السمراء نوبية من أجمل بنات النوبة إنها ملكة هربت من قصر أبيها ملك النوبة وجاءت من كتب التاريخ والتي حكى تفاصيل عشقه معها ص١٠٥ ، ١٠٦.

فتحي رضوان الشاب المثقف العاشق الثائر الحائر المقتحم الذي كان يخاطب حبيبته ناهد حجازي: يا ناهد.. الكتابة تعوض لي بعض أيام من عمري الذي سرقه الوطن منى.. سوف أمضى وحدي أمام الله ومعي ما كتبت حتى يغفر لي ما فعلت.. ويمنحني فرصة للجنة كي أراك

فتحي رضوان.. خبير العشق وثقافته الذي أحب أبطال مصر وكان يستدعي هؤلاء الأبطال ويحكي قصص حب هؤلاء الرجال وملهماتهم ويقرأ مذكراتهم كمؤرخ خبير واع بتاريخه باليوم والساعة وبمكان الحدث وأدق تفاصيله وأسباب حدوثه ونتائجه، ويجلس على مقهى سيد درويش في محطة الرمل على شاطئ الإسكندرية معه كتاب وحلم ضائع بين نهد الوطن العربي وفرج مصر المستباح من كل استعمار منذ سبعة آلاف عام.. مقهى سيد درويش.. ومسرح سيد درويش.. وشارع الشيخ سيد درويش في كوم الدكة في الإسكندرية فتحي يحب التاريخ كي يفهم ما يجرى في مصر الآن لأن الحاضر هو الابن الشرعي للماضي..

فتحي رضوان العاشق الصوفي. الصوفي الذي كان يتمني أن يتقمص روح الأنبياء تشعر أنه خليط من سياسي.. أديب.. مفكر.. قس.. شيخ.. صوفي كان يقول: "الصوفي قوته ما وجده.. ولباسه ما ستره.. ومسكنه حيث نزل"..

بطة التي هربت مع "شكير" في أحداث ٥ يونيو ١٩٦٧والتى كانت تسكن أمام بيت فتحي رضوان في الدور الأرضي مع أمها بجانب بيت "المحبش" والتي لم يستطع أن يراها أو يراقبها بسبب تكعيبة العنب التي زرعتها أمها.

شخصيات هامشية لم تأخذ حقها من الرواية، وهي شخصيات "بطة" و"شكير" و"المحبش" وقد مر عليهم الكاتب مرور الكرام.

عتبة علاقته بالشخصيات الأخرى

أبوه.. الحاج رضوان لم يشرب الخمر أبدا. لم يلعب القمار أبدا، لم يزن أبدا.. كان يتحاشى النساء لأنه يعتقد أنهن شر وبلاء ولكنه تزوج مرتين وظلت زوجتاه تكرهان بعضهما طوال العمر.. أنجب منهما ١٥ ولدا وبنتًا ماتت البنت.. ومات تسعة أولاد.. وبقي خمسة أولاد كان يتشاجر بلسانه وصوته المهاب يشرب الشيشة بغزارة كان إذا غضب يمسك العملة النقدية الفضية ويضغط عليها فيمسح كل ما بها من كتابة في الوجهين.. كان يحب صوت نجاة الصغيرة بلا سبب.

أصدقاء الحاج رضوان

الأول: الخواجة ميمي (اجريجي) يوناني.. ومن مواليد الإسكندرية يقول الناس عنه خواجة صايع مصري لحام أكسجين في سن الأربعين أعزب

الثاني: الخواجة نيقولا.. إيطالي ميكانيكي يتحدث المصرية بطلاقة

الثالث: المعلم منعم حداد أبواب وشبابيك هذا غير يوسف الترزي اليهودي، والأستاذ سعيد الفراش في مكتب الصحة والذي يعمل قوادًا عند الخواجة ميمي، والحاج مرعي صاحب محلات الخضار وكان يحب الجلوس في البيت مع المعلم حمودة البناء الذي تزوج أربع مرات.
فتحي رضوان كان يبحث عن فردوس الكلمة، وكاظم كان يبحث عن فردوس العشق والجمال.. "سهر" كانت تبحث عن الفردوس نفسه

أسماء الشخصيات :

في رواية قهوة سادة أسماء الشخصيات تدل عليها وعلى سماتها وتتناسب معها ومع جوها النفسي.. "شهرزاد" الشخصية الأسطورية بديلًا عن الراوي.. "راغب" ابن المختار اسم على مسمي لرغبته في الزواج من "سهر".. "شداد" التاجر رمز الجشع لشدته شكلًا ومضمونًا.. رجل ثري وتاجر.. "سامي" الذي يسمو بتطلعاته وميله للطيران حول العالم، وهكذا.. "منقذ" العريس الثري لسهر والذي أنقذها من طامعيها

مواقف المقابلة والتضاد

أحد تحويجات رواية قهوة سادة، والتي لا تكاد تخلو منها أي صفحة تولد في الرواية دائمًا سحرًا يشع إحساسًا مبهجًا فمثلا في حجرة "سهر" {أطفأت شهر زاد النور، ونامت "سهر"} نجد هنا هدوء وطمأنينة وراحة بال.. وفي غرفة كاظم {أشعل كاظم مصباح الكهرباء وشرب "المتى"} نجد هنا عشقًا وخيالات وهواجس عاشق.. وفي غرفة وردة {خفضت وردة ضوء المصباح} نجد هنا قلقا وخطط الأنثى المقتحمة، رمزيه رائعة بين الضوء والحالة النفسية..

التطور الدرامي لشخصيته " كاظم "

يتناسب مع سلوكها في المواقف المتعددة بكل أبعادها المترددة حينما استدعى "راغب" أخو "وردة"، الأستاذ "كاظم" لبيت أبيهم المختار ليعطي "وردة" دروس تقوية في اللغة العربية وحين دخل بيت المختار وذهب لغرفة الدرس وبينما كان يتأمل الجدران دخلت عليه "وردة" بكل أسلحتها التي تجندل الرجال في حوار ممتع لمدرس لغة عربية وطالبته التي صممت أن تقلب له حياته المقلوبة أصلا (ص ١٩١ ــ ١٩٣)

لقد برع الكاتب في عرض وتصوير أدق تفاصيل سلوكيات المدرس في حصته، لأنه كان يعمل بالتدريس فترة من عمره، وكما في الجزء الثاني من الرواية عندما ذهب إليه المختار يخطبه لابنته ليرفع عن نفسه كلام الناس ومنعا للفضيحة عندما زارته وردة في المشفى بالشام ويتدخل والد "كاظم" بالموافقة علي طلب المختار وكاظم غارق في رعبه وارتعاده من ذنب لم يقترفه، وبعد زواجه من وردة برغم حبه لسهر..

وردة هنا هي المعادل الموضوعي لواقعه كله من أشخاص وأماكن وأزمنة وارتباك شخصيته المترددة؛ فيحاول الهروب دائمًا عندما يواجه واقعه.. إن داخله المتردد ينعكس علىحركته الخارجية في تردده ذهابًا وإيابًا داخل حجرته يختلق المبررات.

شخصية أجاد الكاتب تصويرها بكل أبعادها ببراعة ودقة خدمت أحداث الرواية، وحققت واقعية الشخصية في كل مراحل تطورها فجعلتها متعة حقيقية يتعلم منها الشباب صور ومراحل العشق، ولكن ليس بمثل شخصية كاظم..

إن فتحي رضوان كان يبحث عن فردوس الكلمة، وكاظم كان يبحث عن

فردوس العشق والجمال، وسهر كانت تبحث عن الفردوس نفسه

***

الروائي السيد حافظ لا ينسى صلته بالمسرح.. هنا لا يتركك المخرج المسرحي هائمًا وغارقًا في محيط شخصية واحدة طوال الوقت، بل يسلط ويقرب دوائر وبقع كشافات ضوء كل الشخصيات من بعضها البعض؛ فحينما يبقى الضوء مسلطًا على دائرة شخصية معينة يستدعي إحدى دوائر شخصياته الأخرى ويظل يقربها حتى تتماس في نقطة التقاء أو تتقاطع لينتج لنا مزيجًا جديًا من مناطق التقاطع يحمل جمالًا فريدًا وسرًا جديدًا بألوان ممتعة ومبدعة..

فحين تتقاطع دائرة "شهرزاد" مع دائرة "سهر" ويحدث هذا التفاعل، وينتج لنا السر الخفي بين الاثنتين قد يكون توازي اتفاق وهو عشق الرجال لكل منهما وتأثيرهما عليهم: {"قالت "شهرزاد" لسهر: إن عطرك سيصيب الرجال عبر الهواء بدوار، وهواء بحر عشقك نار في روح الرجال.. اجعلي قلوبهم تطير وتصعد حتى سابع سماء.. إن عشقك سيهزم الرجال وهوى قلبك لن يعرف هزيمة" } ص٢٧ أو توازي تضاد: كعشق أحداهن.. وخوف الأخرى وبذلك فإن مساحة الضوء التي لا تشع من إحدى الدائرتين قد تغطيها المساحة الأخرى؛ فتكتمل لنا الصورة إنه الاستخدام المسرحي الثري لعرض الشخصيات.

عتبة الأماكن

شارع محسن الموازي لشارع الإسكندراني بالإسكندرية به قصر أميرة تركية من العائلة العلوية: {"هجم الغجر على شارع محسن في قافلة.. بنوا علي ترعة المحمودية بيوتًا من الصفيح والخشب، وعملوا في

التجارة وفي السح والحواة والجزارة والحدادة، وزحفوا إلى شارع محسن"} ص ١٤٧ وكان الغجر يتوددون للحاج فتحي لأن له بيتًا من طوب وأسمنت وليس صفيحًا

الجبل والشام وتتجلى فيها روح الجبل وانعكاساته على كل من الشخصيات من خلال سرد ممتع.. يجرفك إلى مجرى أحداث الرواية وأنت مستمتع بغوصك فيها

المقارنة بين المدينة والقرية

{"المدينة عاهرة بلا أخلاق.. المدينة كافرة.. والقرية ليست لها شهادة في بلاد الدنيا القرية دائما منسية من خريطة السياسيين والمسئولين في العاصمة.. العاصمة أم عاهرة للقرى فى كل بلاد الدنيا.. تمارس كل شيء وتفعل كل شيء وتعيش في رغد.. تاركة سكانها للضياع.. هكذا عواصم المدن.. المدينة تدوس أهل الريف بالأحذية المدينة تغازل خيال الفقراء فيذهب تجارها إلى القرى يشترون العنب والتفاح والزيتون.. والحقول مفتوحة الساقين يمارس الجشع الفحشاء فيها.. بلا خجل.. يستباح الفلاح ويأخذ التجار أعداء الله المحاصيل بأقل الأسعار في عربات ضخمة للمدن لتباع بمائتي ضعف السعر"} ص ٨٢

الشام ملجأ كاظم مريض العشق حيث قام الأطباء بعمل الأشعة والتحاليل له ولم يجدوا سببًا للحمى التي إصابته...

المقارنة بين طيبة والعاصمة الجديدة أخيتاتون

طيبة القديمة أسطورة عشق.. شوارع طيبة ضيقة بها بيوت كثيرة مصنوعة من الطين أما بيوت الأثرياء تتكون من ثلاثة غرف وحديقة صغيرة.. سكان طيبة يحبون الأثرياء ويحبون فرعون وكهنة المعبد

والنيل.. طيبة مختومة بالمسك والعنبر مدينة المعابد والآلهة وأجنحة الأحلام المنكسرة على ضفاف النيل التعيس أحيانا.. طيبة توشوش الليل والنيل والبحر..

العاصمة الجديدة أخيتاتون

المدينة الجديدة التي بناها إخناتون والتي كانت معابدها كلها تعبد آتون.. إلهًا واحدًا.. عاصمة التوحيد للإله الواحد آتون.

القادة والتجار

{"القادة العرب تجار في الخفاء يتقاسمون المال مع الأغنياء والتجار أمراء لأنهم يحكمون دون حاجة للظهور"} ص٨٢

عتبة حكاية نفر

حكاية أول روح لـ "سهر" أجمل بنات طيبة (عاصمة مصر القديمة) في عصر إخناتون فرعون مصر (نَـفَـرْ) عشيقة القمر.. وأحلى بنات هذا الزمن.. عندما كانت تقترب من أي بائع يصاب بالهلع.. لقد شم عطرًا لم يشمه من قبل إنه عطر (نَـفَـرْ)..

(نَـفَـرْ).. ست الحسن والعطر والمطر والحضور والجمال دون نقاش.. المدن الجميلة تحب البنات الجميلات.. جمال البنات يجلى صدأ المدن.. وحب المدن للبنات.. يجبر الرجال على الاستحمام والتعطر لتليق بالمدن أولا والنساء ثانيا(نَـفَـرْ) كان أبوها نجار السفن التي تسير فى النيل.. كانت تسكن مع أبيها فى كوخ بسيط يطل أيضا على النيل.. اشتهت (نَـفَـرْ) أن تكون أميرة وأن تتزوج من أمير عندما اكتشف أهل طيبة رائحة عطر(نَـفَـرْ) الجميلة بدأت الأقاويل عنها: أن النيل وقف أمامها فى الليل وطلب منها أن تستحمم فيه.. رفضت.. فأعطاها سره بعضًا من

ماء مقدس مسحور.. استحمت به فى بيتها صارت أجمل وجلدها أملس وعرقها عطر

عتبة أخو نفر الفتى (كى)

ابن العشرين عامًا يسير على النيل حزينًا.. لا يحب أن يرث مهنة أبيه النجار وقانون البلاد أن لا يتخلى أى فرد عن وظيفة والده التى ورثها منه. ولكنه حاول الالتحاق بكهنة المعبد فى طيبة.. سلطة كهنة المعبد أقوى من كل السلطات.. وهو الذي ذهب إلى الكاهن الأعظم ليرشح أخته (نَـفَـرْ) عروسًا للنيل التى تقدم كضحية وهدية حتى يأتى بالفيضان فهى أجمل فتاة فى طيبة وعطرها يخلب العقول.. وقد استخدمه الكاهن الأعظم فيما بعد ليقتل الملك إخناتون.

عتبة الكاهن المعلم (باكا)

استثنى أخو نفر للدخول إلى المعبد عندما علم أنه أخو (نَـفَـرْ) وضمه للكهنة لمدة عام لا يرى العالم الخارجي المذنب إلا بأمر الآلهة لأنه قدم أخته (نَـفَـرْ) فدية للمعبد والنيل، وذلك لأن الكاهن (باكا) ذات غروب وبينما (نَـفَـرْ) عائدة بسلة السمك قابلها على النيل (باكا) المعلم.. معلم اللغة الهيروغليفية فوجئت بهذا الرجل وقوامه الشامخ وسماره كأنه من وحى الأساطير ظهر.. التفت لها فالتفتت له.. ارتبكت وهى تخطو على الرمل بالحذاء.. وقعت سلة السمك.. جرى المعلم (باكا) إليها ليساعدها لتنهض.. لمس كتفها العارى.. وشم عطرها وهو يحملها من الأرض لتنهض، كانت هذه اللحظات وهو يحملها للنهوض كأنها سنوات وكأن عطرها يتسلل فى دمه فيضيء فى روحه.. من أين أتيت أيتها الأنثى الخرافية ؟

وعندما خرج الجميع يبحث عن الفتى (كي) لتأخره ذهبت نفر إلى المعبد وفى الوقت الذى كانت تدخل المعبد كانت الملكة نفرتيتي خارجة منه.. شمت نفرتيتى عطرها وهى قادمة من بعيد.. أعجبت الملكة نفرتيتي بنفر واتخذتها وصيفة لها وضمتها للحرس لتسير معهم خلف الملكة تاركة قلب المعلم (باكا) يفترسه الشوق ويذيقه وجع الالتياع والذي لولا مساعدته لإخناتون علي نشر عبادة الإله الواحد آتون لما وافق له إخناتون أن يتزوج (باكا) من (نفر) رغما من أنه قد وعد (حور محب) قائد جيشه أن يزوجها له.

إخناتون هو الملك أمنحوتب الرابع

تزوج أخته نفرتيتي لأنه إله أما عوام الشعب لا يجوز لهم هذا وأخوه سمنخ كارع المقرب إلي قلبه بعد موت أخيه الأكبر تحتمس إخناتون الذي خرج من عباءة أبيه ومن بطانة عقيدته لأن إلهه رمز القوة آتون لم يكن رب شعب ما.. أو مدينة معينة بل هو رب كل الناس التي تشرق عليهم الشمس فهو رب المصريين وشعوب آسيا وشعوب النوبة وهو راع لا يفرق بين أحد من رعيته.. هو الذي أعطى كل جنس شكله وطبعه بإرادته.. كان يقول الكهنة يفعلون كل شيء باسم الآلهة. مصر الآن تعبد أكثر من ٤٧ إلها.. مصر لا تحتمل كل هذا.. النيل هو الحضارة والحياة.. ولأن إخناتون يؤمن بإله واحد.. لا يعبد الجعران.. ولا الزهور.. ولا الخنفساء

كانت نفرتيتي تقول له: {"أنت تسبح ضد أقوى تيار فى البلاد، الكهنة.. الكهنة على مر الزمان هم القوة الحقيقية للمحاربين وللفرعون وللبلاد." وكان يقول لها: "سأقف أمامهم.. ومعى الشعب"} ص ٢٥١ معى الله

الذى يرسل لنا الشمس كل صباح..
وكان كبير الكهنة يقول: "إن مولاى أصابه مرض من إله الشر ست." لأنه يصلي للإله الجديد.. {"لقد تجاوز الملك إخناتون الحدود إنه يجلس مع الحرفيين والرعاة والفلاحين وهم فى القانون ممنوعون من العمل السياسى.. ويستمع إلى شكواهم ويحقق فيها"} ص٢٥٤
كان يقول لنفرتيتي زوجته {" الكهنة يدعون الى آلهة عدة فى كل مكان.. شاهدى مصر الان انظرى إلى ما يكتب الادباء.. انظرى هذه البردية..ماذا يكتب هذا الاديب..يقرأ ما فى البردية كل شيء فى مصر يقبل الرشوة إلا الله لأنه عادل و نزيه.. " } ص ٣١٣
إخناتون الذي قال عندما غضب: {"الكهنة سبب بلاء هذه البلاد باسم الآلهة يلعبون بعقول الشعب الساذج البسيط.. أنا جعلت الآلهة إلهًا واحدًا فقالوا إن هذا لشيء عجاب.. وقالوا هذا اختلاق.. الكهنة زاغت عنهم الأبصار فلا يبصرون.. ما من إله إلا الله الواحد القهار.. أنا أجادلهم بالتي هي أحسن.. ولم أقتل أو أحاكم أحدًا يعبد إلهًا آخر غير آتون"} ص ٢٤٤
إخناتون أبوه الملك أمنحوتب الثالث، أمه الملكة الأم (تي) التي نصحته بزواج الأميرة كيا لأنها ستنجب له ولدا إخناتون يحلم بصبى ونفرتيتى لا تنجب إلا البنات.. الولد ظهر أبيه.. والبنت قلب أبيها..
نفرتيتي أجمل ملكات التاريخ، أخت إخناتون وزوجته أم لثلاث بنات هن: ميريت آتون.. وميكيات آتون.. وعنخ إسن آمون.. ابنتها ميريت تحب حور محب قائد الجند من طرف واحد وبالرغم من حبها لحور محب قائد الجند إلا إنها تزوجت من "سيمنخ كا رع" الأخ الأصغر لإخناتون الذي

حكم مصر بعد مقتل أخيه إخناتون، وحور محب فارس يحلم بالحرب وبالنصر وبالفوز ولم يفكر في ميريت لأن العسكري حلمه المجد والنصر والحرب والوسام وليس النساء..

نفرتيتي التي كانت تقول لأخناتون كي تبعده عن عبادة إلهه الواحد آتون: "أنت ملك قوتك ليست فى الشعب قوتك فى الجيش والكهنة"..

أما حور محب قائد الجيش رجل فى الأربعين ضخم الجثة أبوه كان من أمهر الرماة فى طيبة علمه فى صباه الرماية، عسكري لا يعرف كيفية التعبير عن نفسه جامد المشاعر.. يعرف ألف طريقة للقتال ولا يعرف طريقة لغزو قلوب النساء.. قفز قلبه من الجليد حين شاهد نفر.. وحين عرض عليه إخناتون أن يزوجه إحدى بناته قال له حور إنهن صغار وطلب من إخناتون أن يزوجه إحدى وصيفات الملكة "نفر" ووعده إخناتون بهذا ولكنه لم يف بوعده له بل وافق إخناتون علي زواج نفر من المعلم باكا، وكان حفل زفاف نفر تاريخيًا مما أثار حنق حور محب قائد الجيش على الملك إخناتون فاتفق مع الكاهن الأعظم وبعض قادة الجيش الموالين له أن يكون عيد الفصح هو ساعة الصفر لقتل إخناتون، وكان ذلك بيد كي أخو نفر الذي قتله الكاهن هو الآخر علي الفور.

الملكة كيا التي رشحتها الملكة الأم "تي" للزواج من إخناتون حتى ينجب منها ولدًا يرث العرش لأن زوجته الملكة "نفرتيتي" أجمل ملكة في التاريخ لا تنجب إلا إناثًا وقد أنجبت لإخناتون الأمير توت عنخ آمون.

كور ابن كبير الصيادين ٢٤ سنة..أسمر أعزب.. ثرى.. وسيم.. يعشق طيف "نفر" كور العاشق الثانى لنفر.. أبوه يعبد الصقر، وكانت أمه تعبد الثعبان، ثم عبدت آتون لأنها أحبت إخناتون.. كان كور يطارد نفر فى

الذهاب والإياب.. تقدم فى صفوف الذين يرغبون فى الزواج من نفر.. وكثيرًا ما فاتح العم "سوات" والد "نفر" فى رغبته فى الزواج من "نفر"

أبو نفر "سوات" النجار صانع السفن

الأب الذي يحب أبناءه: "نفر" و"كي" والذي كان يخاف أن تفسد عقيدة أبنائه ويعبدون آتون.. كان يعبد الخنفساء.. ويعتقد بأن آمون هو الإله الأكبر فقط.. وليس آتون الإله الواحد كما يعتقد إخناتون.. وهكذا بعد أن قتل اخناتون بيد (كي) أخي نفر.. قام الكاهن الأعظم على الفور بقتل (كي)، وبعد دفن الملك إخناتون تولى سمنخ كارع الحكم، ثلاث سنوات، مات بعدها حزنًا وكمدًا على إخناتون أخيه وصديقه الحميم.. وتولى الحكم الأمير الصغير توت عنخ آمون.. ابن الملكة كيا.. ابن الثلاث سنوات وقد حزنت "نفر" وعادت إلى العاصمة القديمة مريضة تاركة زوجها (باكا) لعمله الجديد في الجيش وبعد أن قام الكهنة بسرقة جثة إخناتون ومحو كل آثار معابد آتون وهدمها كلها.. قررت "نفر" أن تقفز إلى نهر النيل فجأة قائلة لأمها لا تخافي سيأخذني النهر إلي حبيبي.

ماتت نفر، ومات زوجها باكا حزنًا عليها بعد شهر، وبعد أن بني لها مقبرة تليق بها وتحكي شهر زاد لسهر عن الروح الثانية، وهى البنت الجميلة التي عاشت فى عهد النبى موسى اسمها نور غدا.. ليتركنا ملك التحويجات الصوفية الرائعة، ننتظر الجزء الثالث وهو حكاية نور والنبي موسى

***

إن الجزء الأول هو المعادل الموضوعي للجزء الثاني ومرآته العاكسة

لكل الأبعاد وبكل الوضوح لنلمح التقارب والتطابق في الشخصيات في حروف أسمائها وسلوكياتها وتشابه أحداثها حاضر لا ينفصل عن ماضيه وماض يطل علينا بكل ما فيه.. إن كلا من الجزأين مرآة للآخر ننظر في الماضي لنستشرف الحاضر وربما نتنبأ بالمستقبل وربما أراد الكاتب أن يفسر بعض حكايات الماضي لأن الإنسان لا يملك أن يفر من ماضيه.

إن السيد حافظ الكاتب والمخرج المسرحي استخدم أسلوب التقطيع السينمائي "المونتاج"، ليضعك في بؤرة حدث معين.. ثم ينقلك للقطة جديدة لمتابعة حدث آخر ليلهب اشتياقك لما يحدث مع أبطاله بحرفية تشعر معها أنك علي مسرح ترى الأحداث والأشخاص تتحرك أمامك بوضوح.. وأنك أمام قائد فرقة موسيقية لا يقطع عليك إيقاعه السريع بل يصعد بك بمقاماته الموسيقية المتنوعة دون تنافر أو تداخلات آلات عزفه المنفرد مع آلاته النحاسية الزاعقة أو ترياته الحالمة لتري أبطاله وقد طلت عليك من كهف فرعونيتها بورقها وزيها ولغتها تختصر أحداثا وأزمانا لتثبت لك أن الأماكن باقية.. وستبقي مهما تغيرت أو تشابهت الأحداث وتوالت الأزمان من خلال رشفة سحر وعطر.. وتحويجات صوفية رائعة في رواية رائعة غير عادية.. لكاتب غير عادي حوارات تنطلق كتدفق البراكين حوارات ساخنة تمتزج بمونولوجات داخلية تلطف حرارة انطلاق الموجه بإيقاعاتها التي تتضمخ بعبق الروح في الجسد وتكشفت واقع الأعماق البشرية حين يتسلط عليها الاستبداد والقهر.. وحين يستغلها فساد المتاجرة بالدين والمال وتوضع تحت طائلة المقامرة واستغلال النفوذ تكشف بسر تحويجاتها سوءات ماض تلبسه ثوب أساطير عشق خرافية أو تعريه بقسوة أحيانًا.. إنها رؤية كاشفة لكاتب

مبدع أراد أن يقول لنا أن الروح باقية.. وأن الحاضر والمستقبل ما هما إلا روح تتقمص الجسد.. ولكن أكثر الناس لا يعلمون.



"قهوة سادة" فسيفساء روائية
بقلم : أ. أحمد فضل شبلول

"قهوة سادة" فسيفساء روائية
بقلم : أحمد فضل شبلول

هذه رواية كتبها صاحبها "بحثا في روح مصر المتخاذلة سبعة آلاف عام، وبحثا عن روح مصر أخرى، للإنسان فيها معنى وقيمة وحضارة حقيقية فعلا وقولا"، كما يقول في إحدى عتبات الرواية، وهي في حقيقة الأمر ليست رواية واحدة، أو روايتين كما يدَّعي الكاتب، وإنما هي ثلاث روايات جمعن في كتاب واحد تحت عنوان "قهوة سادة"، استطاع مبدعها الكبير السيد حافظ أن ينسج بينها خيطا حريريا لا يراه إلا من تذوَّق سحر الكتابة الإبداعية، وسحر تداخل الأنواع والأجناس الأدبية، أو الكتابة عبر النوعية.

إنها فسيفساء روائية يرصِّع صاحبها كلماتها وجملها وعباراتها بحروف من نور الإبداع. ثلاثية روائية يجمعها طعم القهوة المر، التي لا يخلو فصل من فصولها دون ذكر لها، وكأن مرارة الأيام تصاحب أبطال هذا العمل الضخم وكذا قارئه. الرواية الأولى هي رواية "سهر" التي استيقظت على رؤية بقعة دم على قميص نومها في ٥ يونيو ١٩٦٧ وكأن الكاتب يرمز إلى روح الأمة العربية من خلال بطلة الرواية "سهر" التي "رأت أباها يبكي يومي ٨ و٩ يونيو وهو يرى عبدالناصر يتنحى.. ذهبت أمها بها إلى شهرزاد وقالت لها: البنت صارت أنثى".

هكذا يفتتح السيد حافظ "قهوة سادة" بهذا المشهد المؤلم، ومن هنا تتصاعد الأحداث ويمر الزمان ونشم عطر سهر الفواح الذي يُسكر كل من يشمه من على البعد، والذي يكون سببا في تطور الرواية والأحداث،

وفي ظهور شخصية كاظم معلم اللغة العربية في مدرسة سهر، لنكتشف أن أحداث الرواية الأولى (ضمن الثلاثية) تدور في الشام، وليست في مصر، وأن سهر ولدت يوم الاتفاق على الوحدة بين مصر وسوريا في فبراير ١٩٥٨.

ثم يدخلنا الكاتب بيتَ "سهر" لنتعرف على أسرتها والبيئة المحيطة بها وعلى مدرستها وصديقاتها وعصفورها الذي ينام على كفها وفي صدرها. كما يجعلنا نحلق في عالم كاظم وثقافته وأحلامه وعاطفته نحو "سهر".

وفي نقلة أخرى للرواية الثانية نعيش مع "فتحي رضوان" الشاب المصري الثوري (الذي سيكون حبيب سهر بعد ١٥ عاما) وهي العبارة التي يفتتح بها الكاتب سيرة فتحي رضوان، ومع انتهاء الرواية لم نر ذكرا لهذه الرؤية التنبؤية (ربما تأتي هذه الرؤية في جزء تال).

ولكن على أية حال فإن الجزء الخاص بـ فتحي رضوان ما هو إلا تأريخ فني وسياسي واجتماعي لمصر، وأكاد أقول أن هذا الجزء ما هو إلا سيرة ذاتية لمؤلف الرواية السيد حافظ، خلال فترة الستينيات وما بعدها، وفيه يقدم الكاتب صفحات أقرب إلى التوثيق الصحفي أو المعلوماتية، منها إلى الفن الروائي، وفيه مقارنة بين عبدالناصر ومحمد علي، وفيه نقد عنيف للشعب المصري يصل على حد جلد الذات، ومنه قوله: "ضيعت قلبي في وطن حقير اسمه مصر والوطن العربي"، و"عبد الناصر ديكتاتور عادل ومحمد علي ديكتاتور عادل والحاكم بأمر الله دكتاتور عادل.. مصر لا تنهض في تاريخها إلا بديكتاتور عادل.. الشعب متمرد كسول لا يحب العمل ويحب الشر والكذب والفهلوة والنصب

والتحايل على القانون". هل هذا توصيف للشعب المصري، أم هي لحظة غضب يصبها الكاتب على الورق لينفث من خلالها همومه وأحزانه؟

وهكذا تمضي "قهوة سادة" متراوحة بين حكاية سهر وحكاية فتحي رضوان، وكلاهما متباعدان عن بعضهما البعض ولا يلتقيان طوال الرواية رغم العبارة التي يصدرها لنا الكاتب في معظم الفصول بقوله: "سيكون حبيب سهر بعد ١٥ عاما". غير أني لاحظت أن الجانب التوثيقي هو الأوفر حظا في الجزء الخاص بفتحي رضوان، فأحيانا نجد الكاتب يثبت صفحات من مذكرات محمد فريد، أو يثبت بيان ٣٠ مارس الذي ألقاه جمال عبدالناصر عام ١٩٦٨ للإصلاح السياسي، أو يلجأ إلى التفسيرات اللغوية في بعض الأحيان كتفسير كلمة "طاغية".

وعلى هذا نجد اختلافا بينا بين شخصية فتحي رضوان الثوري الذي تعددت علاقاته الجنسية منذ أن كان طالبا بالجامعة، وشخصية كاظم العاطفي الذي أحب سهر بجنون ولم يحب غيرها والذي يرى أن سهر لا تضع عطرا، بل هي رائحة السماء في جسدها، وأنها قمة الشهوة والاشتهاء.

غير أن عبد الناصر لا يفارق الجزء الخاص بكاظم الذي سأله أحد الضابط: أنت شيوعي يا ولد؟ فيرد كاظم: لا. فيقول له: تحب من؟ قال كاظم: جمال عبد الناصر. قال الضابط: من سيء لأسوأ خليك أحسن شيوعي يا ولد".

وكأن "قهوة سادة" تحاكم في بعض مفاصلها أو صفحاتها الزعيم جمال عبدالناصر والفترة الزمنية التي حكم فيها مصر وسعى للوحدة العربية الشاملة، وبدأها بوحدة مصر وسوريا، والتي فشلت فيما بعد، فتقوّض

الحلم الناصري، ومن ذلك قول فتحي رضوان عن اختيار عبد الناصر للسادات ليكون نائبا له: عبدالناصر اختار أضعف واحد من رجال الثورة كان خادمه هو أنور السادات".

وفي موضع آخر نجد: "الله يسامحنا إن نسينا أو أخطأنا إلا عبد الناصر لا يسامح من أخطأ". وفي موضع ثالث نجد: "طلب عبدالناصر حكيم للعشاء معه .. ثم أرسل عبدالمنعم رياض ومحمد فوزي ليقتلاه بعيدا عن مرأى عبد الناصر (كما قال جمال ابن عبد الحكيم عامر في حديث له مع التلفزيون المصري). و"قدم عبدالناصر جثة عبدالحكيم للشعب كي يدفن غضبهم من النكسة في قبر المشير عبدالحكيم عامر".

أيضا يحدثنا فتحي رضوان عن كره أبيه لعبد الناصر بشدة بسبب طرده للأجانب وخاصة أصحابه، ويكشف لنا في أكثر من موقف عن كراهية أبيه لثورة يوليو ورجالها لأنها خلعت محمد نجيب. كما يتساءل: كيف حدثت النكسة وهزيمة يونيو؟ من سيكتب عنها؟ وما هي الحقيقة؟ هل من جرئ يخبرنا؟ أين الجبرتي؟

وفي موضع آخر، يمثل إحدى عتبات الرواية الكثيرة يورد الكاتب قصيدة "الله يجازيك يا عم عبد الناصر" لعبدالرحمن الأبنودي، وبها نقد لاذع للزعيم يقول فيها الأبنودي:

الله يجازيك يا عم عبد الناصر
أما أنت خميت مصر دي خمة
يوم ما ناديت بالعشق للأمة
ورطتنا نعشق خريطة عبيطة
وبشر ما نعرفهاش.

وهذه العتبة تتواءم مع موقف الأب الذي ورثه الابن من شخصية جمال عبدالناصر. وما أكثر عتبات الرواية التي يتوقف عندها الكاتب ابتداء من الإهداء لحفيدته كادي وابنه محمد ثائر "الثائر على أبيه فقط".

أما العتبة الثانية "أنسى أن النساء جسد من لحم ودم وأتذكر أنهن عطر له روح" فهي تتواءم مع "سهر" وعطرها الذي هو سر تميز شخصيتها. مرورا بعتبات أخرى سنشير إليها فيما بعد.

وبذكاء سردي شديد ينتقل الكاتب إلى الرواية الثالثة بتمهيد من الخالة "شهرزاد" التي أخبرت "سهر" بأنها تتقمص روح فتاة فرعونية اسمها "نفر"، لتبدأ "حكاية إخناتون مع نفر" في الصعود ولتحكي شهرزاد "قهوة سادة" متقمصة روح شهرزاد الأصلية فتقول: "كان يا ما كان في سالف العصر والأوان في العصر الفرعوني بنت اسمها نفر".

هنا يتصاعد سرد تاريخي جديد، وأجواء روائية جديدة، يهديها الكاتب – في عتبة جديدة - لأخيه الراحل "رمضان حافظ.. نفحة الروح إذا أظلم الكون"، بل يذكر في المتن على لسان فتحي رضوان لحبيبته ناهد: "اقرئي كتاب الفراعنة العرب للدكتور رمضان حافظ".

ويشعرنا الكاتب بوجود حبل سري بين سهر ونفر عن طريق تناسخ الأرواح، وانتقال العطر من نفر إلى سهر عبر نفق تاريخي وزمني طويل يصل بين مصر والشام. وهو ما تؤكده عبارة شهرزاد لـ "سهر": "تلك أول روح خلقها الله لك يا سهر".

وتتكرر عبارة العطر عند "نفر" كما رأيناها عند "سهر": "رائحة جسدها عطر من السماء لا يشبه أي عطر". هذا العطر الذي سيرفع نفر

من عالم أسرتها الفقيرة إلى عالم القصور والمعابد والكهنة وصولا إلى إخناتون الذي يدعو إلى عبادة التوحيد فتتبعه نفر.

ويظهر الثائر فتحي رضوان مرات ومرات في الرواية الثالثة منتقدا أوضاع مصر وتاريخها مثل قوله: "معظم شوارع مصر بأسماء الخدم والخونة من تاريخها" أو "مصر تسمي أسماء الشوارع بأسماء القاتل والمقتول" مفسرا ذلك بقوله:

"في القاهرة في حي الزيتون، شارع باسم طومان باي البطل الذي قاوم الاحتلال العثماني، والشارع المقابل له باسم سليم الأول العثماني الذي قتل طومان باي .. في عقل مصر عقلين: عقل عظيم، وعقل عبيط".

في الجزء الثالث أو الرواية الثالثة نكاد ننسى كاظم إلا قليلا، بسبب الحضور الطاغي لقصة إخناتون والدراما المصاحبة لها، والحضور القوي لفتحي رضوان الذي ذهبنا من قبل إلى أنه الشخصية التي تعكس الكاتب نفسه، أو الجزء السيرذاتي في "قهوة سادة"، خاصة بعد أن نكتشف أنه يذكر أسماء شخصيات وأماكن بعينها كان لها حضورها في الواقع الثقافي، مثل قوله في شكواه لوزير الثقافة الدكتور ثروت عكاشة عام ١٩٦٩، وينعته بالوزير المثقف الصامت:

"بالإسكندرية قصران للثقافة الأول في شارع طريق الحرية يسمى قصر ثقافة الحرية القائم عليه اسمه محمد غنيم.. يمتاز بالثورة الكلامية ويرفض فكرة تكوين اتحاد كتاب الأقاليم التي يطالب بها بعض الكتاب وطردهم من القصر، وبها فرقة مسرحية مع مخرج هارب من القاهرة يدعى أنه يقدم مسرح الجيب".

أيضا هناك أشخاص آخرون كانوا موجودين في الحياة العامة في الإسكندرية يذكرهم الكاتب بأسمائهم الحقيقية مثل الأستاذ باسطة مدرس الأحياء في مدرسة الإسكندرية الثانوية التي تخرج فيها الكاتب، ويصفه بأنه شديد القسوة.

وعلى الرغم من معايشتنا للأحداث الفرعونية وأجواء التآمر على اخناتون الذي دعا إلى التوحيد، سواء من الكهنة أو زوجته نفرتيتي، فإننا نجد إسقاطات سياسية على العصر الراهن من خلال بعض البرديات التي يلجأ الكاتب لإثباتها. أو من خلال بعض العبارات التي وردت على لسان إخناتون مثل: أخاف على مصر من المؤامرات التي تحاك ضدها من كل صوب.

توسلت الرواية بالكثير من التقنيات الفنية إلى جانب الإسقاطات السياسية، وهو ما جعلني أقول منذ البداية إننا إزاء فسيفساء روائية، استطاعت أن تستفيد من تقنيات المسرح (والكاتب في الأصل كاتب مسرحي متمكن له العديد من الأعمال المسرحية المهمة) ومن تقنيات السينما وخاصة تقنية المشاهد والتقطيع والمونتاج، ومن تقنيات الشعر، حيث يتوسل الكاتب بعبارات شعرية تجئ من خلال بطله كاظم (حبيب سهر)، أو من خلال المعلم باكا (الذي أحب نفر) في الجزء الخاص بإخناتون، وغيرهما.

كما توسلت الثلاثية بالكثير من العتبات الروائية، بل سنجد أكثر من عتبة في مطلع الفصل الواحد، وعلى سبيل المثال في مطلع العمل نرى عتبة الإهداء، ثم مقولة للكاتب نفسه ومنها: "يا أيها العابرون على ذكرى طفولتي ألقوا عليها الورد والابتسام"، ثم الآية ٨٥ من سورة الإسراء

"ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا"، ثم مقولات متعددة للكاتب نفسه.

وعلى مدى العمل نرى عتبات لجبران خليل جبران، ونزار قباني، وميخائيل نعيمة، وأدونيس، ويوسف الخال، ومحمود درويش، وصلاح جاهين، وعبدالرحمن الأبنودي، وحافظ إبراهيم، وغيرهم، ومقولات للكاتب نفسه، إلى جانب عتبات قرآنية، وإنجيلية، ومقولات لإخناتون، بل أننا نجد عتبة لأحد أبطال الرواية وهو فتحي رضوان خليل. ولاشك أن هذه العتبات تحتاج إلى دراسة فنية منفصلة نظرا لكثرتها، وتنوعها من ناحية، والأجواء التي تشيعها من ناحية أخرى، سواء الأجواء الروحانية أو السياسية.

ويبدو أننا على عتبات عمل روائي ضخم آخر يستكمل فيه الروائي السيد حافظ تلك الثلاثية الروائية التي اسمتعتنا بها في "قهوة سادة"، ولعل عمله القادم هو "نسكافيه" أو "كابيتشينو"!



" قهوة سادة " ولا عزاء للكبار

أ. معتز العجمى

ربما إذا حاولت سؤال أحد كتاب الرواية ، لماذا تكتب الرواية؟ ، يخبرك بأن الكتابة للهروب من الواقع ، و رغبة ملحة لديه تدفعه للانغماس فى عالمه الذاتى فيخرج من جوفه بطلا مهزوما تقف أمامه حائراً وتغلق روايته بعد أن تفرغ من قراءتها . بالكاد. دون ان يصيبك إحساس بالاهتزاز النفسى أو العقلى. وربما يجيبك آخر بأن الرواية لديه محاولة لريصد الواقع ومشكلاته ، وكأن الواقع أزمة دون أن يكون حياة . فى المقام الأول . والأزمة فى الغالب هى أزمة كاتبها أو مجتمع كاتبها دون أن تشمل رؤية عامة يحس بها كل قارئ على غررا روايات الأدب العالمى ، إذ حين تقرأ "دون كيشوت" تتماس روحك مع روح بطلها وتحس أن بداخلك هذا الإنسان الذى يطمح الى تحقيق حلمه يوماً وراء يوم ، ومحاولة إثر محاولة.

لكن السيد حافظ فى روايته الثالثة "قهوة سادة" التى تأتى بعد محصول مسرحى ودرامى وفير ، تجيب على السؤال السابق "لماذا تكتب الرواية"؟ بإباع ورؤية جديدة ، أعتقد أن قارئ الرواية سيستبطن هذه الاجابة وهى : أكتب للمواجهة: لا مواجهة الواقع فحسب بقدر ما هى مواجهة للماضى وسؤال للمستقبل تتأرجح فيه أزمة الحاضر المعيش صعودا وهبوطا لتمنحنا أبطالا فى "قهوة سادة" ارتشفوا مرارة هذه الحياة لا بأفعالهم ، ولكن بأقدراهم المساقة إليهم بفعل أجدادهم وتاريخهم. إن رواية لاسيد حافظ هى صدمة للقارئ وليست قرص إسبرين أو مسكناً لتغييب وعى القارئ. يقول إنه يكتب رواية المعرفة ،

وأقول له إنك تكتب رواية الوعى الجديد الذى يتخلق فى رحم أبطالك وشخصياتك ومعلوماتك التاريخية التى ترسدها عبر أحداث هذه الرواية.

ربما حقا قد يتشابه السيد حافظ م آخرين فى هجومهم الضارى على الشخصية العربية وبالأخص الشخصية المصرية التى ربما يحاول طوال الوقت أن يستشهد من التاريخ بسطور كاشفة عن هذه العقلية والسيكولوجية ، ربما قاصداً بذلك أن نفكر ونتأمل ونعيد صياغة أنفسنا من جديد . لا ليهاجم من أجل الهجوم كما يفعل أكثرنا ، ففى الصدة أنتماء ووطنية حقه تمنحنا إحساساً بإبداع جديد.

لقد استطاع السيد حافظ أن يكسر داخل نفوسنا أصناماً تشكلت حول شخصيات تزداد نفوسنا يوماً وراء يوم انكسارا لها : فأ،ظر ماذا كتب عن العقاد فى روايته ص ٤٧ : " كتب العقاد عبقرية محد وأبو بكر وعمر الفاروق وفى الوقت نفسه قالوا إشاعة أنه له يوماً فى الأسبوع يرافق غانية ليسد حاجاته البيولوجية.. " صدمات يقذفها حافظ بقلمه فى صدورنا ليكسر هذه الاصنام التى طالما تسببت فى جمود وتخلف الفكر العربى ن يواجه شعبه بحقيقة " إن مصر مصران – مصر أدباء الحكومة الذين يطلبون لهم فى كل مكان ، ومصر أدباء الشعب.. والشعب لا يعرف لهم عنوان ولا يعرفهم" ص٤٧ .

السيد حافظ فى روايته يشرب القهوة السادة على أرواح المصريين الذين بقوا فى الأسر ضحية كذب وزيف تراثهم . لكنهم المسئولون بعدم قراءاتهم : فنحن على حد قول السيد حافظ "أمة لا تقرأ" فالحقيقة مقيدة مذكورة يعرفها من يطالعها فى مصادرها: " وقال أبو الحسن على بن الحسين على السعودى(فى كتاب مروج الذهب و

معادن الجوهر تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ١٩٤٨ ، ج٢ ، ص ٦٢) فى أهل مصر مكر ورياء وخبث ودهاء وخديعة وفى أهلها صخب ، وطاعتهم رهب ، وسلاحهم شغب ، وحروبهم حرب(أى سلب ونهب) وهى لمن ومع من غلب" الرواية ص ٣٩.

وهذا النموذج من نماجذ عديدة يوردها المؤلف فى روايته موثقة ليست إمعانا فى التوثيق أو التأكيد على صحة مصادرة لنصدقه ، ولكنى أعتقد أنها رغبة القطب الذى يعطى مريديه إشارات علها تكون هادية فيقف القارئ ليقرأ ويتأمل وينتج كما فعل السيد حافظ فى روايته "قهوة سادة" التى يقسمها الى جزأين أو بالأحرى الى روحين فى عالمين: العالم الأول (الجزء الأول) عالم قريب منا مادياً نعيشه ونعرف قسماته وملامحه . والعالم الثانى(الجزء الثانى) عالم قريب منا معنوياً يدغدغ أحلامنا . والبطلة – فى العالمين – التى تتناسخ عبر ر وحين هى سهر فى العالم الأول . ونفر فى العالم الثانى فالأولى عشقها أهل الجبل أو الضيعة(القرية). والثانية معشوقة أهل طيبة (عاصمة مصر القديمة) وفى إطار من الحب والعشق تمضى بنا أ؛داث الرواية فى توازيات فكاظم معلم سهر . هو باكا معلم نفر. وعبد الناصر فى الجزء الأول ربما هو إخناتون فى الجزء الثانى فكلاهما مقتول بفعل خيانة ومؤامرة علم الأول بوحدة الأوطان . والثانى كان حلمه وحدة الأديان ، والناس لا تريد إلا الفرقة والتمزق فما كان إلا الموت جزأ للبطلين اللذين حاولا التمرد. وبين هذه الشخصيات جميعا يقف فتحى خليل رضوان حبيب سهر بعد خمس عشرة سنة . رواية " قهوة سادة " رواية فى رأي للشباب الذين

يتشكل وعيهم وربما تكون لديهم المرونة فى تغيير المصير ، لا الى هؤلاء الكبار الذين جمدوا عن الحياة وارتضوا نمطاً واحداً فحسب.



قهوة سادة
رواية أدبية حديثة للسيد حافظ
أ. أمين بكير

هذا الم واطن ، الكاتب الذى أصدر قراره بألا يلغى عقله ووجدانه . وقد أبدع هذا الكاتب الكثير من الاعمال التى أثرى بها حياتنا الثقافية . وحين قرر أن يكتب هذا الجنس الأدبى . الرواية . وهى رؤية أدبية حديثة. مثل دعوته السابقة على نسكافيه والان دعانا نحن القراء على قهوة سادة على نباله الإنسان التى ضاعت فى طرقات مدينتنا والكاتب الصديق السيد حافظ منذ عرفته. دءوبا قادرا على تطوير أدواته باستمرار وأن تكوين اسلوبه فى الكتابه ونحن إذا دخلنا فى رحاب عمله الروائى الثانى. قهوة سادة . فإنه من المنطقى أن نتعامل مع موضوعات أساسية وأن البطل المحرك لأحداث هذه الرواية(بقسميها) إنما هو نبل فى التوجه الجمعى نحو صياغة جديدة ثورة على المألوف والموصوف والمعروف فى السرد الأدبى . ولدى الكاتب من خلال هذه البنية الروائية التى تحمل فى اعطافها قدرا من الواقعية تجعل المتلقى للعمل يشعر بصدق كل ما يطرحه الكاتب ولقد أعتمد الكاتب أعتمادا قويا على الشخصيات الرئيسية. سهر/ شهر زاد وغيرها ممن أورد ذكرهم وجعلهم يتحاورون مع القارئ على اعتبار ان الكاتب استقدمهم من الواقع المعاش هنا . أو فى بلاد غربته . أو غربتنا معا!؟

وتفاصيل حياة الابطال التى يطرحها هذا العمل الروائى والتى تحمل بداية الصدام بين فكرة للاستبداد بالثورة والسلطة من ناحية والمطالبة بالحرية التى تجعل من كل المستضعفين قوة ويصور بجلاء وبعمق وإذا كان الكاتب قد حاول أن يلج(مخ الحياة) ويصف شراييـنها لا لمبثوثة فى حدس الفن متطلبعاً الى كنهها وخباياها متعرفا على أوراقها وأحلامها

مفتحاً حواسنا بشرارته برؤية ما فار حوله من أسرار بنغم تلمس فيه قلبه وقلوبنا أيضا. مع حنين يخلق فينا رغبة ماعبة أفكاره التى صاغها فى حرفية عالية.واستشهاداته بكلمات من وادى عبقر هبطت على أرواح الشعراء الذى استشهد بشطرات من اشعارهم.

والسيد حافظ هذا المبدع الوطنى يمتلك أوات الكتابة للمسرح وللأدب الروائى بعيون مصرية لا تعرف لغة الزيف. إنه أديب ومسرحى وروائى يعرف ذاته و يدرك أن هذه القوة فى الذات قادرة على صنع المعجزات. وأن الابحار فى ذاتية الكاتبة وعالمه(الملغوم) بكل صنوف الجلد للذات تجعله فى أتون من الأفكار.

ولا نقول بأن كلمات(السيد حافظ) هى فى بوح الوتر أو هى نوح ألوله أو هى فى جريان الدمعة أو غشراقه البسمة. وإنما كلماته هى كل ذلك مضفرة بما قاله المبدعون فى أعمال ناوشت أفكار هذا الكاتب الذى صمد مسرحيا وحاول روائيا وظل محافظا على شعرة معاوية وبين العقل والجنون والمجون تربع على مقاهى أفكارنا وأحتسى فى نخب أيامنا الموجعة قهوته السادة ربما على روح النبالة ولأصالة فينا.

لقد أرتحل السيد حافظ بأفكاره الى كل بلاد السوسنات وجواده الأبيض مثل قلوب الانقياء يهفوا الى أن تتصافح العيون والاكف والقلوب لكن العقوق صفع أخشاده الإنسانى فأرتد ليكتب الى أولشك العابرون على ذكرى طفولته والى الذين ألقوا التحايا والسلام أو شدوا وثاق السمات وأعتلت وجوههم قسمات الزمن الردئ .. فكتب الى كل من اهدأه ور ده . وأيضا الى كل من سدد له طعنة فى الخفاء وكل من جمل له الجفاء على أنه وفاء أو نص يحة ، عنل ك هؤلاء وهؤلاء . دعانا السيد

حافظ الاحتساء قهوة سادة على روح الوفاء رغم أنه فلسف رؤيته فى مقولة تصدرت روايته التى نحن بصدد الحديث عنها(قهوة سادة) بأنه ينسى أن النساء أجسادا من لحم وتجرى فى عروقهم الدماء. ولا ينسى أن لهن ع طر الروح.

والسيد حافظ مبدع متعدد فى وسائل التعبير منذ عرفته قبل عشرين عاما فى أحد مهرجانات المسرح للهواة. وأدركنى بقوله بأنه يعرفنى ، وكنت أعرفه من خلال كتاباته ، وتمت المعرفة الشخصية ووجدت فهي المسرحى المثابر والانسان الصادق والصديق. فدامت معرفتنا . وكتبت عنه بعض الصفحات سواء مسرحية شاهدتها له ، أو أخرى قرأتها له . وهو فى كل الأحوال يمتن لما يكتبه عنه النقاد. هنا أو هناك ولا ننسى أن أسم السيد حافظ مطروح بقوة فى وطننا العربى لما أسهم فيه من مشاركات وتولى مسئوليات ثقافية ومناصب فى المجلات الرائدة فى الوطن العربى . و إذن فهو أسم ملئ الأسماع ووجوده المؤثر فى حياتنا الثقافية له بصمة بارزة على لحم ثقافتنا الحديثة.

والسيد حافظ أبدا لا يكف عن اكتشاف أبعاد جديدة فى حياته . فلقد مارس الكتابة التليفزيونية وكتب للسينما وكون دارا للنشر وترأس تحرير مجلة ثقافية عربية وأسسس مركزا للفنون والإعلام فى مصر وفى الاسكندرية ويحضر الندوات و يشارك بالمشاهدة فى المهرجانات المسرحية المحلية والعالمية وله رصيد كبير من الاعمال المطبوعة وبكتابته للرواية الأدبية يقفل دائرة التعبير ليحصرها فى نطاق السرد الأدبى وهو بذلك يحاول توسيع الدائرة ليرى الناس تلك الحياة التى

يرصدها وهو يكتب بعين الكاميرا ويبلور ب دراما المشرح ويرصد المستجدات بروح الصحافى الذى يبحث فى كل ما يكتب عن روح مصر ويسأل البقية الباقة من النبلاء فينا. الى اين يمضى الوطن !؟.

وأول لاسطور عنده فى هذه الرواية يبدأ من يوم ٥ يونيو ١٩٦٧ ويبدأ السرد من بقعة الدم التى انتشرت على قميص النوم لفتاة اسماها – سهر – وهو يرصد (الروح السابقة) للإنسان الصامد . فلقد بلغت سهر سن الرشد.. وبقعة الدم كانت هى علامة الاكتمال الأنثوى عند الأم التى سعدت بهذا الخبر لاسعيد. بأن ابنتها سهر صارت أنثى !؟

فهل رصد لنا الكاتب بأن هذه الطفلة ذات الاثنى عشر عاما الداخلة فى عالم مرعب من الانسة المتوحشة المترابطة لأنوثتها . وسهر أنبته لجيل فى بلاد الشام وهى الفاكهة المكتملة النضوج، وهى التى يرغب كل الرجال فى أمتلاكها لأنها مكتملة الأنوثة والبطل عند السيد حافظ متعدد الم واهب . ومتعدد الرؤى ولذلك جعله السيد حافظ مثل عنترة بن شداد . قوى فى الجروب – يذوب عشقا للنساء. وعنتر السيد حافظ ليست له عبلة واحدة. إن عبلات الدنيا ملك يمينه حتى ولو بالخيال. إن لم يكن بالزواج الشرعى . وشدد السيد حافظ دوما يعانق المحن يعانى من الوحدة فى البدء ، فكانت الكلمة هى البدء وكانت الأسرة هى المناخ الذى حاول الشداد أن يكون شديدا معنى وقولا وهو برغمه صاحب اتجاه وصاحب مدرسة ومناضل بالقلم.

وفى زمن التكنولوجيا الخلاقة Thstitute of Cretiveenetgy ولكن المشروع الثقافى لدى كاتب هذه الرواية هى الدليل العملى قيمة التمسك بالأدب وبحرفته وبالتلقى الحر لاذى يفيد

إنسان هذا العصر بجانب دولة التكنولوجيا وأن هذه القضية . أو القضايا التى يطرحها السيد حافظ فى روايته. وهذا الزخم من الاحداث. ورصد هذه الميديا والسيسيولوجيا المعلوماتية. وهو يضرب الامثلة تباعا لرموز والكثير من التعبيرات الشعرية والسيد حافظ فى جزئى روايته دائم البحث عن (أيقونته) ومن مرايا منهج هذا الكاتب من خلال هذه الطروحات ورسم هذا العالم الأثيرى. وهذه العلاقة الأدبية الأطرحية Trahsferchce وكل الكلمات الحوارية أو الوصفية – م وحية – وأن رصد الأزمنة عنده إنما يعبر عن ثقافة الطبقة السائدة . تبدأ دوما عنده من أحضان الناس وبأن هؤلاء الناس حماة لها والانتقال بين شخوص مثل شهرزاد ولاروح السابعة وكل هذه الاحداث إنما يحاول الكاتب من خلال هذه الطرح الصادق والتى لا تعرف لغة – التعثر – فلديه . أو هو يطرح عامله الروائى من خلال:

- شمولية التخيل.
- إخضاع التخيل الى الواقع.
- ثنائية الوجدان A mbrvaiabce

وهى التى تحتاج الى المبدع الذى لديه روح انتقادية عميقة والسيد حافظ من خلال روايته قد تغلغل فى أحوال البلاد والعباد وهو يرفض من خلال هذه الرواية أن يتحول الشعب الى عبيد.. إنه يرصد هجرة أبناء الوطن منه. رغم الارتباط الشديد عشقا لتراب الوطن وناسه وأن يترك هذا(الونس) ليقتان سأم الغربة والاغتراب.

وهو حين يقول عن الغربة والاغتراب:

(بطعم القهوة المرة و جدت جيشا من عبيد ورعاع. أو شعبا من العبيد يحب الانحناء والتملق . وعرفت بعد النكسة كم نحن سيئون كشعب

سيئون كقادة . سيئون كسياسين !؟ سيئون نحن كمدرسن. سيئون نحن كبشر).

وحين يناجى الوطن من خلال أصالة المصرى فى الغربة نج ده يقول:

تشدنى أمواجك...

أحب البحث.. عن المجانية فى الكتابة لأشبع عطشى المستحيل..

ثم يقول عن إحدى بطلات روايتيه إن صدق التعبير: فيفيان تنتظرنى ويصف العشق الكامن فى نفسه للنساء. وبشكل خاص جدا لسهر . هذه الفاكهة التى نزلت له من جنة الله. ورسمها جنونه نحو أمرأة خرافية الجمال نورانية الروح يضع لها كل مشاعره تحت أمرها . ثم هو يذهب بنا الى سندس التاريخ الفرعونى يتكلم عن أبطال فى تاريخنا الفرعونى وعن بطلات مثل نفرتيتى إنه يثير ويحدد ويتأمل ويحلم ويمارس طقس الجنون والشجون فيكتب كل مشاعره.

وإذن .. فهذه الرواية هى جزء هام وحيوى صورة السيد حافظ متكئا على معايشة وإرهاصات وإحالات.وكلها صور رائعة من حيث الصياغة وأنى أؤكد أن السيد حافظ كاتب مسكون بالأرق يحاول أن يصرخ ليسمع القاصى والدانى استغاثته من الافعال التى تمارس ضد الإنسان والوطن والمواطنة قديما وحديثا . إنه يحاول أن يعيدنا الى صفوف الإناسيين الذين عليهم أن يعيدنوا صياغة هذا الوطن وأن نجد فى البحث عن هويتنا: وأن نعيد طرحها بشكل عقلانا وب وعى لما يواجه الوطن من أخطار.

ولقد استمتعت بقراءة هذه الرؤية الإبداعية وغاية ما أتمناه أن يظل الكاتب على هذا الجنوب الأدبى المفيد للأدب الروائى الحديث.

نظرة عابرة في بنية رواية " قهوة سادة

الجزء الأول

(حكاية سهر والعشق والقمر)

للكاتب السيد حافظ

أ. محمد الدسوقى

١- حال قراءتي للجزء الأول من رواية -قهوة سادة- للكاتب - السيد حافظ - وجدتني مستمتعا الي حد النشوة ، ومرتبكا حد الفوضي ، وملتبسا حد الجمال ، فالروائي يلعب ، وما أجمل اللعب في الفن ، بل هو الجنون - الذي قال شكسبير عنه منذ زمن بعيد - بالرغم من أن هذا جنون ، إلا أن له منهجا - فما نكاد نشعر بالاستقرار عند لقطة ، أو بنية ، أو فضاء ما ، إلا ونجد الكاتب ينقلنا الي حالة أخري تتناسل في دوامات غنية بعنفوانها وحركتها ومراوغتها - ما أحاول قوله أنني أشعر بشيء من التداخل ، والذي قد يصل الي حد التناقض ، ولكن ما الحيلة والروايه تتداخل فيها الحيوات والشخصيات و.و.و. ببساطة هي رواية الأسئلة ، رواية استبطانية تبحث في الوجود المخبوء في الوقائع والأحداث ، وبالطبع رواية - قهوة سادة - تخرج عن نموذج الرواية الكلاسيكية المستندة الي حكاية وحبكة وحتي تقسيم الرواية الي مقاطع و بداية ونهاية ، لأنها تستغني عن كل هذا ، بحيث نجد كل مقطع أو عنوان يكاد يكون منقطعا عن الذي يليه ، وقد لا ترتبط بعض الاحداث بصورة طبيعية أو متواترة ولكن هناك حالة ينقلها الكاتب من خلال انفعالاته ومشاعره ورؤاه العميقة بحيث نجد المعني الذي يسري في عقولنا له ديمومه سارية قي الرواية كلها ، فنجد - .. أن البعد الدرامي يأتي في صورة انفعالات وأحداث وصور تجعلنا نستشعر عمق الأشياء من خلال نتف صغيرة تتجلي فيها قدرة السارد علي كسر تتابع الحكي من خلال المختزن في ذاكرته ، ما يستلزم تكثيفا لغويا شاعريا فيه قلق الكينونة والخوف من المجهول.. -ولهذا نجد المحكيات كما لو كانت مستقلة عن

بعضها البعض، ولا يؤطرها سوي شخص الكاتب الذي يعمل علي رسم الانساق الحكائية بالقفز علي الوقائع والاحداث المختلفة وهو ما نجد نموذجه في قول الكاتب في موتيفة بعنوان (كاظم) - لم بلمس امرأة في حياته ..لم يضاجع أنثي ..ولكن أمامه الكتب تشرح ماهو الجنس يعرّف الجنس بأنه جملة الخصائص التشكيلية والفسيولوجية العضوية التي تؤمن التكاثر الذي يتلخص جوهره بالتلقيح في نهاية المطاف - - هنا يبدأ الكاتب في رصد غابة الجنس من خلال كتاب يقرأه كاظم معلم سهر ، فنجد ما قاله فرويد ..وما يقوله العرب عن الجنس والباه والنساء ، ثم ينقلنا الكاتب الي حالة خاصة حيث نجد شهرزاد صاحبة الخبرة في تعليم النساء والرجال - المرأة الجميلة التي ضل قلبها الطريق ، وأصبحت وحيدة .. وسهر التي تخاف من أن جمالها نقمة فلا تتزوج مثلها - . هنا نجد البناء الزمني مكثفا بحيث يجيء السرد في صور لولبية تشع من الذاكرة متنصلة من الزمان ، ساقطة علي الوقائع والاحداث ما يمنحها بعدا وقائعيا أو زمكانيا متسربلا بالتباس لا يفارق سارد يلعب بالبنية الحكائية لابتعاث حالة خاصة تتولد منها الدلالة الأخري التي هي أقرب للتفلسف أو التأمل فيما هو مألوف باعتباره غير مألوف في حقيقته ،ومن ثم نجد كاتبنا يقول -العربي لا يفلح إلا في مضاجعة النساء .. وهذه المقولة ثبت فشلها بعد أن كتبت القحبات الأجنبيات الأوروبيات مذكراتهن مع العرب في الفراش .. فسمعة العربي في فراش الجنس صدفة وليست حرفة ، فمستواه ضعيف ومترد وهمجي مثل الكلاب ... المرة الوحيدة التي نجح فيها جيش مصر بكرباج محمد علي الذي دربهم علي القتال .. وضعوا في أذن الفلاح المصري اليمني

بصلة واليسري قطعة قطن حتي يعرف اليمين من اليسار ..فكانوا يقولون لف باتجاه أذنك التي بها البصلة أو القطنة وتعلم فن القتال مع قائده التركي الألباني العظيم ابراهيم محمد علي وهزم الدنيا كلها ..وهزموه في الآخر ..بكي صلاح جاهين ..ظن أنه خدع الجماهير وكتب لهم أغاني صورة صورة ..وكتب علي رأس بستان الاشتراكية ، وتفتت قلبه ألحانا .. مليون قطعة شعر ومليون لحن ..وأطلق المصريون النكات .. منها واحدة خلفت عيل بعد ٣ سنين بدأ يمشي للخلف وليس للأمام ن فذهبت به للطبيب الذي ضحك قائلا لها .. ماتخافيش .. بيمشي للوراء لأنه سيصبح ضابط جيش ؟ - !هكذا نجد التداعي الحر يجري مجراه ويشكل ظاهرة في الرواية كلها مفعما بالتحليل والتأويل والحلم والواقع للوصول الي تخوم مغايرة يمتزج فيها البعد الذاتي الذي يهيمن تركيبا واستنباطا علي كل شيء ، وكأن الواقع هو الغائب إلا من تصورات ورؤي كاتبنا الذي يلعب لعبته المجنونة - وبالرغم من أن هذا جنون ، إلا أن له منهجا !

٢- يلاحظ قاريء الرواية من عنوانها - حكاية سهر والعشق والقمر - أنه سيقرأ حدوته لا تجافي الحكاية المسلسة ، ولكنه حين يشرع في القراءة سيتفاجيء أن جوهر الحكاية ليس إلا تصورات الكاتب الفنية لها ، ما يضطر القاريء أن يبحث عن مفاتيح قراءة جديدة في هذه المتاهة الروائية الكبيرة ، خاصة وأن العنوان الرئيسي للرواية في جزئيها - هو - قهوة سادة - وهو كما نري - عنوان كنائي - أي أنه يكشف من خلال الجزء الأول - التمظهر بين حالتي المؤتلف والمختلف في بنية رواية تستشرف أفقا ابداعيا أكثر رحابة في عالم الرواية الفسيح ، وهو ما

يجعل السرد الروائي - متناثر - والحكاية تتناسل منها حكايات ، فنجد مثلا (فتحي رضوان) يقول - كلما حاصرني حب الوطن بنيرانه وأسهم حقده .. وحاول قتلي ..هربت منه تحت جلد النساء حتي أضمد جروحي ..قررت أن أكتب مذكرات شاب في العشرين ..رواية .. لم لا ؟ وهنا تبدأ شخصية - فتحي رضوان في الكتابة - وكأنها انسلخت عن الراوي / الكاتب - يقول - .. الجمعة الأولي : الصباح أغنية عذبة الأنغام ، جاء كعادته بأشعته الذهبية يتسلق أهداب الكون ، يختال الدروب .- و يستمر الحكي الداخلي - متسلسلا - ويخلع الروائي الداخلي ملابسه ويأكل ويلاحظ أن أحدهم يتلصص عليه ، فيخرج الي الشارع ، ويركب الترام ، ثم يقف أمام بائع صحف ، -وهنا ينكسر التسلسل - فيلمح سارتر يبتسم له ، فيشتري مسرحيته الشهيرة (سجناء الطونا) ويفاجيء بفتاة عارية تطلع من مجلة وتغمز له بعينيها ، ثم نجد ايليا أبو ماضي ، وجبران ، وميحائيل نعيمه ، وحال عودنه الي حجرته يفاجيء بقابيل - ابن آدم - يغلق الكتاب ويداعب فتاة المجلة العارية ، فتصبح حقيقة وهنا يدور حوار قصير بين الراوي فتحي رضوان وبين قابيل ينتهي بخروج الراوي ناركا قابيل يغتصب الفتاة .- اننا بإزاء اجراءات فنية شديدة الخصوصية - فالحدث وحده ليس بقادر علي خلق الأثر ، إلا من خلال شخصية يتشكل فيها ، أو بها .. فالحدث وحده - عاري - وليس إلا محاكاة ، لكن رؤية الحدث من خلال أثره في الشخصية ،أمر مختلف ، فالكاتب لا يهمه الوقائع ، بقدر ما يتولد عنها من حقائق يقطف القاريء معانيها ودلالالتها من خلال حركة الشخصيات وتصوراتها .- عدد الشخصيات في الرواية متنوع وعجيب ، فالشخصيات تغدو كما لو كانت

أجزاء في كُل هش ومتحرك في بناء الرواية ، ويجيء توظيف الشخصيات في الرواية علي عدة مستويات -الأول : الشخصيات الرئيسية - أمثال - سهر ، كاظم ، فتحي رضوان ، شهرزاد - الكاتب يكون حريصا علي رسمها شكلا ومضمونا ، وهي الشخصيات التي تلتصق بكل التفاصيل، وليس من بينهم شخصية تشكل المركز أو نقطة الانطلاق ، يتساوون جميعا في الأهمية لدرجة التماهي وليس للرواية من ديمومة إلا من خلال قوة فعلهم ، وبالتالي يتعرف عليهم القاريء بشكل كامل -الثاني : الشخصيات الهامشية - مثل ركاب ترام البلد .. رجال بملابس بلدية زي ريفنا الجميل .. نساء يرتدين ملابس غير التي نراها في ترام الرمل ..رائحة الركاب منفرة.. لا يستحمون إلا مرة كل شهر ..أو عندما يمارسون الجنس .. وعادة ماتقول النساء لمن تلقي الماء حمام الهنا ياحبيبتي ، أما ركاب ترام البلد فهم .. نجارون .. حدادون..بائعون .. بائعو اوراق الحظ ورق اليانصيب .. بعضهم لا يحمل هوية ..ولا يستحمون إلا في الأعياد والمناسبات ، أما ترام الرمل ..رجال ياقات - فان هوزن- ملابس ذات رائحة جميلة تشعرك بأنك في احدث مدن أوروبا .. لهم وقار ابله .. ولهم حضور جميل بنساء جميلات . هذه الشخصيات لا تمتلك البعد قبل نصي عند المتلقي من جهة ، ولم يجعل لها الكاتب قوة في تواجدها ، ولكنها فاعلة في نفسية القاريء بالتعاطف معها ، خاصة وأن الكاتب يحمّل حضورها بالدلالات المتعددة -أما النوع الثالث من الشخصيات .. فهي الشخصيات العامة ، والتي تمتلك مرجعية خارج النص الروائي ، والكاتب يقدمها بأسمائها ..مثل - الشعراء والأدباء ، أمثال - نزار قباني ، محمود درويش ، صلاح جاهين ، أو

الشخصيات التي لها مرجعية تاريخية أمثال عمر بن الخطاب ، جمال عبد الناصر .. وهؤلاء جميعا يمتلكون بعدا - قبل نصي - ، ووجودهم يحقق حضورا دلاليا سواء عن طريق الإخبار عنهم أو من خلال نصوصهم الشعرية التي تعتبر مكونا أساسيا في بنية هذه الرواية المهمة رواية - قهوة سادة - الهيئة المصرية للكتاب ٢٠١٢

سيرة ذاتية .. للمؤلف محمد أحمد الدسوقى

كاتب قصصي وشاعر وناقد عضو اتحاد كتّاب مصر ونادي القلم الدولي ترأس أمانة عددا من المؤتمرات الأدبية المشرف العام علي صحيفة الفيروز كتب للإذاعة المصرية الكثير من البرامج الإذاعية كرم في اليوبيل الفضي لمؤتمر أدباء مصر صدر له في القصة : محاولة أخري للسقوط قراءة في وجه الحبيبة وفيم أنت تفكر وصدر له في الشعر : علشانك يابلدي – بالعامية المصرية في هامشها الموسيقي سبع تفاحات للرؤيا وأخر متشابهات أرأيتم دمشق ط١ أرأيتم دمشق ط٢ المرأة الدال والرجل الموازي أن تمضي بلا هدف صدر له في النقد والدراسات : وجوه وتأملات في عالم الشعر والشعراء وجوه وتأملات في قصص بعض الكاتبات المصريات الثورة وأسئلة الشعراء قراءة النص قراءة العالم / دراسة في البنية صدر له في الثقافة العامة والسياسة : الحركة الأدبية في جنوب سيناء وإيقاع مستمر سيناء والبحث عن هوية جدلية الخضوع والتمرد في شعر العامية المصرية الواقع العربي ومكمن الألم له تحت الطبع : اذكروا محاسن فوضاكم ديوان شعر لم يسم بعد عن الإيقاع في عالم الرواية من عتمة الحياة إلي ضوء الكتابة إيقاع السيرة الشعرية في ديوان شعر مختار عيسى الواقع المكتنز وآفاق الكتابة السردية

النمطية والانعطافات مابين الحذف والإضافة

نموذجا رواية قهوة سادة

الكاتب السيد حافظ

بقلم أ. سحر الجابري

العراق

سؤال كان يفترض علينا ان نسأل انفسنا اولا ثم الكاتب ثانيا لماذا الكاتب يستخدم في البناء السردي للسباعية أنماط مختلفة؟

هذا يتضح لنا مت خلال كل جزء منفصل ببناء ونمطية سردية مختلفة عن الجزء الاخر رغم ان السباعية منفصلة متصلة من حيث الافكار مختلفة من حيث البناء مرة سردا ذاتيا ومرة سير ذاتية ومرة ثانية سردا محايدا واحيانا امتزاجيا واحيانا احتجاجيا وغالبا شاعريا يغلب عليه السحر والشبق والفتنة واحيانا سردا علاجيا وتفسيريا فالكاتب هنا استعان بالمطر والمباغته مابين الحق والباطل والحقوق والواجبات وتلك الحوادث التي التقطها بمخيلته التصويرية وهو يلاحق تارة عشيقته عارية وتارة يعري الوطن وغالبا مايكون الكاتب هو الراوي ببراعة ضمير المتهجم والبطل على ذلك الواقع الفوضوي وفي الغالب واقع صعب كباقي المجتمعات العربية والغربية احيانا يفاجأ الكاتب الى الحيل والمكر وهو يرسم العشق على جسد المرأة بالدليل الصارخ بوجه المحرمات ليفتح باب العشق الممنوع مرغوب وعلامات الجزع ابتسامات وحماية للنفس الامارة بالسوء..ومن خلال رواية قهوة سادة ورمزيتها تلك الشفاه المرسومة على فنجانها ماهي الا همسات ولمسات مسروقة في وضح الاختلاس يلهث البطل ليقتنصها من تلك المراة التي تحتضن زوجها ليلا بكفين مبللة بعرق الخيانة المباحة معطرة بالدمع والانفعالات..هكذا كان الكاتب وذاكرته التي مازالت ترسم لنا تلك المشاهد بوعي اكثر نصجا من اقرانه لما لا والكاتب السيد حافظ

ينتمي الى جيل سبعيني كان اغلبه يسير بخط مستقيم أومتوازي في كتابة الرواية الرتيبة في تلك الفترة .. لاتقاطع، لاأنعطافات ، لافلاش باك ، لاتبعثر وعبثية بصورة فنية في الكتابة ، اي انه من جيل نمطي في زمن سبعينيات القرن الماضي لكنه اراد التميز و الاختلاف عنهم والابتعاد عن هذه النمطية فراح يكتشف لنفسه عوالم ادبية وفنون سردية مختلفة عن البقية لانه أعتقد ومنذ شبابه ان الكتابة قدر جميل ، فيه الكثير من المتاعب ، وتاتي هذه المتاعب بسبب تفكيره و حمله هموم امة على عاتقه ومحاولا من خلال مايكتب تغيير فكرة مجتمع وارسال رسالة على ان الثقافة والوعي هما الضابط الاساسي للمجتمع وليس القوانين فقط

ذكر هذا من خلال لقاء صحفي (على الكاتب ان يشارك في صنع الوعي للناس ويشاركهم فيه حتى يغير المجتمع في علاقاته لأن نمو الوعي لايأتي بالقوانين وأنما يأتي بالثقافة)

وكذلك تاتي متاعبه بسبب محاولاته للتغيير والخروج من هذا القالب السائد والنمطي لكتابة الرواية ، وتطلعه دائما الى تجاوز المألوف المتداول ، بأسلوبه المبهر المختلف في الكتابة والتنوع الادبي الذي يلقي على القارئ دائما ظلا يسحبه وراءه بعد كل رواية ظلا من المتعة بأسلوب بلاغي متفرد . وفي وقت نجد فيه ضعف الثقافة وانشغال العامة بأمورهم الخاصة ومشاكلهم الكثيرة كل هذه ظروف كفيلة بأن تبعد القارئ العربي عن الادب وجهل في مفهوم الثقافة الادبية ، ووسط كل هذه المعوقات نجد السيد الحافظ باحثا ومفكرا في تعدد طرق كتابته لتصحيح بوصلة القارئ العربي وليعطي لنا امل بأنه مايزال هناك جيل

تعنيه المعرفة الادبية الجاده فاتحا لنا مدرسة جديدة متفردة وهي مدرسة فن الحذف والاضافة عاملا بذلك على توسيع الادب والوانه . ويتجلى هذا اللون من الفن الادبي في روايته قهوة سادة وهي الجزء الاول من سباعيته المميزة والتي عمد الى اعادة طباعتها حيث طبعت لأول مرة في سنة ٢٠١٢ اما الطباعة الثانية فقد كانت في سنة ٢٠٢٠ واظيفت مايقارب على ال ٢٥٠ صفحة على الاولى بين اضافة وحذف وتوسع في الأحداث ورؤية جديدة . وهن طبعتين منفصلتين متصلتين بوشائج الاحداث الاساسية

ونحن هنا نقف على ابواب الحذف والاضافة ونتطرق اليهما بصورة عامة والى الاسباب التي برزت هذا اللون من الفن الجميل محاولين دراسة وفهم كل عتبة من عتبات نصوص الطبعتين فمثلا نبدأ بداية من الغلاف وتصميمه نجده قد تغير واختلف بصورة كليه في الطبعة الاولى عنها في الثانية ففي الطبعة الاولى والتي هي من تصميم الفنانة الحبيبة حسين يطغى على احداث الرواية قصص واحداث رومانسية وما لوحة الغلاف من شمعة تحترق وفنجان القهوة والورود ماهي الا صورة لجلسة شاعرية وموعد غرام على ضوء الشموع . اما غلاف الطبعة الثانية وهم من تصميم الفنان خالد شعبان فأمتاز بعتمة اللون ونثر حبات البن على افق اللوحة ارى ان فكر الحافظ في تاريخ الامة العربية المر بمرارة القهوة وواقعه الذي تغير خلال الثماني سنوات قد انعكس على تصميم اللوحة وعتمة الوانها فقداضاف في الطبعة الثانية الكثير من الاحداث التاريخية المظلمة .. هذا الغلاف والذي يعتبر عتبة نصية مهمة من عتبات النص لانه يعطي المتلقي فكرة اولية عن الرواية .. اما

الدخول الى بداية الطبعة الاولى والتي تتكون من ٢٥٠ صفحة فنجد ان الحافظ بدأها بعنوان (حكاية سهر والعشق والقمر) ص ٥ والاية القرانية وثم الاهداء الى شهداء ثورة يناير والمشاركين فيها وحتى من شاهدها على التفزيون (الى المشارك والمشاهد للثورة معا اكتب هذه الرواية ....الخ الاهداء الى محمد ابني) ص ١٢ وهكذا ....
البداية هي سهر وعام ١٩٦٧ نضجت اليمامة... الحمامة... الوردة ... سهر اسم يعرفه الليل والبحر والشجر واحلام المراهقين والرجال العجائز على ابواب الدكاكين والمحلات في الجبل في بلاد الشام ص١٥ ويستمر الحافظ في السرد محاكيا خيال القارئ بوصف سهر بطلة روايته والتطرق الى حياتها بالجبل ودراستها وتعلق الاستاذ كاظم بها (كاظم معلم اللغة العربية في مدرسة سهر ٣٠ سنة اشقر وسيم العاشق لها بصمت يحب كل الصباحات كي يراها)ص ٢٠ وفي هذه الطبعة اي الاولى لم نجده يتطرق الى التاريخ الا قليلا من خلال فتحي رضوان الذي يعيش في مصرمن خلاله يحدثنا باختصار عن التاريخ (مصر الامة العربية بكت ونامت تئن يومي ٩ و١٠ يونيو ١٩٦٧ سوريا جريحة والاردن في وجع

كل العروبة جريحة

العروبة وهم ام حقيقة؟

فلسطين وهم ام حقيقة ؟

اسرائيل وهم ام حقيقة ؟

كل شئ وهم في الحقيقة) ص ١٠٤ ولنجداغلب احداثها تدور حول حياة فتحي وكاظم وسهر في اطار عاطفي اجتماعي يحدثنا عن رضوان اب

فتحي (رضوان يرش بماء البحر الدكاكين ليأتي الرزق وفيرا .. هل الاسكندرية جزء من البحر والبحر ينسى اسماءهم وشكواهم ويجدد الموج قلبه بالنسيان) ص ١٢٤ ودائما التاريخ يتحدث على لسان فتحي (فتحي رضوان خليل كان دائما يبحث عن سؤال لماذا سميت مصر ام الدنيا ؟ مع ان كل حياتها وتاريخها العسكري محتشد بالهزائم المنكرة ...)ص ١٨٢ وهكذا تتابع الاحداث والقصص والحوارات الداخلية (المنلوج) في حياة فتحي وكاظم وتتعدد العلاقات حتى تنتهي الطبعة الاولى بحديث شهرزاد العرافة مع سهر ممهدا بهذا الحوار في الرواية الى جزء ثاني وحكاية اخناتون مع نفر (انت تتقمصك روح فتاة اسمها نفر

ومن هي نفر ؟

كان ياماكان في سالف العصر والاوان في العصر الفرعوني بنت اسمها نفر)ص ٢٠٥ تاركا القارئ في شوق لمعرفة القصة كما عودنا دائما اما الطبعة الحديثة فقد نجد الاضافة فيها من اول الصفحة والعنوان (قهوة سادة .. قهوة زيادة) ورؤية ثانية مزيدة ومنقحة ، وعنونها الحافظ كذلك ب(مسراوية) موضحا هذا المعنى بملاحظة مهمة (هذه سردية وليست رواية عادية ولكنها مسررواية اي رواية تاخذ المسرح معها في عناق وتلاحم وهو حلم توفيق الحكيم في بنك القلق وكذلك كان حلم يوسف ادريس في نيويرك ٨ وهي ليست حلمي الان بل هي مشروعي ... الخ) ص ٤ ويدخل بنا في البداية بتعريف فتحي رضوان من خلال منولوج الذي هو وسيلة لأستدعاء المحتوى النفسي (قال فتحي رضوان احد ابطال هذه المسرراوية : لاتعتبي علي فقلبي وعمري

ورزقي وحلمي ليس بيدي .. لاتعتبي علي فأنا بقايا فارس وحديقة انغام لم بسمعها الا قلة ..الخ) ص ١٠ وكذالك تعريف سهر قبل دخوله الى الاحداث .. قالت سهر احدى بطلات هذه السردية المسرراوية : اه استاذ كاظم اهرب من سحر عينيك تاسرني ابتسامتك ...الخ نفس الصفحة . وكذلك نرى تقسيم الطبعة الثانية الى فصول معنونه ومبتدئه باقوال لأدباء وشعراء مثل نزار قباني بعد النكسة ١٩٦٧ ارغمني جندك ان اكل من حذائي ياسيدي

ياسيدي السلطان

لقد خسرت الحرب مرتين

لان نصف شعبنا ليس له لسان

ماقيمة الشعب الذي ليس له لسان ....الخ ص ٧٠

تقريبا نجدها تحمل نفس مضمون الحكاية وتتوالى الاحداث نفسها مع الحذف البسيط لأن حسب رؤية الحافظ هذا الحذف يقلل العبئ من على القارئ ولايسبب ضعفا للنص ويزيد اضافات مشوقة حتى نصل الى قهوة زيادة والفصل الخامس عشر بعنوان (فقط يكفيني حرف منك) ص ١٧٢ فتحي رضوان الذي يحمل هم الوطن دائما يقرأ (المصريون الفراعنة هم اول شعوب الارض في تكوين الجيش او اختراع الجيش النظامي .. الخ) ص ١٧٣ بداية حكاية الفراعنة في زمن اخناتون وروح سهر في نفر تحكي شهرزاد الحكاية لسهر نجد الحافظ يروي من خلالها وبعمق في الدلالة والجمالية حكاية من اجمل الحكايات ليظهر لنا في هذا الفصل التاريخ مهيمن على السرد مرويا بأشتراط التاريخ بنسق اسلوبي مبهرونكاد نجزم عند قراءتنا لأحداث التاريخ والتي نقلت الينا

بمصداقية ان هذا التوثيق والنقل بمثابة محك يظهر حقيقة لتاريخ امة ويضعه بين يدي القارئ يريد بذلك أن نقرأ ونطلع ونفهم ثم نحكم على ماقرأنا بأنفسنا ، لذا كانت عملية الحذف والاضافة مسؤلية كبيرة تقع على عاتق الحافظ نفسه . وتتغير الرواية الى مسرحية تاريخية فهو يصف مكان الحدث على شكل مسرح

المكان قصر اخناتون / شرفة تطل على النيل

الزمان ليلا

جلس اخناتون بجوار نفرتيتي وهو يداعب شعرها هامسا في اذنيها ...ص ١٧٥ نجد كل عبارة وحدث توحي بقدرة فائقة على تصوير المكان وفضاءات مشرعة للانهاية تسحر المتلقي لينقلنا الى عوالم الدهشة الممتعة وسحر الحرف ومصداقية النقل للتاريخ (حارة بهاء الدين قراقوش وهي منسوبة الى بهاء الدين قرقوش خادم صلاح الدين الايوبي وهو عبد خصي بنى القلعة وبنى سور مجرى العيون واذاق المصريين الأمريين جلدا وسجنا وسخرية والى الان اسمه موجود !) ص ١٩٦ ونحن نقرأه نشعر اننا ازاء كاهن تاريخي عرف عبر خبرته بتأريخ بدا لنا نحن الجاهلون انه نقل الينا على اتم الصحة بينما هو تاريخ مدجج بالخرافة والجهل .. وهكذا تتوالى احداث المسرحية ونفر روح سهر وسرد شهرزاد للحكايا حتى تتعب شهرزاد من السرد او يخرج عليها الصباح (الى هنا صاح الديك وغدا نكمل الحكايا ياسهر .. من باع .. باع .. ومن اشترى اشترى .. لقد باع اخته واشترى الكاهن نفر بثمن بخس لقد حول كى الى غاسل للموتى .. غدا نكمل الحكاية اوبعد غد..

ياسهر...) ص ١٩٣ ويخرجنا من التاريخ ليعيدنا الى سهر وسحرها على الرجال بنفس طريقة فن المسرح بوصف المكان والزمان
الزمان /صباحا
المكان سوق القرية
قابل راغب ابا سهر اقترب منه بتودد غير معهود
هلا عمي
هلا راغب كيف المختار ابوك
بخير عمي بدي اقولك فكرة فكر فيها عمي
خير قول
ليش سهر بنتك تسافر برات البلاد وهي هنا وسط ناسها واهلها ؟
للزواج
انا اتزوجها وادفع مهرها ثلاث اضعاف العريس ... ص ٢٢٢ انها نصوص مترعة بالخيال متقتة الحرف متمكنة من ادوات النص عاكسة جرأة السيد الحافظ في التلاعب بالسرد وتغييره من خلال الحذف والاضافة حذف بسيط لايفتقده القارئ واضافة ممتعة مشوقة ناقله لنا احداث تاريخية بمنتهى المصادقية وهذا ماندعوه بفن اعادة طبعه للرواياته اكثر من مرة بالتلاعب بالسرد والدخول الى عالم التاريخ وربطه بحاضر مقسما الرواية كما قلنا الى فصول حتى ننتهي بالفصل الخامس عشر ودموع نفرتيتي الكاذبه
احتضنت الملكة كيا ابنها توت عنخ امون خائفة ان يقتلوه او يغتالوه ليلتها جلست نفرتيتي في حالة حزن وبكاءص ٢٥٧ ... الى اخر الحكايا لتبدأ شهرزاد حكاية جديدة وروح اخرى من ارواح سهر السبعة سهر

ما اسمها الحكاية ؟

شهرزاد

اسمها نور والنبي موسى

واخيرا تنتقل الروح لسهر عشيقة فتحي ويبدو أن الكاتب كان متقصدا ان ينقل لناحوارا اي جملا حوارية صارت سردا داخل حوار شهرزاد وسهر فأصبح المشهد سهلا وغير معقدا وشخصية متحررة بالشغل بالها الا الجنس والمال والوصف لتلك العلاقات الحميمية فهو اي فتحي رضوان الوحيد الذي قدسها بوضوح مستمر غير مسبوق كانها الملاك الحارس الذكي الذي طالما ابكى فتحي رضوان فأصبح فريسة نزواته الباذخة مع النساء والوطن لتلك التي اسمها تهاني يرى فيها حريته الانسانية وانضباطه الاسري...حتى وإن لم يحافظ عليها...فهو الزوج المطاع صاحب السلطة المطلقة...نحن أمام حقيقة لابد أن تذكر للتاريخ انام سرد روائي متجانس بين السيرة والحقائق بين المتصل والمتفصل بين رواية تعلن عن نفسها ببصمتها المتميزة وهذا ليس غريبا على ابن الحافظ من حيث التقنيات والحداثة واستحضار كل ماهو جديد وخلق تصور خاص بالحافظ غالبا ما يتضح هنا الحذف والاضافة وهذا هو المعروف والملموس عن الكاتب المتميز بابداعه السيد حافظ.



التماس بين الواقع والخيال
في رواية قهوة سادة
كتبت : أ. بسنت حسين

قهوة سادة هو عنوان الفصل الأول من سباعية الكاتب الكبير\ السيد حافظ وهى بداية لسرد تاريخ مصر في عمل أدبي فريد من نوعه على مستوى الشكل والمضمون.

نجد أن مصر وشعبها الأبطال الحقيقيين للسباعية وفي كل فصل، فقال عنها الكاتب من خلال فتحي رضوان ص١٨٢

(مصر سميت "أم الدنيا" نسبة للسيدة هاجر زوجة إبراهيم صلى الله عليه وسلم حيث هى من مصر، وولد سيدنا إبراهيم فى العراق وانتقل وعاش بين مصر والشام، وتزوَّج السيدة هاجر وهى كانت من مصر وبعدها انتقل للجزيرة العربية وتم تعمير الجزيرة العربية التى لم يسكن بها بشر من قبل وتم رفع قواعد البيت العتيق؛ لهذا سميت مصر أم الدنيا حيث أن السيدة هاجر هى أم أنبياء الله وأم سيدنا إسماعيل وأم العرب وهى مصرية، وكان هذا تكريماً للسيدة هاجر.. مصر أم الدنيا سبب تاريخى وهذا تكريم لمصر ممثلًا فى السيدة هاجر زوجة سيدنا إبراهيم وأم سيدنا إسماعيل أبو العرب والأنبياء والدليل على هذا حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام عن أهل مصر، وهو حديث صحيح)

وعن شعبها، نجد في الفصل الأول من ص٣٨

وأما أرض مصر فأرض قوراء غوراء.. ديار الفراعنة ومنازل الجبابرة.. تحمد بفضل نيلها.. وذمها أكثر من مدحها.. هواؤها راكد.. وحرها زائد.. وشرها وارد.. تكدر الألوان.. وتخيب الفطن.. (أى تقتل المبدع).. وتكثر فيها الإحن (أى الحقد) وهى معدن الذهب والجواهر والزمرد والأموال وغارس الغلات.. غير أنها تسمم الأبدان.. وتسود الأبشار (جمع بشرة الجلد) وتنمو فيها الأعمار.. وفى أهلها مكر ورياء،

وخبث ودهاء وخديعة.. إلا أنها بلد مكسب لا بلد مسكن.. لترادف فتنها واتصال شروها ولمصر علاقة مع الحجاز.. والحجاز حاجز بين الشام واليمن.. والحجاز هواؤه مرور وليله سهور فيجف الجسم ويخفف الأدمغة ويشجع القلوب ويثبط الهمم ويبعث على الإحن (الحقد) وهو بلد محل قحط وضنك.."

(كتاب مروج الذهب ومعادن الجواهر ص ٣٧١ الجزء الأول)

وقال عنها الدكتور جمال حمدان فى كتابه مختارات من شخصية مصر.. وفي ص٣٩

"نحن كشعب لابد لنا بصراحة أن نعترف.. لا نحب فقط أن نمجد ونطرى أنفسنا بحق وبغير حق.. ولكننا أيضاً نحب أن نسمع عن أنفسنا ما يرضينا ويعجبنا.. أو يرضى إعجابنا بذاتنا الوطنية وبشخصيتنا القومية.. بل إننا لنكره أشد الكره أن نسمع عن عيوبنا وشوائبنا.. ونرفض بإيباء أن نواجهها أو نواجه بها.. ولا تكاد توجد فضيلة أو ميزة على وجه الأرض إلا وننسبها إلى أنفسنا ونلصقها بها.. وأيما رذيلة أو عيب فينا..

وفي حديث الحجاج بن يوسف الثقفي لطارق بن عمرو ص١٤٨

" لو ولاك أمير المؤمنين أمر مصر فعليك بالعدل، فهم قتلة الظلمة، وهادمي الأمم، وما أتى عليهم قادم بخير إلا التقموه، كما تلتقم الأم رضيعها، وما أتى عليهم قادم بشر إلا أكلوه كما تأكل النار أجف الحطب، وهم أهل قوة وصبر وجلدة وحمل، ولا يغرنك صبرهم، ولا تستضعف قوتهم فهم إن قاموا لنصرة رجل ما تركوه إلا والتاج على رأسه، فاتق غضبهم ولا تشعل نارا لا يطفئها إلا خالقهم، فانتصر بهم فهم خير أجناد

الأرض، واتق فيهم ثلاثا: ١ـ نساءهم فلا تقربهم بسوء وإلا أكلوك كما تأكل الأسود فرائسها. ٢ـ أرضهم وإلا حاربتك صخور جبالهم. ٣ـ دينهم وإلا أحرقوا عليك دنياك. وهم صخرة في جبل كبرياء الله تتحطم عليها أحلام أعدائهم وأعداء الله"

ارتبطت القهوة السادة بالمآتم حيث أول مرة تم تقديمها في مصر بعد أن أفتى الأزهر بجواز شربها وأنها لا تذهب العقل، فقدمت للعامة من تجار القهوة في مأتم أحد ضحايا الاحتجاجات على قرار منع وتحريم شرب القهوة في مصر.

قدم لنا كاتبنا "قهوة سادة" كافتتاحية لتاريخ لا يخلو من الهزائم والوشايات وكتعبير عن الحالة الشعورية لبداية هذا الفصل والذي بدأ في يوم النكسة ٥ يونيو ١٩٦٧ وهو تاريخ العار والحسرة لكل المصرين والشرفاء من العرب.

في الفصل الأول من الرواية قدم لنا كاتبنا أبطال الرواية (وأبطال السباعية ككل):

فتحي خليل رضوان الذي ولد عام ١٩٤٨ عام هزيمة العرب في فلسطين وفي يوم استشهاد البطل أحمد عبد العزيز بالتحديد وكأن الكاتب يريد أن يبرهن على تشتت البطل الذي عمل في أكثر من مجال وتعددت هواياته دون أن يُخلص لأي منها، تجرع الحب والخيانة معًا فحبه لزميلته ناهد لم يعوقه عن نزواته الجنسية مع فيفيان وغيرها كلما سنحت له الفرصة.

هوى دراسة الأدب لكنه تطلع لدراسة الإعلام.. عشق الإسكندرية وعاش في القاهرة.

فكما وصفه الكاتب في الجزء الأول ص١٨٥

"فتحي رضوان كان نموذجًا لملايين الشباب العربي والمصري الضائع التي تطير أحلامهم في السماء كل صباح وترحل في المساء مع السفن المهاجرة إلى أمريكا والغرب".

وفي الجزء الثاني ص٣٤٧

"فتحى يحب التاريخ كي يفهم ما يجرى فى مصر الآن لأن الحاضر هو الابن الشرعى للماضى."

أما عن حبه للكتابة، فقد برهن عليها فتحي في حديثه مع ناهد في الجزء الثاني ص٢٣٣

- **يا فتحي.. لماذا تكتب؟**
- **كي أحرر نفسي من القلق.**
- **هل تشعر بالتحرر عندما تكتب؟**
- **نعم وأشعر بالخبل والهذيان وحمى الأنبياء كأنني في رحلة خارج الزمان والمكان لأكتشف أنى إنسان. عندما أكتب أشعر بالمتعة والألم أملا أن يشعر القارئ بهذا.**

وفي ص٢٣٦

- **كتابة إيه؟ كم ستكسب؟ لماذا تكتب؟**
- **يا ناهد.. الكتابة تعوّض لى بعض أيام من عمرى الذى سرقه الوطن منى..**

من كم الخيانات التي تعرض لها فتحي رضوان باتت هواجس في دواخله ان اي امرأة تقترن بحبه خائنة اما ان يكون مصابا بهوس خيانة

الاصدقاء أو هو من خان الاصدقاء فأصبحت كارما الخيانة تلاحقه كظله كأنما شرنقة تحيط به. يا ترى كم عدد ضحايا فتحي رضوان في عالمه الظلي الافتراضي.؟؟ من هنا انبثقت علاقة التعانق والتعالق ما بين الكاتب والشخصيات والقارئ والنص ومدى هذه العلاقة التي انسجت احتمالين اما ضد او مع التواصل بالرغبات والشهوات او العدائية بنوعيها المعلنة او المبطنة.. الحالة النفسية مؤثرة ايجابا او سلبا على القارئ والكاتب والنص السردي لذلك يرى بعض الكتاب المبدعين لابد من صياغة النص الروائي وكتابته مرة ثانية وبعدد لامتناهي من المرات وهذا هو فن الحذف الذي يتميز به الكاتب المبدع وكاتبنا السيد حافظ نموذجا راقيا لهذا الفن(فن الحذف) بإتقان وحرفية وصنعة متميزة منحته صفة جديدة اضافة الى عبقريته وابداعه المتميز.

فتحي الذي أحب عبد الناصر وكرهه بعد النكسة والذي آمن بالإشتراكية ولعن مريديها.. هذا هو التائه المشتت والمهزوم من وطنه وعروبته.

*سهر توأم روح فتحي والتي ولدت يوم الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨ في الشام وكأنها دلالة على حلم القومية العربية الذي تبناه عبد الناصر وفشل فيها، فالشام كمصر كثر الغزاة على أرضها لتصبح في النهاية مباحة من أكثر من جهة.

كاظم أستاذ اللغة العربية الذي حلم بالاشتراكية وتنفس الحرية مع سيجار جيفارا وعانى من حلمه كما عانى فتحي خليل رضوان وتشارك معه الحلم في حب سهر وكلاهما فشل في الاحتفاظ بها.. ليكون هناك انعكاس لصورة فتحي في الشام بنفس الخيبة والانكسار.

وفي الفصل الثاني للرواية ظهرت أول روح لسهر في مصر القديمة:
*نفر الجميلة التي أحبها أكثر من رجل، وقعت في حب المعلم باكا كما أعجبت سهر بكاظم في بادئ الأمر وأحبها حور محب وكير كما أحبها راغب وشداد وباها أخيها كير كما نوى سامي أخو سهر عندما أراد تزويجها لشداد.

أما الحبكة الأساسية فكانت هزيمة القائد والوطن

فعن مقتل عبد الحكيم عامر ص٧٦

قتل "عبد الناصر" أخاه "عبد الحكيم عامر".. سمى ابنه عبد الحكيم، وسمى عبد الحكيم ابنه "جمال".. قتل ست أخاه أوزوريس مزقه أربعين جزءًا، ودفن فى كل قرية جزءًا.. قتل بطليموس السابع ابنه غير الشرعي، ومن المحتمل أن يكون هو الذى أوكل إليه حكومة (سرنيقا) ولم يكن لأهل الإسكندرية غير هذا المخرج فى ذلك الوقت..

طلب عبد الناصر حكيم للعشاء معه، ثم أرسل "عبد المنعم رياض" و"محمد فوزى" ليقتلاه بعيدًا عن مرأى عبد الناصر (كما قال جمال ابن عبد الحكيم عامر فى حديث له مع التلفزيون المصرى)..

وعن توثيق النكسة قال تحي رضوان ص١٦٠

لم يفلح عقاب محمد على فى الجبرتى بأن يوقف رصد يوميات تاريخية؛ ففكر فى موته قهرًا؛ ففى صباح الثامن والعشرين من رمضان سنة ١٢٣٧هـ فى ١٩ يونيو ١٨٢٢ كان خليل بن عبد الرحمن الجبرتى، وهو أحب أولاده لديه، عائدًا من قصر محمد على فى شبرا بعد صلاة الفجر؛ فخرج عليه جماعة أخذوا يضربونه حتى قضى عليه وخنقوه.. وربطوا قدمه بحمار بسحله.. فى الصباح وجد الناس خليل بن الجبرتى

مقتولًا وعلى صدره دفاتر مكتوبة واسطرلاب لرصد النجوم.. قالوا فى إشاعات إن سليمان أغا السلحدار ومحمد بك الدفتردار صهر محمد على وأن الأخير استأذن محمد على فى مؤامرة قتل خليل.. أصيب الجبرتى باكتئاب وترك الكتابة والتأليف وانقطع عن القراءة وألح عليه الحزن وأكثر البكاء حتى ذهب بصره، وبقى مريضًا فى الدار، وترك ابنته، ثم أحرقوا منزله بالصنادقية حتى يحرقوا كتبه ومسوداته عن "محمد على" وحتى لا يعرف الجيل القادم ما جرى..

أدركت تلك اللحظة أنه لن يكتب ولن يجرؤ مؤرخ على كتابة أسباب نكسة يونيو ١٩٦٧!!

وفي الفصل الثاني من الرواية

يقول الكاتب في البردية ص٣١٣

كل شىء فى مصر يقبل الرشوة إلا الله لأنه عادل ونزيه.. الرجل يذبح أخاه من أمه فما العمل؟.. الرجل ينظر لابنه نظرة عدوه.. الرجل يذبح بجوار أخيه فيتركه وحيدا لينجى بنفسه.. انظرى لا صانع يعمل، والعدو يحرم البلاد من العمل.. إن من حصد المحصول لا يعلم عنه شيئا.. قوانين قاعة العدل والأحكام قد ألقى بها ظهريا؛ فصارت تدوسها الناس بالأقدام فى المحال العامة والفقراء يقضونها على قارعة الطريق.. أوراق العدل على الطريق ملقاة.. لا تنفذ أحكام العدل فى البلاد.. لا قيمة للعدل عند الأغنياء.. والتجارة الخارجية تنحط يوما بعد يوم.. الناس تسلب السائح ماله فى الليل ويجردونه مما معه (البلطجية الآن) ويضربونه بالعصى أو يذبحونة كالشاة.. البلاد تدور كعجلة صانع الفخار.. ونظام البلاد قد قلب رأسا على عقب.. فمن كان لصا صار رب ثروة.. والغنى الأصلى

صار إنسانا منهوبا، والمتحلى بالفضائل يسير وهو محزون (مكتئب) ويقول الرجل الأحمق إذا عرفت أين يوجد الله فإنى أقدم له قربانا (هدية) حتى ينقذه من بلاء الظلم.. ويقول الشريف يا ليتنى كنت ميتا (غربة الشرفاء) والأطفال الصغار يقولون كان يجب عليه ألا يجعلنا على قيد الحياة (يكره الشباب حياتهم).. البؤس عم فى هذا الزمان والفساد والفوضى.

وعن حديث سمنغ كارع أخو إخناتون عن مصر ص٢٤٦

- أى أميرتى.. إننا فى بلد مهدد من الداخل بالتفتت من كثرة الآلهة، ومهدد من الخارج من الحيثيين، وأعلم أن إخناتون يبنى عاصمة جديدة للبلاد هى أخيتاتون أى أفق آتون..

*وعلى لسان الملكة تي ص٢٤٤

- أي مليكي الصغير إخناتون إنك لا تعرف أن الدولة أربعة ضلوع: الفرعون، والجيش، والكهنة، والشعب.. إن فقدت ضلعا سقطت يا مليكي من قلب التاريخ إلى هامشه.. إن فرعون مصر يقود الأمة، ويقود المعبد والكهنة والشعب.. إن اخاك "سمنغ كارع" يؤمن بأفكارك وبما تقول ويساندك.. إن قوة الأخوة أكبر من الكلمات والمواقف.

فتعاون بسام المختار مع شداد ليتزوج سهر والميثاء مع وردة لكسب ود كاظم يشبه تعاون حور محب قائد جيش اخناتون الذي تعاون مع الكهنة ورك حدود البلاد عارية للمحتل وقتل كي لاخناتون بأمر الكهنة

وختامًا

رواية قهوة سادة ثورة نصية ابداعية حداثية متجاوزة عن الواقعية الكلاسيكية في السرد الروائي تحذو حذوا مغايرا تماما ما بين الشخصيات والرمزية والاضافة والحذف سواءاكن هذا الحذف يضيف للرواية مؤهلا فكريا وثقافيا مصقولا بالتواصل الاجتماعي والثقافي من حيث رغبة الكاتب في التجديد والحداثة لهذا الجنس الادبي لكن السؤال هنا..

هل هذا الحذف سيكون سبب في التمارض والتعالي الذاتوي للكاتب؟؟؟

كلا بل ولد نمط جديد طغت عليه الجودة الشاملة والتميز وابتعد عن الوجودية وانبثق منه الغرابة ما بين الجوهر والتصور والتخيل في السرد الروائي الحافظي...فهل الكتابة كانت تواصل اجتماعي وتحدي للذات السيد حافظ في وطن خان عشقه وحبه له....

السيرة الذاتية

بسنت حسين

- كاتبة مصرية
- صدر لها عدد من الكتب:
- أغنية لم تغنها داليدا دار فابريكا ٢٠١٤
- صناع الإسكندرية منحة المملكة المتحدة بالتعاون مع إيس ألكس٢٠١٦
- سوف أشبه جدتي متوالية قصصية ط١ دار روافد ٢٠١٨ ط٢ دار النخبة ٢٠١٨
- كتاب الأغاني (دراسة عن الأغنية المصرية من ١٩٠١ إلى ٢٠١٧) ط١ دار روافد ٢٠١٨ ط٢ دار النخبة ٢٠١٨

تحت الطبع :

- كتاب ولاد طنط فكيهة
- مجموعة قصصية بعنوان "عالم المسكوت عنه"

- الجوائز : المركز الخامس في مسابقة القصة القصيرة عام ٢٠١٢ تحت إشراف وزارة الثقافة المصرية.

نبذة عن الكاتبة

د. نجاة صادق الجشعمى

- من مواليد البصرة – العراق
- عملت بسلك التدريس في وزارة التربية والتعليم
- حصلت على رسالة الدكتوراة من الجامعة الأمريكية في التاريخ.
- حاصلة على دبلوم تنمية بشرية "دبلوم منهجية الرعاية الخاصة مهارات ومهارات حسية"
- حاصلة على دبلومة "إعداد البرامج العلاجية فى تنمية المهارات وتعديل السلوك".
- حاصلة على دبلومة "إعداد مدرس مساند".
- حاصلة على دبلومة "إعداد برامج علاجية فى مجال الاضرابات النمائية (نظرى – عملى)"
- حاصلة على دبلومة "برنامج تدريبى مكثف فى تعديل السلوك"
- حاصلة على دبلومة "البرنامج التدريبى المكثف (التكامل الحسى) بشقيه النظرى والعملى"
- حاصلة على دبلومة " الوظائف التنفيذية للمخ"
- حاصلة على دبلومة "تشخيص الاضطرابات النمائية"
- حاصلة على دبلومة " معلم صعوبات التعلم دفعة ٤"
- تكتب دراسات حول الأدب والمسرح العراقى ونشرت في عدة صحف أهمها جريدة "مسرحنا" جمهورية مصر العربية.

لها العديد من الكتب :

١- التشظى وتداخل الأجناس الأدبية في الرواية العربية (جزء أول)

٢- التشظى وتداخل الأجناس الأدبية في الرواية العربية (جزء ثانٍ)

٣- التنوع الدلإلى في مسرح الطفل ما بين التناص والتراث والإخراج

٤- رؤية النقد لعلامات النص المسرحى لمسرح الطفل في الوطن العربى

٥- تمظهر التجديد في بنية السرد في القصة القصيرة

٦- ديوان لست مؤهلة للعشق

٧- حكايات نساء بغداد والبصرة بين الندم والحسرة

٨- عواطف البدر رائدة مسرح الطفل في الكويت

٩- المشاكس "رحلة في رحاب الكاتب السيد حافظ

١٠- السيد حافظ في عيون الباحثين والنقاد الجزائريين

١١- السيد حافظ في عيون نقاد المغرب (جزء ١ ،٢)
١٢- المسرح التجريبى واختلاف الرؤى في التأليف (ج أول)
١٣- المسرح التجريبى واختلاف الرؤى في التأليف (ج ثان)
١٤- الحب الملكى – سحر التنهيد والعشق – مقتطفات من سباعية السيد حافظ الروائية.
١٥- فرسان المسرح العربى "من أجل النهوض بفن المسرح"
١٦- إشكالية وتمازج ملامح العشق المقدس والمدنس نموذجًا "رواية لو لم أعشقها" للكاتب السيد حافظ.
١٧- الحب ما بين الاصطلاح والرمزية – دراسات نسوية.
١٨- معمارية البناء وجماليات السرد ما بين الزمانكية وعولمة النقد – ضمن مشروع ورشة النقد للسرد الروائى "السباعية" الجزء السادس - نموذجًا رواية "ما أنا بكاتب".
١٩- التجريب وجماليات البناء السردي في الرواية العربية - ضمن مشروع ورشة النقد للسرد الروائى "السباعية" الجزء السادس - نموذجًا رواية "ما أنا بكاتب".
٢٠- العنونة ما بين الصورة والزمانكية فى الرواية – ضمن مشروع ورشة النقد للسرد الروائى "السباعية" الجزء السادس - نموذجًا رواية "ما أنا بكاتب".
٢١- الشخصيات ما بين المرئى واللامرئى والثابت والمتغير في السرد الروائى- ضمن مشروع النقد للسرد الروائى "السباعية" الجزء الرابع - نموذجًا رواية "كل من عليها خان".
٢٢- التجريب وانحرافات السرد في الرواية - ضمن مشروع النقد للسرد الروائى "السباعية" الجزء الخامس - نموذجًا رواية "حتى يطمئن قلبى". ط ٢٠٢١
٢٣- التمرد على نمطية السرد في بنية الرواية – ضمن مشروع النقد للسرد الروائى "السباعية" الجزء الثانى- نموذجًا رواية "كابتشينو". ط ٢٠٢١
٢٤- جدلية الأنساق والدلالات الرمزية المضمرة في السرد الروائى - ضمن مشروع النقد للسرد الروائى "السباعية" الجزء الأول" قهوة سادة" ط ٢٠٢١

لها تحت الطبع :

- شذى سالم نجمة العراق

الفهرس

الإهــداء ٣
رؤى نقدية بقلم ٤
تقديم بقلم : أ.د. مازن موفق صديق الخيرو 5
مقدمة الكاتبة ٧
قهوة سادة ... قهوة زيادة مرتكزات النص السردي حد الالتحام بالنقد المستحيل د. نجاة صادق الجشعمى ١١
جماليات تشكيل مسرواية قهوة سادة وتداخل الأجناس في الرواية العربية د. آمـال شوقى ٢٨
"قهوة سادة" للروائى السيد حافظ أ.د. كمال الد عيد ٤٩
قهوة سادة والأرواح السبعة لسهر نموذجًا رواية " قهوة سادة " للكاتب السيد حافظ بقلم أ. فاديا سلوم ٧٨
"قهوة سادة" للسيد حافظ من سلطة العنوان إلى حكايا شهرزاد د. جميلة رحمانى ٨٧
مقام البوح على شرفة الجسد رشفة من فنجان قهوة سادة د. حنان حطاب ١١٣
رمزية العشق وأسماء النساء في رواية قهوة سادة الدكتور : ستار عايد العتابى ١٢٨
المرأة والحب فى رواية قهوة سادة د/ لبلبة فتحى خليفة ١٣٧
قهوة سادة "ذاكرة الروح والجسد" د. وفاء كمالو ١٤٩
بقعة دم على جدار التاريخ قراءة فى "قهوة سادة" د. أمجد ريان ١٦٦
تأملات في سرديات السيد حافظ نموذجاً رواية " قهوة سادة " بقلم د. إبراهيم بوخالفة ١٨٣
الموتيف في رواية " قهوة سادة " أ. دينا نبيل ٢٢٢
قراءة في رواية "قهوة سادة" أ. عواطف الزين ٢٤٣
قراءة لرواية "قهوة سادة" للمبدع السيد حافظ رؤية : أ. فهمى إبراهيم ٢٤٩
"قهوة سادة" فسيفساء روائية بقلم : أ. أحمد فضل شبلول ٢٨٣
" قهوة سادة " ولا عزاء للكبار أ. معتز العجمى ٢٩٢
قهوة سادة رواية أدبية حديثة للسيد حافظ أ. أمين بكير ٢٩٧
نظرة عابرة في بنية رواية " قهوة سادة أ. محمد الدسوقى ٣٠٤
النمطية والانعطافات مابين الحذف والإضافة بقلم أ. سحر الجابري ٣١٢
التماس بين الواقع والخيال في رواية قهوة سادة كتبت : أ. بسنت حسين ٣٢٢
نبذة عن الكاتبة ٣٣٣
الفهرس ٣٣٥